

أسرار الحياة

(هذا لا يعني)



د. غفار محمد

أسرار الحياة ...

الإهداء :

**إلى كل من يضع القدر هذا الكتاب بين
يديه ، عليه يجد فيه خيراً ..**

أسرار الحياة ...

محتوى الكتاب :

○ فلسفة الأنا و الهو

● 10+ & - 1000

○ حقل الألغام

● فلسفة الطاقة المهدورة

○ فلسفة لقاح الظلام

● الولادة الحقيقية

○ فلسفة دائرة الأرزاق

● فلسفة خريطة الكنز

○ آلام الموت

● الإشباع و بداية الضياع

○ التعاضد النفسي

● أثر الكوبرا

○ الشيطان هو أنت

● الخوف الفطري

○ كرتا غاليلو

● الارتواء من البحر

○ لماذا يتزوج البشر ؟!

● لا شبيه لك

○ و أوحينا إليك

● هل الله موجود ؟!

○ اللاوعي

● سراب الشهرة

○ نصل أوكام

- لسانك حصانك
- الدهر يومان
- العدو الوهمي
- الفقاعة المحافضة
- نظارات الحياة
- نسبية الصواب و الخطأ
- معضلة القنفذ
- النجاح لا يعني تحطيم الآخرين
- العقاب بالتشجيع
- لكل شيء ثمن وذلك لغاية
- هذا لا يعني

أسرار الحياة ...

فلسفة الأنا و الهو

دعونا نُرهفُ السمعَ لهسيس الطبيعة، حيثُ تخبئُ لنا زهرةُ النرجسِ سرّاً دفيناً؛ فهذا الكائنُ الرقيقُ في ظاهره، يشنُّ تحت الثرى حرباً ضروساً من أجل الانفرادِ بالحياة، فيمتصُّ نسغَ الأرضِ بشراهةٍ قاتلة، مُقصياً كلَّ ما حوله من نباتاتٍ ليبقى هو "الأوحد" في ملكوته الترابي. ومن هذا التوحدِ البيولوجي، استلهمَ الطبُّ النفسيُّ مصطلحَ "النرجسية"؛ تلك الحالةُ التي ينسجُ فيها المريضُ شرنقةً من تعظيم الذات، محتقراً كلَّ وجهٍ آخرٍ في الكون، فلا يرى في رحابةِ الوجودِ إلا انعكاسَ صورته، بينما يغدو الآخرون في نظره مجردَ أطيافٍ محترقة، أو قرابينَ تُقدَّم على مذبح طموحاته ورغباته التي لا ترتوي. وعلى ضفافِ الأسطورة، يطلُّ علينا "نرسيِس"؛ ذاك الشابُّ الإغريقيُّ الذي حُكِمَ عليه بعشقِ المستحيل. لقد غرقَ في مرآةِ البحيرةِ ليس حباً في الماء، بل هياماً بوجهه الذي لم يبصر غيره، حتى تلاشت الحدودُ بين "الأنا" وظلّها، فسقطَ في قاعِ انبهاره ليكون الموتُ هو النهايةُ الوحيدةُ لعشقي لا يتسعُ لآخر.



وهنا ينبثق سؤالٌ وجوديٌّ بلامح حائرة: هل الاعتكاف على الذات

هو أمر إيجابي و جميل كحال زهرة النرجس ، يمنح الإنسان السعادة و يفسر ميله الفطري إلى الأنانية و الفوقية تجاه الآخرين !؟

في المقابل، يبرزُ خيطٌ رفيعٌ يفصلُ بين النورِ والظلمة، وهو ما يخلطُ فيه الكثيرون بين "الأنانية" و"حب الذات". إنَّ حبَّ الذاتِ ليس خطيئةً، بل هو الترياقُ الذي يجعلُ للحياة طعمًا، والوقودُ الذي يمنحُ وجودنا قيمةً ومعنى؛ فمن غابَ عنه ودادُ نفسه، ضلَّ طريقَ الودادِ للآخرين، وكما تهمسُ الحكمةُ الشعبية: "من لا يحبُّ نفسه، لا يعرفُ كيف يسكبُ الحبَّ في قلوبِ البشر".

أما الأنانية، فهي الوجهُ المظلمُ لذلك الحب، هي تضخُّمُ "الأنا" حتى تحجبَ رؤيةَ الكون، حيثُ يستأثرُ الإنسانُ بكلِّ ومضةٍ نجاح، ويشحُّ بفيضِ سعادته عن جيرانه في الوجود. والأخطرُ من ذلك، أن تتحولَ هذه الأنانيةُ إلى "نرجسية" شرسة، تنهجُ سبيلَ تلك الزهرة في تدميرِ كلِّ غرسةٍ مجاورة، سعيًا للانفرادِ بقمةٍ وهميةٍ لا تسعُ إلا شخصاً واحداً. هناك، تبلغُ الأنانيةُ ذروتها، ويتحولُ الإنسانُ إلى سجينِ مرآته، وحيداً في قمةٍ باردةٍ بناها على أنقاضِ أرواحٍ لم يبصر جمالها يوماً.

تجربة القصر :

أدعوك الآن، يا رفيقَ الحرف، إلى تجربةٍ ذهنيةٍ فريدة، تتدثرُ بالبساطة لكنها تسبرُ أغوارَ النفس وتكشفُ زيفَ المغالطات التي نعيشُها. تخيلُ أنني أفتحُ أمامك أبوابَ الغد، وأمنحك ترفَ الاختيارِ المطلق بين ثلاثة مساراتٍ للأبدية، ولكَ كاملُ الحرية في انتقاء ما يميلُ إليه قلبك وتُمليه عليك قناعاتك:

الأول: أن توصلَ عليك أبوابَ قصرٍ منيف، فيه كلُّ ما تشتهيهِ الأنفسُ وتلدُّ الأعين، لكنك ستمضي فيه دهرَكَ وحيداً، لا يؤنسُ وحشتَكَ سوى صدى خُطاك.

الثاني: أن تسكن ذات القصر الباذخ، وتُحاط بآلاف العبيد والخدم الذين يأترون بأمرِك ويزوبون في رغباتك، لتعيش سيداً مطاعاً إلى أبد الأبد.

الثالث: أن تعمر جنبات ذلك القصر بآلاف الأصدقاء، حيث تضجُ القاعاتُ بضحكات المحبين وتتناغم الأرواحُ في ألفة لا تعرف الانقضاء.

انتبه جيداً يا صديقي؛ فالقصر هو ذاته في الحالات الثلاث، والأبدية هي القاسم المشترك الذي لا مفر منه. ولعلك تلاحظ أن هذه هي الاحتمالات المنطقية المتاحة، فقد أسقطنا من حساباتنا خياراً رابعاً لا يقبل به ذو عقل، وهو العيش وسط آلاف الأعداء؛ فمن ذا الذي يرتضي الجحيم سكناً؟ ومن ذا الذي يختار أن تقتات الضغينة على سكينته؟ إنها معضلة الحياة الكبرى التي نَفَر منها جميعاً.

والآن، دعونا نُشَرِّح هذه الخيارات، ونغوص في أبعاد كل واحد منها، لنتبين معاً أي الطريق هو الأليق بروح الإنسان، وأيها يمنح الوجود معناه الأسمى.

✽ الخيار الأول : أن تعيش بمفردك إلى الأبد ..

في المسار الأول، تطلُّ علينا الوحدة بوجهها الغامض؛ قد تبدو تلك العزلة في بدايتها واحةً من السكينة، بل ربما هي ضرورة مقدسة في محطات العمر ليرتب المرء بعثرة أفكاره، ويصغي لنبض أحلامه بعيداً عن ضجيج العالم. لكن، هل يمكن للواحة أن تكون وطناً إلى الأبد؟ إن النفس البشرية جُبلت على التوق لآخر، لمرأة ناطقة تُحدثها عن مخاوفها فتتبدد، وعن إنجازاتها فتتضاعف. فالعلم والتجربة يؤكدان أن الإنسان لا يكتمل إلا بإنسان، وأن الاستواء النفسي هو ثمرة اشتباك الروح بالروح.

ما قيمة التفاصيل الدقيقة في حياتك إن لم تجد صدىً في أذن محب؟ وما نفع النجاحات الباهرة إن لم يغمرها ثناء يعزز الثقة، أو نقد بناء

يصقلُ جوهر الذات ويخرجُ منها نسخةً أكثر نضجاً؟ إن الملك بلا حاشية هو سجينُ تاجه، والفنان بلا جمهور هو صرخةٌ في وادٍ سحيق. إن الآخرين من حولنا هم من يهبوننا مبرر الوجود، هم وقود التطور، وبلسم المواساة، وسرُّ الأنس. ولعلَّ في لغتنا بياناً ساحراً؛ إذ لم يُشتق "الإنسان" إلا من حاجته الفطرية لـ "الأنس"، وقدرته العجيبة على منحه لغيره كحاجة نفسية لا تسبقها ضرورة.

وكما تهمس الحكمة العتيقة: "جنةٌ بلا ناس، لا تُداس"؛ فامتلاكك لكل مغنم الأرض وسقوف القصور قد يمنحك نشوةً عابرة، لكنها سرعان ما تذوي خلف قضبان الرتابة. فالأشياء، مهما بلغت من البذخ، تفقد معناها وجدواها حين لا نجد قلباً نشاطرةً جمالها، لتتحول الأبدية المنفردة إلى صمتٍ طويلٍ لا يكسره سوى وجع الحنين لصوتِ بشر.

✽ الخيار الثاني : أن تعيش وسط جماعة تخدمك إلى الأبد

في هذا المسار، تشرعُ لك الأبواب لتكون القطبَ الأوحَدَ في مجرةٍ من البشر، حيث تمضي أبديتُك محاطاً بجماعةٍ لا ترى فيك إلا "السيد" المطلق. قد يبدو الأمر في مستهله نفاذاً إلى حلمٍ قديمٍ يراودُ كوامن النفس البشرية؛ غوايةُ الزعامة، ونشوةُ التفرد، وشهوةُ التحكم بمصائر الآخرين. إنه ذلك "الديكتاتور" الكامن في الأعماق، الذي لا يرى في رعاياه إلا أصداءً لتمجيده، أو ذلك "الإقطاعي" الذي يقتاتُ شعوره بالحرية من قيدِ عبيده، مستلذاً بإلقاء الأوامر كأنه يرمي قدراً لا يُرد.

لا تستغرب يا صديقي، فصفحات التاريخ لم تكتظَّ بالطغاة والجبابرة إلا لأن "الأنا" الطامحة كانت تفتشُ دوماً عن لحظةٍ تفوقِ تخرسُ بها صوتَ المساواة، فصاغت ضمائُر الملايين مقولاتٍ موحشة مثل "أنا وبعدي الطوفان"، و "اللهم أسألك نفسي"، وتغنى الشعراء بمرارة هذا الكبرياء، كما قال الجواهري في أبياته الأيقونية:

لحفظ الأنانيات سنتٌ مناهجُ

على الخلق صبّت محنةً و مصائباً

هي النفس نفسي يسقط الكلّ عندها

إذا سلمت فليذهب الكون عاطباً

بلى ربما أهوى سواها لأنه

يجرّ إليّ شهوةً و مآرباً

و أنت نفسك يا صديقي ، ألا تحلم بأن تصبح زعيماً خلفه الحشود أو
فناناً تهتف له الجماهير .. ؟

و لكن ..

دعنا نرفع الستار عن وجه الأبدية في هذا القصر. إن استمرار هذا
المشهد إلى ما لا نهاية سيحول فضاءك إلى صحراء قاحلة؛ حيث
يتحجر القلب تحت وطأة التكبر، ويتورم العقل بوهم العظمة، حتى
تفقد تلك "السعادة الزائفة" بريقها. هناك، على قمة عرشك البارد،
ستجد نفسك غريقاً في بحر من الحسد لخدمك وعبيدك! ستراقبهم من
بعيد وهم يتشاطرون ضحكة عفوية، أو مواساة صادقة، أو همماً
يتقاسمون حمله، بينما تقبّع أنت في زنزانية "السيادة"، بلا خليل
يصدّقك الودّ، ولا شريك يبادلك تفاصيل الحياة بنديّة ومحبة.

لقد علمنا الخالق في محكم تنزيله أن "الأنا" المنغلقة لا تورث إلا
هلاكاً، فنجد عظمته يشير إلى ذاته بضمير "هو" في أعظم آياته،
كأنه يوجه أبصارنا نحو الغائب والمُطلق قبل الذات: "هو الذي خلق
لكم ما في الأرض جميعاً"، و "لا إله إلا هو الحي القيوم". بينما
كانت "أنا" هي الكلمة التي أوردت فرعون موارد الهلكة حين قال:
"أنا ربكم الأعلى"؛ فكانت إشارةً بليغةً إلى أن الانغلاق على الذات
هو مقتل السعادة.

و لتوضيح حاجة الإنسان الملحة للآخرين نذكر حالة مرض التوحد
عند الأطفال ، ففيه ينغلق الطفل على ذاته و يعجز عن تكوين

صداقات أو تواصل مع المحيط مرضياً ، لكنه رغم ذلك و بسبب حاجته النفسية العميقة للآخر نجده يستخدم ضمير الغائب للحديث عن نفسه و كأنه يريد صديقاً و لو تخيلياً ، فمثلاً إذا كان اسم الطفل المتوحد هو آدم ، فإنه يقول إذا عطش : (آدم يريد أن يشرب) أي يشير إلى الأنا بالهو ليغذي حاجته العميقة لوجود الآخرين من حوله ..

وكم كان "غاندي" نبيلاً حين أبى أن يحب لعبة الشطرنج؛ لأنه رفض فلسفتها القائمة على تضحية الجميع ليبقى "الملك" وحيداً في النهاية. فما قيمة البقاء إذا كان ثمنه هو فناء كل ما يمنح الحياة معناها؟

✽ الخيار الثالث : أن تعيش وسط جماعة من الأصدقاء

تتقاسمون لحظات الحياة إلى الأبد ..

في هذا المسار، تفتحُ الأبدية ذراعيها لتعانقَ أجملَ ما في الوجود؛ أن تعمرَ جنباتِ القصرِ بقلوبٍ تشبهُ قلبك، في رحابِ صداقةٍ لا تعرفُ الأفول. هنا، تستقيمُ موازين الحياة في أبهى تجلياتها؛ فنحنُ نُحبُّ ونُحَبُّ، نخدمُ بيدِ المودة ونُخدمُ بعينِ الرعاية، نقودُ بحكمة المشورة ونتبعُ بصدقِ الثقة. في هذا القصر، يجدُ الإنجازُ صداه في إطراءِ المحبين، وتجدُ العثرةُ مواساتها في تقديرِ الرفاق. هنا، نلقي بأثقالِ همومنا على أكتافِ ألفناها، ونحملُ عنهم أعباءهم بقلوبٍ راضية، موازنينَ بين خلوة النفس التي تجلو الروح، وبين أنس الجماعة الذي يبعثُ فيها الحياة.

إن هذا الخيار ليس مجردَ احتمال، بل هو النتيجة الحتمية التي تذوبُ عندها كل الحيرة؛ إذ يجمعُ في طياته مفاخرَ السيادة دون كبر، ومزايا العزلة دون وحشة، مضافاً إليها بهجة التشارك التي تمنحُ الوجودَ كماله. ولعلَّ في هذا المسار تتبدى غاية الخالق من نفخ الروح في البشر؛ أن يصوغَ منهم عائلةً كونيةً كبرى، تقطنُ جنانه كأصدقاء جمعهم الودُّ المطلقُ إلى ما لا نهاية.

إنّ دنيانا هذه ليست إلا مختبراً عظيماً، يعرضُ فيها الخالقُ أمام بصائرنا تلك المسارات الأربعة، ليتساءلَ في أعماقنا: "كيف تختارُ أن يكونَ سكُنُكَ في قصرِ الآخرة؟". إنها رحلةُ البحثِ عن اليقين، حيثُ نختبرُ مرارة الوحدة و غواية السلطة، لنهتدي بأنفسنا، وبملءِ إرادتنا، إلى أنّ الجنةَ الحقيقية ليست في جدرانِ القصر، بل في الأرواح التي تسكنه معنا.

فلسفة أوبنتو :

فلسفة مذهلة تتماهى مع ما توصلنا إليه في تجربة القصر السابقة بمنتهى الروعة ، و تشيع في إفريقيا.. تقوم على مبدأ :

(أنا أكون لأننا نكون)

أي أن تعم الفائدة على الجميع و لا يحتكرها شخص بمفرده لنفسه ، و هنالك قصة عميقة ذات مغزى مرتبطة بهذه الفلسفة .. تتناول أحد علماء الاجتماع الذي قام بعرض لعبة على أطفال قبيلة كسوزا الإفريقية بوضع سلة من الفواكه اللذيذة قرب جذع شجرة و أخبرهم أن أول من يصل منهم إلى الشجرة يفوز بالسلة كلها .. لكنه عندما أعطاهم إشارة البدء تفاجأ بهم يسرون سويّاً ممسكين بأيدي بعضهم البعض حتى بلغوا الشجرة وتقاسموا الفواكه من السلة سويّاً .. و عندما سألهم لماذا فعلوا ذلك في حين كان بإمكان أحدهم الفوز بالسلة بأكملها لنفسه، أجابوه بتعجب : **أوبنتو !!** أي كيف يستطيع أحدنا أن يكون سعيداً فيما الباقون تعساء ؟؟!!

و هذا سر هام من أسرار الحياة التي تجهلها المجتمعات التي تدعو نفسها متحضرة ، في حين اكتشفه أفراد قبيلة بدائية ..

و هذا ما نجده في الأديان أيضاً عندما قال نبي الرحمة محمد :

(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

كما نجد رسول المحبة يسوع المسيح يقول :

(تحب الرب إلهك و من كل قلبك، ومن كل نفسك و من كل فكرك .. هذه هي الوصية الأولى العظمى و الثانية مثلها : تحب قريبك نفسك .. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس)

و التاريخ يعج بآلاف الأقوال لعظماء توصلوا إلى هذه الحكمة فأورثوها لنا بكلمات رائعة :
فيقول الفيلسوف زرادشت :

(السعادة تأتي لمن ينشرها)

و يقول الإعلامي الأمريكي برنارد ملزر :

(السعادة مثل القبلية، يجب مشاركتها للاستمتاع بها)

و أيضاً كلام المهاتما غاندي :

(تتوقف السعادة على ما تستطيع منحه، لا على ما تستطيع الحصول عليه)

كذلك قول الفيلسوف الفرنسي أوغست كونت :

(كي تحتفظ بالسعادة ، يجب أن تتقاسمها مع الآخرين)

و نختم بحكمة الأديب الكبير نيكوس كزانتازاكيس :

(الطريقة الوحيدة لتخليص نفسك هي بمساعدة الآخرين)

في المثل الغربي مقولة شهيرة تقول :

there is no i in team

أي لا وجود للأنا في كلمة (فريق) .. أي علينا أن نتعاضد سوياً ممسكين بأيدي بعضنا لتحقيق الأحلام و بلوغ السعادة للجميع كأطفال إفريقيا و فلسفة أوبنتو بالضبط ..

و بالخلاصة نجد أنّ الأنانية أو النرجسية ليستا مرادفتين للإبداع و النجاح و السعادة .. بل إنّ السعادة التي يمنحها لنا الأحباء و ملاحظاتهم القيمة إيجاباً أو سلباً على أعمالنا هي ما تخرج منا أفضل نسخة ممكنة لذواتنا فنبدع بالفعل .. و أشك كثيراً أن عظماء التاريخ جهلوا هذه الحقيقة ، فالأنانية لا تقود إلا إلى الفشل عاجلاً أم آجلاً إذ هكذا صمم الله الحياة .. و في شعر المتنبّي التالي ما يؤكد لنا ذلك و هو من أكثر الشخصيات التي اتهمت بالغرور و النرجسية في التاريخ العربي في حين نجده قد توصل إلى خلاصة حديثنا بنفسه فقال :

شَرّ البلاد مكان لا صديق به
و شرّ ما يكسب الإنسان ما يصمّ

في سيرة "سيدهارتا"، ذلك الذي عُرف لاحقاً بـ "بوذا" المستنير، نجد الإيجاز الأبلغ لفلسفة (الأنا و الهو) الوجودية الكبرى. لقد وُلد سيدهارتا بين جدران قصرٍ باذخ، حيث كانت الرغبات تُلبى قبل أن تُنطق، وحيث حاصره والداه بكل صنوف الترف التي يشتهيها البشر. هناك، في قلب ذلك "القصر" المثالي، امتلك كل شيء حرفياً، فغمره الشعور بسعادة مؤقتة، لكنها سرعان ما ذوت خلف قضبان الرتابة، ليدرك بيقينٍ صادم أن امتلاك "كل شيء" هو في الحقيقة الطريق الأقصر لعدم الشعور بـ "أي شيء".

أدرك سيدهارتا أن الجدران المذهبة، مهما تعالت، تظل سجناً للروح إذا لم تطل على آلام البشر وآمالهم. لذا، خلع ثوب الأمير، ونبذ عرشه، وهام في بقاع الأرض حافي الروح، يبحث عن السر الذي يعبر بالمرء من سعادة الفناء إلى نشوة الأبدية. وبعد رحلةٍ مضنية في مجاهل النفس والآفاق، تفتحت بصيرته على "النيرفانا"؛ وهي ليست مكاناً نصل إليه، بل هي حالة من التحرر المطلق من عبودية الأنانية ومغريات الدنيا التي لا تشبع.

لقد وجد المستتير سر السعادة لا في الانكفاء على الذات، بل في الانفتاح على الآخر، وفي مشاطرة البشرية خبز حياتها بحلوه ومره. فكانت مقولته الأيقونية التي رصّع بها جبين الزمان هي جوهر الحقيقة الكونية: "إن أعظم مصدر للسعادة هو الاعتناء بالآخرين". وبذلك، علّمنا بوذا أن "الأنا" هي النفق المظلم، وأن الآخر هو الضياء الذي نولد من خلاله من جديد.

1000 - & 10+

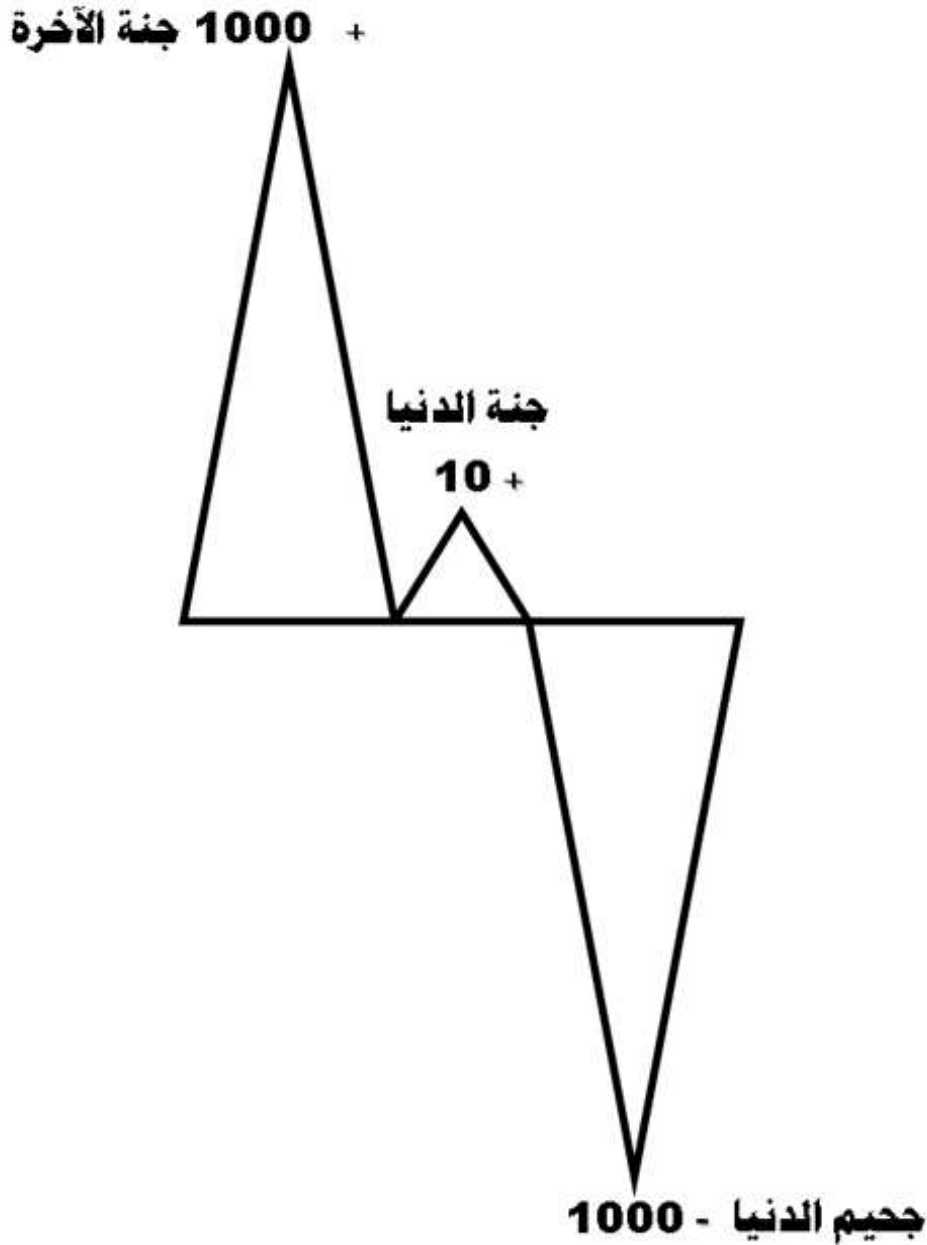
هي نظريةٌ ترتدي ثوب البساطة لكنها تضمّر في طياتها حقيقةً مرعبة تعد إحدى أكبر الأسرار في الحياة، فهي تفكّ شيفرة ذلك اللغز الأزلي: لماذا يميل الكائن البشري إلى تدنيس طهارته بالخطيئة باستمرار، ثم يعود ليتشبث بأطراف التوبة كغريق يرجو النجاة؟ في حركة "البندول" التي لا تهدأ، تتأرجح بين ذروة الرضا وقاع الانكسار.

تخيل معي أن المرء حين يبلغ "كمال العيش"، حيث لا يعوزه شيء، يستقر عند الدرجة العاشرة فوق الصفر (**10+**). لكن هذه القمة لا تعني بالضرورة سكوناً مطلقاً؛ بل هي عتبة القلق. ففي هذه النقطة، يهمسُ له الفراغ بأن ثمة مجهولاً لم يطأه بعد يتجاوز تلك العتبة، فيندفع بدافع الفضول نحو تجارب جديدة عليه يرتقي فوق تلك الدرجة، لكنها في الواقع ليست إلا بواباتٍ مواربة للسقوط. هناك، يبدأ المنحدر، فبينما تتوقف السعادة الأرضية عند سقف "العشرة" المحدود، نجد أن الهاوية لا قرار لها؛ فقد تهوي بالنفس إلى دركات سحيقة تصل إلى الألف تحت الصفر (**-1000**)، حيث يشتعل جحيم الندم والضياع.

وفي لحظة "الارتطام بالقاع"، حين يغدو الهواء شحيحاً، يبدأ المرء رحلة الصعود المريرة. وعندما يسترد أنفاسه أخيراً ويعود إلى تلك "العشرة" المتواضعة، يغمره إحساسٌ بالفردوس لم يعهده من قبل؛ فيرى في تلك الدرجة المحدودة جمالاً أخاذاً، لا لأنها تغيرت، بل لأن عينيه أبصرتا عمق الجحيم الذي كاد يبتلعه.

لكن الحذر كل الحذر، فالفخ ينصبُّ نفسه مجدداً في شباك "الملل". هنا، لا ينجو إلا من تسلّح بالبصيرة؛ ذاك الذي يعي يقيناً أن الدرجة "الألف" (**1000+**) هي ملكوتٌ لا يدرك في طين هذه الأرض،

هي الجنة وما سواها سراب. فالدنيا، في أقصى تجلياتها، لن تمنحك أكثر من تلك "العشرة"؛ إما أن تقتنع ببهائها المحدود وتصونها، أو أن تترك يدك لتنزلق مجدداً نحو الجحيم.. تلك هي الحياة، في أبسط صورها وأكثرها قسوة كبندول بين الرضا و الملل.



في الحقيقة هنالك تفسيرات علمية و نفسية لهذه النظرية تتوزع على مجموعة نقاط :

أولاً : تعد فلسفة "أرثر شوبنهاور" الجسر الأكثر متانة لفهم هذه النظرية، حيث يقرر أن الحياة البشرية ليست إلا تأرجحاً مستمراً

كالبندول بين الملل و الألم. ففي هذه الرؤية، يظهر أن "الإرادة" هي المحرك الأساسي للكون، وهي إرادة عمياء لا تشبع أبداً؛ فحين يكون الإنسان في حالة نقص، فإنه يعاني من ألم الحرمان وسعير الطموح محاولاً بكل قوته الوصول إلى تلك الدرجة (10+)، ويظن واهماً أن الوصول إلى تلك القمة هو الفردوس الأرضي الذي ستنتهي عنده كل المتاعب، لكن الكارثة تكمن في لحظة الوصول ذاتها. فبمجرد أن تتحقق الرغبة وتكتمل الحياة، لا يجد الإنسان السعادة الدائمة التي توهمها، بل يجد وحشاً آخر بانتظاره يسمى "الملل"، وهو ليس مجرد وقت فارغ، بل هو شعور بعبء الوجود بحد ذاته حين يغيب الهدف، وهذا الملل هو الذي يدفع البندول للتحرك مرة أخرى، ولكن ليس بحثاً عن الاحتياج، بل بحثاً عن "الإثارة".

وهنا ندرك أن الإنسان الذي يعيش في مستوى (10+) يشعر بالاختناق من المثالية والاستقرار، فتكون الخطيئة أو السقوط نحو الهاوية محاولة بائسة لكسر جمود البندول، حيث يلقي بنفسه نحو الـ (1000-) لا حباً في الألم، بل لأن الألم في تلك اللحظة يبدو "أكثر حيوية" من الملل الرتيب، إذ إن حرارة الجحيم تبدو للبعض أهون من برودة الفراغ. إلا أن الحكمة تتجلى في "الوعي بالتباين"؛ فالشخص الذي جرب السقوط ثم عاد إلى القمة المحدودة، يكتسب إدراكاً بأن الـ (10+) ليست مملة لذاتها، بل لأننا ننسى طبيعة البديل السحيق.

لذا تصبح التوبة هنا فعلاً معرفياً بامتياز، حيث يفهم المرء أن التآرجح نحو الخطيئة لن يمنحه السعادة، بل سيمنحه فقط إثارة مؤقتة تنتهي بتحطيم كيانه، فتغدو القناعة بالدرجة (10+) هي قمة الذكاء الوجودي، وهي إيقاف قسري للبندول عند "أفضل المتاح"، مع اليقين التام بأن الـ (1000+) ليست من مفردات هذا العالم. إن ميل البشر للخطيئة ليس دائماً فساداً في الطبع، بل هو سوء فهم لطبيعة الوجود؛

فنحن كائنات لا تطيق السكون، وإذا لم نملاً حياتنا بالمعنى عند الوصول للقمة، فإننا سنملأها بالخطيئة هرباً من الفراغ، وتلك البصيرة هي التي تحرر الوعي، حيث نكف عن طلب "المزيد" الذي يؤدي للهاوية، ونبدأ في تذوق "الموجود" خشية الضياع الأبدي.

ثانياً : يمثل مفهوم "التكيف الهيدوني" (Hedonic Treadmill) التفسير العلمي والنفسي لتلك الحالة من الرتابة التي تدفع المرء للانزلاق من قمة الـ (10+). تخبرنا هذه النظرية أن للإنسان "نقطة استقرار" نفسية يعود إليها دائماً مهما كانت الأحداث الخارجية؛ فكما يتكيف بؤبؤ العين مع الضوء الشديد، يتكيف العقل البشري مع رغد العيش والرفاهية حتى تفقد قيمتها وتصبح هي "العادي" الجديد. حينها، لا تعود الدرجة (10+) تثير في النفس أي بهجة، بل تتحول إلى سجن من التكرار، حيث يلهث المرء فوق "جهاز ركض" شعوري، يبذل فيه جهداً ليبقى في مكانه دون أن يشعر بالتقدم، وهذا هو المنزلق الأول نحو الهاوية.

في هذه المرحلة، يبدأ الدماغ بالبحث عن "كسر للتكيف" عبر صدمات شعورية أقوى، ولأن السعادة الإيجابية في الدنيا لها سقف فيزيولوجي محدود، فإن النفس الأمانة بالملل تلتفت نحو "المحرم" أو "الخطر" أو "الخطيئة"، ليس رغبة في الأذى، بل طلباً لجرعة مضاعفة من الدوبامين الذي توقف عن التدفق في القمة المستقرة. إنها محاولة العقل "لإعادة تشغيل" نظام المكافأة لديه عبر المخاطرة، وهي مغامرة غير محسوبة لأن الانحدار نحو الـ (-1000) يبدأ بجذب الجاذبية النفسية التي تجعل السقوط أسرع بكثير من الصعود.

لكن المثير في هذه النظرية العلمية هو ما تفعله بنا عند العودة من القاع؛ فعندما يرتطم المرء بحضيض المعاناة في دركات الجحيم النفسي، يحدث ما يسمى "إعادة ضبط العتبة الحسية". إن التائب أو

العائد من الهاوية يختبر السعادة في الدرجة (10+) بشكل أعمق بآلاف المرات من الشخص الذي لم يغادرها قط، وذلك لأن التكيف الهيدوني يعمل هنا لصالحنا؛ حيث يجعل من "مجرد النجاة" و"الاستقرار" مكسباً هائلاً. إن الأوكسجين لا يشكل سعادة تذكر للشخص العادي، لكنه يمثل قمة الفرح لمن كان يغرق، وهذا ما يفسر لماذا تبدو الحياة العادية في عين العائد من الضياع كأنها معجزة تستحق الصيانة.

تصبح البصيرة هنا هي القدرة على خداع هذا التكيف؛ بدلاً من أن يسقط المرء في فخ البحث عن "المزيد" الذي لا وجود له في عالم المادة، فإنه يستخدم ذاكرة "الألم السحيق" ليظل مستيقظاً تجاه جمال "الاستقرار". إن الذكاء الوجودي يقتضي إدراك أن نظامنا البيولوجي مصمم ليمرّ على النعم مرور الكرام، وأن المقاومة الوحيدة لهذا الملل الفطري هي "الامتنان الواعي"؛ أي استحضار بشاعة الـ (1000-) في كل لحظة نقف فيها على عتبة الـ (10+)، وبذلك يمنع المرء بندوق حياته من الاندفاع نحو الانتحار الأخلاقي أو النفسي، مكتفياً بقمة السعادة التي وإن بدت محدودة، فهي السياج الوحيد الذي يحمينا من جحيم لا ينتهي.

ثالثاً : قد تبدو الخطيئة في ظاهرها استسلاماً لضعف أو انسياقاً وراء شهوة عابرة، لكنها عند التأمل العميق تتحول إلى ما يشبه "الصرخة الوجودية" التي يطلقها الإنسان حين يشعر بأنه قد فُقد في زحام المثالية المفرطة. ففي الدرجة (10+)، حيث كل شيء مكتملاً ومرتباً، قد يشعر المرء بضياع هويته وتلاشي فرديته وسط رتابة "الكمال"، فيصبح السقوط نحو الهاوية فعلاً احتجاجياً يثبت من خلاله أنه لا يزال يمتلك القدرة على الاختيار، حتى لو كان اختياراً مدمراً. إنه يبحث في "الخطيئة" عن معنى مختلف، عن تجربة "خارقة" للعادة تعيد صياغة علاقته بالوجود وتخرجه من حالة الحياد

الشعوري.

هذا الاندفاع نحو الـ (1000-) يمثل محاولة لا واعية لملء الفراغ الروحي الذي خلفه "اكتفاء المادة"؛ فعندما لا يجد الإنسان ما يطمح إليه في الصعود، فإنه يبدأ باستكشاف العمق، ولو كان عمقاً مظلماً. إن الخطيئة هنا هي بحث عن "الدهشة" في زمن عزّت فيه الدهشات، وهي رغبة في استعادة الشعور بـ "الثقل" الوجودي الذي يفقده المرء حين تصبح حياته خفيفة لدرجة لا تُحتمل في القمة. فالمعاناة والندم والصراع مع الذات في قاع الجحيم تمنح الإنسان شعوراً بـ "الدراما" الشخصية التي تجعله يرى نفسه بطلاً في ملحمة صعود وهبوط، بدلاً من كونه مجرد رقم مستقر في معادلة ناجحة.

لكن المفارقة الكبرى تكمن في أن المعنى الحقيقي لا يظهر إلا في رحلة العودة؛ فالإنسان لا يدرك قيمة "النور" إلا بعد أن يختبر وحشة "النفق". إن العائد من الخطيئة لا يعود كما كان، بل يعود محملاً بمعنى جديد تماماً للدرجة (10+)؛ حيث تتحول من "سجن ممل" إلى "ملاذ آمن" وقيمة كبرى انتزعها من مخالب الضياع. إن المعنى الذي كان مفقوداً في القمة المستقرة يُخلق من جديد في قلب المعركة بين التوبة والذنب، فتصبح السكينة غاية بحد ذاتها بعد أن كانت عبئاً، ويصبح الاكتفاء هو الإنجاز الأعظم الذي يحقق للإنسان توازنه.

بذلك، يتضح أن الهاوية ليست مجرد مكان للسقوط، بل هي مختبر قاسٍ لصناعة الوعي؛ فالبصيرة التي تمنع الإنسان من الانزلاق مجدداً هي نتاج تلك الصدمة التي هزت كيانه في القاع. إن إدراك أن "الجنة المفقودة" (1000+) لا تُنال بالقفز في جحيم الأرض، بل بالصبر على محدودية الدنيا، هو المعنى الأسمى الذي تنتهي إليه هذه الرحلة البندولية. إنها دعوة لفهم أن السعادة ليست في ملاحقة المجهول الخطير، بل في إضفاء معنى عميق على "الموجود"

المتاح، لكي لا تضطر النفس للبحث عن قيمتها في حطام الخطيئة.

رابعاً: تخضع الروح البشرية في تقلباتها لقانون يشبه قوانين الفيزياء، وهو "مبدأ التباين"؛ حيث لا يمكن للوعي أن يدرك ماهية الأشياء إلا من خلال أضدادها. ففي فيزياء الروح، تصبح الهاوية السحيقة (-1000) هي العدسة الوحيدة التي تمنح الدرجة (+10) وضوحها وسطوعها. نحن كائنات لا تدرك قيمة "الامتلاء" إلا إذا ذاقت مرارة "الفراغ"، ولا تعرف طعم "الأمان" إلا إذا ارتجفت في صقيع "الخطر". لذا، فإن الاستقرار في القمة المحدودة (+10) يميل إلى البهتان والزوال من ذاكرة الشعور لأنه يفتقر إلى الضد الذي يبرزه، مما يدفع الإنسان، مدفوعاً بجهله بهذه الفيزياء، إلى السقوط بحثاً عن اللون والحرارة ولو كانا في لهيب الخطيئة.

إن تجربة السقوط والارتقاء تعمل كعملية "إعادة تظهير" للصورة الذهنية عن السعادة؛ فعندما يختنق المرء في أدنى دركات الضياع، تصبح العودة إلى الحياة الطبيعية "انفجاراً" من المشاعر الإيجابية. هذا ليس لأن الدرجة (+10) قد تغيرت أو زادت في قيمتها المادية، بل لأن "عتبة الإدراك" هي التي تغيرت. إن الفيزياء الروحية تفرض علينا أن السعادة ليست قيمة مطلقة بل هي "فارق الجهد" بين ما نحن فيه وما كنا نخشى البقاء فيه. فالناجي من الغرق لا يرى في الهواء مجرد غازات طبيعية، بل يراه هبة إلهية تستحق الاحتفاء، وكذلك العائد من جحيم الخطيئة يرى في "العادي" معجزة لم يكن يبصرها قبل رحلة الهبوط.

وهنا تبرز خطورة الاندفاع غير الواعي؛ فالبندول الذي يتأرجح بقوة نحو السالب (-1000) يكتسب طاقة حركية تجعل العودة صعبة ومؤلمة، وقد يتحطم البندول قبل أن يكمل دورته. البصيرة هنا تعني فهم هذه "الميكانيكا النفسية"؛ أي أن يدرك الإنسان أن الملل الذي

يشعر به في القمة ليس نقصاً في النعمة، بل هو "خداع بصري" ناتج عن اعتياد العين على النور. وبدلاً من أن يحتاج إلى كارثة لكي يقدر ما لديه، فإنه يستحضر "الهاوية" ذهنياً، ويجعل من معرفته بوجود الجحيم سداً منيعاً يحمي جنته الصغيرة المحدودة.

في نهاية المطاف، تخبرنا فيزياء الروح أننا لن نصل أبداً إلى الدرجة **(1000+)** في مختبر الدنيا، لأن أدواتنا الحسية والفيزيائية مصممة للتعامل مع "النسبي" لا "المطلق". إن القناعة بالدرجة **(10+)** هي اعتراف واعي بحدود التباين المسموح به، وهي محاولة لإبقاء الروح في منطقة "الدفع المستقر" بعيداً عن "تطرفات القاع". إن الذكاء الحقيقي لا يكمن في البحث عن نور أقوى من الشمس، بل في منع أنفسنا من الانزلاق إلى الظلمة التي ستجعلنا ندرك متأخرين أن النور الذي كنا نملك كان كافياً جداً.

خامساً : تحت غطاء الاستقرار الذي توفره الدرجة **(10+)**، تختبئ أحياناً نزعة غامضة ومخربة تُعرف بـ"السيكولوجية التدميرية الذاتية". فعندما يصل المرء إلى قمة نجاحه وتصبح حياته خالية من المنغصات، يبدأ نوع من القلق الوجودي بالنمو؛ إذ يشعر البعض بأن هذا الهدوء هو "هدوء ما قبل العاصفة"، أو أنهم لا يستحقون هذا المقدار من الرضا. هذا الشعور بعدم الاستحقاق، أو الخوف من فقدان القمة، يدفع الإنسان أحياناً إلى "هدم المعبد" بيده، فينزلق نحو الخطيئة والضياع في دركات الـ **(-1000)** كنوع من العقاب الذاتي الاستباقي، أو رغبة في استعادة السيطرة عبر التدمير بدلاً من انتظار التدمير الآتي من الخارج.

إن السقوط هنا ليس ناتجاً عن إغواء خارجي بقدر ما هو انفجار داخلي؛ فالنفس التي لا تجد "عدواً" في الخارج تحاربه، قد تحول أسلحتها نحو الداخل. في الـ **(10+)**، حيث تغيب التحديات الكبرى،

يرى الإنسان في ارتكاب الخطيئة وسيلة لتحطيم "الصورة المثالية" التي سئم من الحفاظ عليها. إن حرق السفن في أوج النجاح هو محاولة للتحرر من عبء التوقعات ومن ثقل "الكمال الأرضي" الذي لا يطيق البشر حمله طويلاً. في تلك اللحظة، يبدو القاع السحيق، رغم بشاعته، مكاناً صادقاً حيث لا توجد أقنعة، وحيث يمكن للإنسان أن يبدأ من الصفر مجدداً بعيداً عن ضغوط القمة.

لكن المأساة في سيكولوجية التدمير الذاتي هي أن المرء لا يدرك فداحة ما خسر إلا عندما يلامس نار الجحيم فعلياً. فعند الارتطام بالـ (1000-)، يكتشف أن "التحرر" الذي نشده في الخطيئة كان مجرد عبودية جديدة للألم. وهنا تبدأ معركة "البصيرة"؛ إذ يتعين على الإنسان أن يتعلم كيف يتقبل السلام دون أن يراه تهديداً، وكيف يحب استقراره في الـ (10+) دون أن يشعر بالذنب تجاهه. إن العودة من التدمير الذاتي هي أصعب أنواع العودة، لأن الخصم فيها هو الذات لا الظروف، والنجاة تكمن في التصالح مع فكرة أن "الحياة العادية" هي أعظم إنجاز يمكن تحقيقه، وليست سجنًا يحتاج إلى ثورة.

بذلك، ندرك أن الميل نحو الخطيئة عند اكتمال النعم هو اختبار لمدى نضجنا النفسي. فالبصيرة الحقيقية هي التي تمنعنا من أن نكون أعداء لأنفسنا، وهي التي تعلمنا أن الاستقرار ليس رتبة بل هو حصن. إن إدراكنا بأن الجنة (1000+) بعيدة المنال في هذه الدار يجعلنا نتمسك بالـ (10+) كأمانة غالية، ونكبح تلك الرغبة الجامحة في تحطيم ما بنيناه، فالبديل ليس سوى رماد الندم في قاع لا يرحم.

سادساً : تعيد هذه النظرية صياغة القصة الأزلية للإنسان، قصة "الهبوط" من الجنة، لتجعل منها واقعاً نفسياً يتكرر في كل لحظة. ففي الوعي الجمعي البشري، تمثل الدرجة (10+) تلك الجنة الأرضية المتاحة، حيث السكينة والاكتفاء، لكنها تماماً كما حدث في

قصة آدم عليه السلام، هي أيضاً مسرح لـ "الاختبار". فالإنسان لا يسقط نحو الـ (-1000) لأنه جائع أو محروم، بل يسقط وهو في رغد من العيش، مدفوعاً بفضول قاتل لتجربة "الشجرة المحرمة"؛ تلك الخطيئة التي تعدّه بخلدٍ أو ملكٍ لا يبلى (أو بدرجة +1000 متوهمة)، لكنها في الحقيقة ليست إلا بوابة الانحدار نحو وحشة الأرض وضيق المعيشة.

إن تمثيل مشهد الخروج من الجنة في حياتنا الفردية يوضح أن "الغواية" لا تأتي لسد نقص، بل تأتي لضرب الاستقرار. فالبنودول الذي يتأرجح في نفس كل منا يغريه بأن الـ (+10) التي يعيشها هي سجنٌ للملكات، وأن الحرية الحقيقية تكمن في كسر الحدود. وعندما يقع الإنسان في فخ الخطيئة، يجد نفسه فجأة قد تجرد من "لباس التقوى" والسكينة، ليهبط إلى قاع الجحيم النفسي حيث الندم والتعاسة (-1000). في تلك اللحظة فقط، يدرك المرء أن "الممنوع" لم يكن يحمل سرّاً عظيماً، بل كان يحمل سلب القيمة عما كان يملكه بالفعل.

لكن الجمال الأدبي والديني في هذا الإسقاط يكمن في "كلمات التوبة"؛ أي في تلك اللحظة التي يقرر فيها المرء الصعود مجدداً. إن العودة إلى الدرجة (+10) بعد السقوط هي محاولة لاستعادة الجنة المفقودة، وهي عودة محملة بـ "المعرفة". فالإنسان الذي لم يخرج من جنته قط قد لا يدرك قيمتها، أما العائد من التيه، فإنه ينظر إلى استقراره المحدود بعين التقديس. تصبح الـ (+10) هنا "جنة التائبين"، وهي درجة أثنى بكثير من تلك التي كان يملكها قبل السقوط، لأنها الآن محمية بالخوف من العودة إلى القاع، ومحصنة ببصيرة من عرف الجحيم حرفياً.

في نهاية المطاف، تعلمنا قصة الهبوط أن الدنيا مصممة لتكون دار "مجاهدة" لا دار "خلود". إن القناعة بالـ (+10) هي قبولٌ بحدود البشرية، واعترافٌ بأن الطموح نحو الـ (+1000) (الجنة

المطلقة) هو طموح لا يتحقق في هذه الحياة بالأفعال المادية أو بالخوض في الخطايا، بل بالصبر والعمل والوعي. إن كل محاولة لاقتناص سعادة مطلقة عبر طرق غير مشروعة ليست إلا تكراراً لخطأ "الأكل من الشجرة"، والنتيجة دوماً هي الهبوط. لذا، تصبح البصيرة هي القدرة على رؤية "الأفعى" الكامنة خلف وعود الخطيئة، والتمسك بتلك العشرة درجات المضيئة التي منحنا الله إياها، كظلالٍ من جنة لن ندرك تمامها إلا في الدار الآخرة.

سابعاً : خلف الستائر النفسية والفلسفية لهذه النظرية، تكمن حقيقة بيولوجية صلبة تتحكم في حركة البندول، وهي "كيمياء الدوبامين". فالدماغ البشري مصمم من الناحية التطورية ليكون جهازاً للبحث عن "المزيد"، لا للاستمتاع بـ "الموجود". في الدرجة (10+)، حيث الحياة مستقرة ومنتظمة، يتوقف الدماغ عن إفراز دفعات الدوبامين التي تمنح الشعور بالإثارة، لأن هذا الناقل العصبي لا يستجيب للمكافآت المتوقعة أو الرتيبة، بل يستجيب فقط لـ "مفاجأة المكافأة". هنا، يشعر الإنسان بنوع من "الجوع الكيميائي"، وهو ما نترجمه نفسياً بالملل، مما يجعله ينظر إلى الهاوية لا كخطر، بل كفرصة لاستعادة ذلك الدفق الكيميائي المفقود.

إن الانزلاق نحو الخطيئة أو المخاطرة في هذه الحالة يمثل "صدمة نظام" (System Shock)؛ فارتكاب "المحرم" أو الانغماس في "الخطر" يؤدي إلى انفجار دوباميني هائل لحظي، وهو ما يشعر المرء بقيمة الحيوية للحظات عابرة. لكن قوانين البيولوجيا صارمة؛ فكل ارتفاع حاد وغير طبيعي في الدوبامين يتبعه بالضرورة انهيار حاد في المستقبلات العصبية، وهو ما يفسر السقوط السريع نحو الـ (-1000). في هذا القاع الجحيمي، يصاب الإنسان بحالة من "الخواء الكيميائي" (Anhedonia)، حيث يفقد القدرة على التلذذ بأي شيء، ويصبح الـ (10+) الذي كان يبدو مملاً بالأمس، حلماً بعيداً

المنال في ظل الكآبة البيولوجية التي تتبع السقوط.

وعندما يبدأ المرء رحلة الصعود والتوبة، تبدأ الكيمياء العصبية في التعافي ببطء، وهنا تحدث "المعجزة الحيوية". إن العائد من الـ **(1000-)** يمتلك مستقبلات حساسة للغاية؛ فأبسط الأمور التي كانت تمر عليه في السابق دون أثر، تصبح الآن مصدراً لبهجة غامرة. إن استعادة القدرة على النوم بسلام، أو تذوق طعام بسيط، أو الشعور بالأمان، تفرز جرعات من الدوبامين تفوق ما كان يحصل عليه وهو في القمة قبل سقوطه. هذا هو السبب البيولوجي الذي يجعل التائب يشعر كأن "الأوكسجين" قد عاد إليه؛ لقد أعاد السقوط ضبط أجهزته الحسية لتقدير النعم الصغيرة.

البصيرة الحقيقية من منظور بيولوجي هي "إدارة التوقعات الدماغية". الذكي هو من يدرك أن دماغه سيحاول خداعه دائماً بطلب المزيد، فيرفض الانصياع لنداء الإثارة المدمرة. إن القناعة بالدرجة **(10+)** هي في جوهرها قرار واعي بالحفاظ على سلامة "نظام المكافأة" في الدماغ من الاحتراق. وبدلاً من البحث عن الـ **(1000+)** في المثيرات الخارجية التي تؤدي للجحيم، يبحث صاحب البصيرة عن "الدهشة" في التفاصيل العميقة للحياة المستقرة، محولاً الاستقرار من حالة ركود إلى حالة تأمل، لكي يبقى البندول في منطقة الأمان، بعيداً عن صدمات القاع التي قد لا تترك للدماغ فرصة للتعافي مرة أخرى.

ثامناً : تقودنا هذه النظرية أيضاً إلى استنتاج فلسفي حتمي: أن "الجنة الأرضية المطلقة" **(1000+)** ليست مجرد هدف صعب المنال، بل هي مستحيلة من الناحية الهيكلية والبيولوجية في عالمنا هذا، وما محاولة استحضارها قسراً إلا الطريق الأسرع نحو "يوتوبيا الجحيم". إن نظام الحياة الدنيا مصمم على "النقص" كشرط أساسي

لاستمرار الوعي والحركة؛ فلو وصل الإنسان إلى الدرجة **(1000+)** في المادة أو المتعة، لانتفت الغاية من الوجود، ولتحولت تلك اليوتوبيا المزعومة إلى جحيم من نوع آخر، جحيم الفراغ المطلق الذي لا يطاق، حيث لا يتبقى أمام الروح أي أفق للصعود، مما يدفعها للانتحار الوجداني أو السقوط في الهاوية **(1000-)** بحثاً عن أي شعور، ولو كان ألماً.

إن استحالة الـ **(1000+)** تكمن في طبيعة النفس البشرية التي تتغذى على "المسافة" بين الواقع والطموح؛ ففي اللحظة التي تنعدم فيها هذه المسافة، يموت الشغف وتتوقف الروح عن النبض. لذلك، تم وضع "سقف" للسعادة الأرضية عند الدرجة **(10+)** ليكون بمثابة حماية لنا، لا حرماناً. فالدنيا تحمل في طياتها "إمكانية الجحيم" بكل تفاصيله، لكنها لا تملك هيكلية "الجنة" بكل كمالها. إنها دار نُسبت فيها اللذات بالأوجاع لكي تظل النفس دائماً في حالة تطلع، فإذا ما حاول المرء كسر هذا القيد الهيكلي والمطالبة بـ **(1000+)** هنا والآن، فإنه في الحقيقة يفتح أبواب الجحيم على نفسه، لأن "الإفراط" في طلب السعادة المطلقة هو المادة الخام لكل الخطايا والانهيارات.

تصبح البصيرة هنا هي التصالح مع "نقص الكمال"؛ أي أن يفهم المرء أن الدرجة **(10+)** هي "يوتوبيا الممكن"، وهي أقصى ما يمكن لوعاء الدنيا أن يحتويه دون أن ينفجر. إن محاولة تحويل الأرض إلى جنة خلد **(1000+)** عبر الانغماس في الملذات المفرطة أو الخطايا الكبرى ليست سوى وهم بصري يقود المرء إلى الارتطام بقاع الجحيم. فالوعي ينضج حين يدرك أن "الجحيم" حالة يمكن استحضارها فعلياً في الدنيا عبر الضياع والإسراف، أما "الجنة" فهي حالة مؤجلة تتطلب طبيعة غير هذه الطبيعة، وجسداً غير هذا الجسد، ونفساً لم تعد تتأرجح كالبنودول.

بهذا المعنى، تصبح القناعة بالدرجة **(10+)** هي اعتراف بذكاء

"التصميم الكوني" الذي جعل من السعادة الأرضية جرعات محدودة لكي تبقى النفس متيقظة. إن اليقين بأن الـ (1000+) هي "الجنة" وما سواها محاولات فاشلة، يحرر الإنسان من عبء البحث عن المستحيل، ويجعله يركز طاقته على حماية ما لديه من استقرار. إنها دعوة للكف عن محاولة "اقتحام" الفردوس بوسائل أرضية، وفهم أن الدنيا في أفضل حالاتها ليست إلا "محطة انتظار" مضيئة، فمن أراد أن يجعل منها مستقراً أبدياً بالمتع الفائقة، لم يجن إلا الارتطام بالصخر في قاع الهاوية.

تصل الرحلة بنا في نهايتها إلى الغاية الأسمى لهذه النظرية، وهي كيفية إدارة "الوعي بالدرس" لتحويل حركة البندول من تذبذب عشوائي مدمر إلى حركة واعية وهادئة. فالبصيرة التي يكتسبها الإنسان بعد رحلة الصعود من الـ (-1000) تمنحه القدرة على "تقليل سعة الذبذبة"؛ أي أنه يبدأ في تضيق المسافة التي يقطعها البندول بين الخطأ والصواب، وبين الملل والاندفاع. فبدلاً من أن يهوي إلى القاع السحيق ليتبين له الخطأ، يتعلم كيف يلحظ الانزلاق وهو لا يزال في بداياته عند الدرجة (+9) أو (+8)، فيتدارك نفسه قبل أن تجذبه قوة الجاذبية نحو الهاوية.

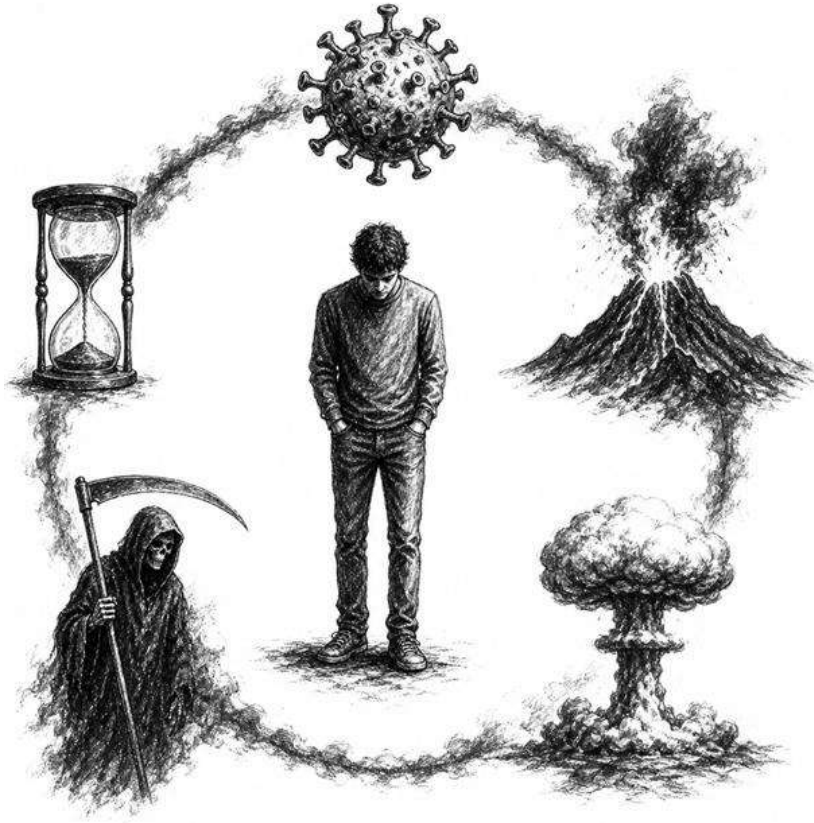
إن تقليل سعة الذبذبة يعني أن الإنسان قد نضج كفاية ليفهم أن "الدرس" لا يجب أن يُعاد في كل مرة بآلام مضاعفة، بل يمكن استحضاره بالذاكرة والوعي. فعندما يلوح طيف الملل في القمة المستقرة (+10)، لا ينخدع المرء بوعود الخطيئة المليئة بالإثارة، بل يستدعي فوراً صورة "المخنوق" الذي كانه في القاع، ويستشعر قيمة الأوكسجين الذي يتنفسه الآن. هذا الاستحضار الذهني يعمل ككابح يمنع البندول من الاندفاع، ويحول تلك الطاقة التي كانت تضيع في السقوط والندم إلى طاقة داخلية تُستثمر في تعميق الرضا وتطوير الذات ضمن حدود الأمان.

بهذا الوعي، لا يعود المرء يبحث عن "صدّات" خارجية ليشعر بوجوده، بل يجد حيويته في "الثبات" وفي قدرته على حماية مكتسباته الروحية. إن البندول في النفس الحكيمة لا يتوقف تماماً عن الحركة، لأن السكون المطلق ليس من شيم الأحياء، لكنه يتحرك في نطاق ضيق جداً حول المركز (10+)، حركة تشبه نبض القلب المستقر، لا حركة الهياج التي تسبق الانهيار. هذا الاستقرار الواعي هو ما يمنح الإنسان السكينة التي تمنعه من الانزلاق، ويجعله يدرك أن كل مليمتر يبتعد فيه عن مركزه نحو "المغامرة غير المحسوبة" هو خطوة نحو جحيم قد لا يملك في المرة القادمة القوة للخروج منه.

في الختام ، ندرك أن الحياة بمنتهى البساطة هي "لعبة زوايا ورؤية"؛ فإما أن نوسع زاوية الرؤية لنبصر الهاوية قبل السقوط فنكتفي بقمة الـ (10+) في الدنيا، وإما أن نضيقها فلا نرى إلا لذة اللحظة فنهوي إلى الـ (-1000) أي جحيم الدنيا. إن الرسالة النهائية هي أن "جنة الآخرة" (1000+) هي مكافأة الصابرين على محدودية الدنيا، وأن الذكاء الحقيقي ليس في تجربة كل شيء، بل في معرفة ما يجب "تجنب" تجربته ليبقى الإنسان حراً. لقد أصبح الخيار الآن واضحاً بين يديك : إما القناعة بجنتك المحدودة في الدنيا أو الانزلاق إلى جحيم دانتي على الأرض، والبصيرة هي دليلك الوحيد في هذه الرقصة الأبدية على حافة الهاوية.

حقل الألغام

تترأى لنا الحياة، منذ وهلتها الأولى، كمساحة شاسعة لا تحدّها عين، أشبه ما تكون بـ "حقل ألغام" موقوت، زُرعت فيه المخاطر بغزارة تثير الرهبة في أكثر النفوس صموداً. نحن نسير على بساط من الأرض يخبئ تحت طياته أهوالاً لا عدّ لها؛ فما بين وباءٍ يتربص بالأنفاس كعدوّ خفي، وموتٍ يختطف الأحيّة في غفلة من الزمن، وكوارث طبيعية تجعل الأرض الصلبة تحت أقدامنا ترتجف كغصنٍ في مهب الريح، نجد أنفسنا في مواجهة مباشرة مع عشوائية ظاهريّة لا ترحم. فالبراكين والزلازل والأعاصير ليست إلا انفجارات كبرى في هذا الحقل، تذكرنا في كل حين بمدى ضآلة قوتنا أمام جبروت المادة.



ولا تتوقف الألغام عند حدود الطبيعة، بل تمتد لتشمل ما يصنعه

البشر ببعضهم في غمرة جنونهم؛ فالحروب التي تندلع بدوافع سياسية أو دينية أو توسعية، ليست إلا ألغاماً بشرية تفتك بالأمان، ناهيك عن **الآزمات الاقتصادية** التي تزلزل بيوتنا، **والآزمات البيئية** التي تضيق معها آفاق العيش. وفي الزوايا الضيقة من حياتنا اليومية، تكمن ألغام "أذى البشر" من مكائد وخيانة وتشوية سمعة، كأنما العالم قد تحالف ليجعل من كل خطوة نخطوها مشروعاً لمصيبة محتملة. إن هذا التراكم المهول للأهوال يحوّل الوجود إلى رحلة محفوفة بالقلق المزمّن؛ حيث يترقّب الإنسان "اللغم القادم" في وظيفته، أو في صحته، أو في أعز ما يملك، مما يجعل القلب يروح تحت وطأة ثقيلة من الخوف، ويكاد اليأس يطبق فكيه على الروح، موهماً إيانا بأننا مجرد فرائس تائهة في حقلٍ من الدمار المحتوم الذي قد ينفجر في أي ثانية بلا إنذار.

حين يغرق الوعي في حقيقة "حقل الألغام" هذه، ينبت في أعماق النفس قلقٌ وجودي يحيل الحياة إلى حالة من "**التحفز المزمّن**"; حيث يصبح العقل راداراً لا يكلّ عن مسح الأفق بحثاً عن الكارثة القادمة. هذا الثقل الجاثم، والنتائج عن ترقّب الانفجار التالي، أشد وطأة من الانفجار ذاته؛ فهو يسرق من اللحظة بهجتها ومن المستقبل أمله، ويقيد الأقدام عن المضي قدماً. هنا تقع الروح في فخ ما يسميه علماء النفس "**العجز المكتسب**"، وهي حالة يقنّع فيها الإنسان بأن محاولاته للمصارعة لا جدوى منها أمام ضخامة الأهوال، فيستسلم لليأس وينطوي على نفسه، ليس لأن الطريق انتهى، بل لأن الخوف من الخطوة التالية قد كبّل إرادته.

إن هذا الشلل الوجودي هو "الانفجار الصامت" والأكثر خطورة؛ فهو ضباب رمادي من الاكتئاب يمتص ألوان الحياة، ويحول غاية الإنسان من "**البحث عن المعنى**" إلى مجرد "**تجنب الألم**". نصبح حينها كبّحار يرفض مغادرة المرفأ خوفاً من عواصف المحيط؛ فيظل آمناً في ظاهره، لكنه يتعفن ببطء في ركوده. ولأن العيش في رعب دائم من الموت هو موتٌ بحد ذاته، فإن كسر هذا القيد يبدأ بإدراك

أن الألغام لم توجد لتوقف رحلتنا، بل لتغير الطريقة التي نبصر بها الطريق. إن التحول من "الذعر إلى الحضور" يبدأ حين ندرك أننا وإن كنا لا نملك إزالة الألغام من الحقل، فإننا نملك ألا نسمح للخوف منها بأن يستوطن أرواحنا ويهزمنا قبل الأوان.

وسط هذا الضجيج الموحش والترقب المرير، يبرز عاملٌ يقلب موازين القوى تماماً، ويحول الرعب إلى سكون؛ إنه اليقين بوجود "المتحكم المطلق". فخلف ستارة الألغام المتفجرة، ثمة إرادة عليا تحكم قبضتها على كل ذرة في هذا الحقل، إرادة لا تتدُّ عنها خافية ولا يخرج عن سلطانها لغمٌ واحد. إننا لا نسير في حقلٍ مهجور تركه صاحبه للعشوائية، بل نحن في كنف خالقٍ هو الذي صمم الحقل وأودع فيه أسرارَه، وهو وحده من يملك مفاتيح تعطيل الانفجار أو توقيته. حين يستقر في الروح أن هذا المسيطر ليس قوة غاشمة، بل هو إلهٌ يتصف بالرحمة والحكمة والنبيل، يتبدد ذعر التائهين؛ فالموقف يتغير من "ضحية" تعبت بها المصادفات إلى "سائر" في رعاية خبيرٍ بخرائط الطريق.

إن القوة التي تدير هذا الحقل ليست قوة عمياء، بل هي قدرة مطلقة تجعل من "اللغم" أداة دقيقة وليس صدفة طائشة. إن اليقين بأن الخالق يعرف مواضع الألغام بدقة، ويحيط علماً بوقعها وأثرها، يمنح الروح "سترة واقية" من القلق؛ فما من فوضى في هذا الكون إلا وهي مندرجة تحت نظامٍ خفي يدبره من بيده ملكوت كل شيء. هنا، يتحول شعور العجز إلى "تسليمٍ بصير"، فالمؤمن يدرك أن حقل الألغام ليس ثغرة في عدل الله، بل هو ساحة يظهر فيها لطفه الخفي حتى في قلب الانفجار. إن وجود الله في هذه المعادلة هو الذي يمنحنا القدرة على المشي فوق الأشواك بقلبٍ ساكن، لعلنا أن الذي شق البحر لموسى، قادرٌ على كبح جماح كل لغم يتربص بنا، وتحويل الحقل الموحش إلى ممرٍ آمنٍ تكتنفه العناية من كل جانب.

في هذه المرحلة من الرحلة، نكتشف أن "انفجار اللغم" ليس ارتطاماً

عشوائياً بالمصادفة، بل هو لحظة مرسومة بدقة في ديوان القدر. ففي فلسفة حقل الألغام، لا يوجد ما يسمى "الحدث العبثي"؛ إذ ما من ألم يمسّ الروح أو نائبة تصيب الجسد إلا ولها غاية نبيلة وحكمة عميقة تصب في جوهر مصلحة الإنسان. لقد حدد الخالق، قبل أن تطأ قدمك عتبة هذا الحقل، نوعية الألغام التي ستعرض طريقك، وتوقيت انفجارها، بل والأهم من ذلك كله: "العبرة" التي ستخرج بها من وسط الدخان. إن الانفجار هنا ليس للنهاية، بل هو "نداء إيقاظ" أو "تغيير مسار" يُراد به دفعك نحو وجهة لم تكن لتبصرها لولا تلك الهزة العنيفة التي زلزلت استقرارك الزائف.

إن الإيمان بـ "غائية الألم" يحول الأزمة من مصيبة محضة إلى "رسالة مشفرة" من الخالق. فنحن لا نُعذب لكي ندوي، بل نُبتلى لكي ننمو؛ فاللغم الذي يسلبنا وظيفة، أو مالاً، أو قريباً، يفتح في الوقت ذاته باباً مغلقاً في الروح لم نكن لنطرقه في ساعات الرخاء. إنها الحكمة التي تدرك أن بعض الانفجارات هي في الحقيقة "هدم لجدار" كان يحجب عنا رؤية النور المطلق. ومن هنا، يبرد برد اليقين حرارة القلق؛ لأن الإنسان يدرك أن كل وخزة ألم هي جزء من خطة كبرى رسمها "نبيّل رحيم" لا يعبث بخلقه، بل يرببهم بالشدائد كما يرببهم بالنعم، لتكون المحصلة النهائية هي صناعة إنسان صلب، واع، ومكتمل البصيرة، يرى في انفجار الألغام أقداراً تخدم ارتقاءه الروحاني.

تتجلى عظمة الخالق في هذا الحقل ليس فقط بقدرته على السيطرة، بل في "نبله المطلق" الذي ينزه أفعاله عن العبث أو الرغبة في التعذيب؛ فالله ليس "صياداً" يتربص بخلقه ليقعهم في الشباك، بل هو مربّب رحيم يستخدم أهوال الحقل كأدوات للتهذيب لا للتنكيل. إن المعاناة التي قد تصيبنا من انفجار لغم ما ليست انتقاماً إلهياً، بل هي "ألم جراحي" غايته استئصال الأورام النفسية التي تحجب عنا الحقيقة. فالإله النبيل لا يكسر عبده ليرى ذله، بل يكسر "أناه"

المتضخمة ليفسح مجالاً لنور التواضع والسكينة، مؤكداً أن كل شدة تمر بنا هي في جوهرها محض رحمة تنكرت في زي بلاء، لتروض الوحش القابع في أعماقنا وتعدنا لما هو أبقي.

إن نبل الخالق يقتضي أن يكون لكل ذرة ألم ثمّن معنوي يرتفع بقيمة الإنسان، فالكريم لا يحرمك شيئاً إلا ليعطيك ما هو أغلى، ولا يفجر تحت قدميك لغماً إلا ليزيحك عن طريق الهلاك الأبدي. هنا يذوب الخوف في بحر الثقة؛ فمن أيقن بنبل "صاحب الحقل" أدرك أن الانفجارات ليست غاية في ذاتها، بل هي وسائط تعليمية ضرورية لصقل الروح. نحن في الحقيقة لا نُلقى في الحقل لنضيع، بل نُقاد فيه لنُختبر ونُصان، حيث تتحول المعاناة من "العنة" إلى "منحة تربوية"، تعيد صياغة وعينا وتجعلنا ندرك أن رحمة الله وسعت كل شيء، حتى تلك اللحظات التي ظننا فيها أن الأرض قد ضاقت بنا بما رحبت.

تأخذنا هذه الفلسفة إلى تشبيه فني مهيب، حيث يمثل الإنسان قطعة من الرخام الخام، وتمثل الألغام "ضربات الإزميل" في يد النحات الأعظم. إن الرخامة، لو كان لها وعي، لصرخت من ألم الضربات وتذمرت من تساقط أجزائها، ولظنت أن النحات يريد تدميرها؛ لكن الحقيقة الكامنة خلف كل ضربة قاسية هي إزالة الزوائد المشوهة والنتوءات الخشنة. فالخالق سبحانه يستخدم "انفجارات الحقل" كأداة نحت دقيقة، لا ليهدم كياننا، بل ليخرج من ركامنا صورة نبيلة، رحيمة، وحكيمة؛ صورةً تتشبه في صفاتها بالجمال الإلهي، لكي تصبح كائناتٍ تليق بجواره في جنانه الأبدية.

إن كل أزمة نمر بها هي "نقرة إزميل" تزيج عنا كبر النفس، أو قسوة القلب، أو التعلق بالزائل. نحن لا نكتمل بالرفاهية، بل نُنحت بالشدائد؛ فبدون تلك الضربات المؤلمة، سنبقى مجرد أحجار صماء لا ملامح لها. إن "فلسفة الإزميل" تعلم الإنسان أن يقبل الألم بامتنان الخشب ليد النجار، والرخام ليد الفنان؛ فإله لا يريد كسرنا، بل يريد

"تخليصنا" من شوائبنا. وفي نهاية الرحلة، حين ينقش غبار المعارك وتتوقف انفجارات الحقل، سنبرص في المرآة تلك الصورة الجميلة التي صاغتها الألغام، وسندرك أن كل جرح كان ضرورياً لكي يمر النور من خلاله، وأن ما ظنناه تحطيماً لم يكن إلا "خلقاً جديداً" لروح مهياة للخلود.



تصل الرحلة إلى ذروتها عند عتبة "التسليم الواعي"، حيث يتحول الإنسان من كائن يصرع الأمواج بجهد ضائع، إلى مؤمن يشق بحر الأهوال بيقين ثابت. إن التسليم هنا ليس استسلاماً للعجز، بل هو "ذكاء الملاحة" في حقل الألغام؛ فكما شق الله البحر لرسوله موسى في اللحظة التي بدا فيها الهلاك حتماً، فإن اليقين بأن "صاحب الحقل" هو الدليل، يجعل المستحيل ممكناً. عندما يُسلم المرء أمره

للخالق بطواعية وهدوء، فإنه يتوقف عن الركض العبثي الذي قد يقوده للانفجار العبثي، ويبدأ في اتباع "المسار المعبد" الذي شقته له العناية الإلهية وسط الركام، مساراً تكتنفه الورود والسكينة رغم ضجيج العالم من حوله.

إن أعظم خطر في هذا الحقل ليس الألغام القدرية التي وضعها الخالق لحكمته، بل هي "الألغام العبثية" التي نفجرها في أنفسنا حين نتمرد على الخريطة الإلهية، أو حين نمشي بعناد في مناطق المحظور بإرادتنا المنفردة. التسليم يعني أن تكف عن العبث بصواعق القدر، وأن تثق بأن الذي أرسلك لهذا الحقل لن يتركك فيه سدى. فالله الذي نجى موسى وأغرق خصومه في ذات البحر، قادرٌ على أن يجعل من اللغم نفسه وسيلة نجاة لك، ومن الكارثة جسراً يعبر بك إلى ضفة الأمان. إنها دعوة للعبور بهدوء الروح وثقة اليقين، فمن كان الله دليلاً في الحقل، لم يضره تعثر القدم، لأن غايته ليست النجاة الجسدية فحسب، بل الوصول بقلب سليم إلى الدار التي لا ألغام فيها ولا كدر.

فلسفة الطاقة المهدورة

"لقد تعثرتُ في منتصفِ الطريق، وتبددت خطاي كأنها دُخانٌ في مهبِّ الريح.. كأنَّ كلَّ ما نسجته من كدٍّ وعرقٍ لم يكن يوماً، ولن يترك في وجهِ العالمِ ندبةً أو ابتسامة. سأغادرُ هذا المسرحَ دون أن أترك خلفي أثراً يذكره العابرون، ويوماً ما، سيمحو الوقتُ اسمي من ذاكرةِ التراب، وكأني لم أكن سوى طيفٍ عابرٍ في حلمٍ طويل."

كثيرون منا وقفوا في تلك الزاويةِ المعتمدة من الروح، حين يرتطمُ الطموح بصخرةِ الخيبة، أو حين يخبو بريقُ اختراعٍ ظنناه سيغير وجه الدنيا فلا يجد له صدئاً في القلوب. هناك، في تلك العزلة، تهاجمنا فكرةُ "العدمية" القاتلة؛ فننوههم أن قيمتنا مرتبطةٌ فقط بحجم "الإنجاز العظيم" الذي يراه الناس، ونظن أننا إن لم نكن نجومًا ساطعة في سماءِ التاريخ، فنحن مجرد أرقامٍ هامشية لا معنى لوجودها.

من عتمةِ هذه الأوجاع، تُبصر "فلسفة الطاقة المهدورة" النور، وهي تلك الغمامة التي تظلل عقول البشر حين يربطون قيمة جهودهم بالنتائج المحسوسة فقط. إنها تلك المعادلة الواهمة التي تقول: "إن لم يوصلني جهدي إلى منصةِ التتويج فهو هباء، وإن لم تترك حياتي بصمةً كونية فهي رحلةٌ بلا قيمة."

إننا نميلُ بغريزتنا إلى تقديس "الإنجاز الضخم" والآني، فإذا لم تلمسه حواسنا الخمس، حكمنا على أنفسنا بالعدم والعبث. ولكن، هل حقاً يضيعُ الجهد؟ وهل تذهبُ الطاقةُ سُدىً لمجرد أنها لم تتجسد في تمثالٍ أو كتاب؟

سننطلق الآن في رحلةٍ عميقة لتفكيك هذه الفلسفة الشائعة، مستندين إلى ركيزتين لا يتطرق إليهما الشك: صرامة العلم، وطمأنينة الدين، لنبصر معاً الحقيقة التي ستغير نظرتنا لكل عثرةٍ مررنا بها.

✽ المبدأ العلمي :

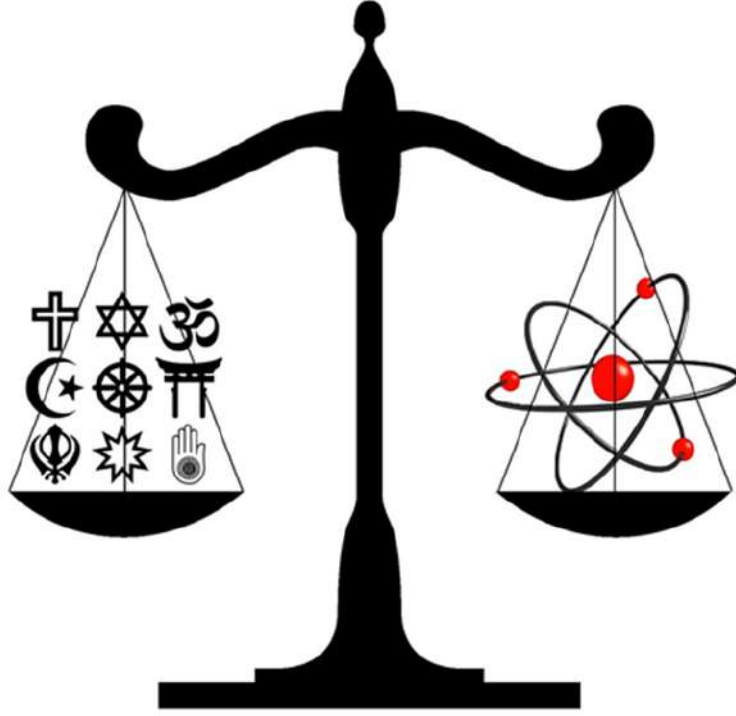
للباحثين عن الحقيقة تحت مجهر العلم، يبرزُ المبدأ الفيزيائي الخالد لـ "يوليوس روبرت فون ماير" كقانونٍ صارم لا يحيد: «الطاقة لا تفنى، ولا تُستحدث من العدم». هذا الناموس الذي يحكم المجرات والذرات، يمتدُّ بظلاله ليحكم "الطاقة البشرية" ذاتها؛ فكلُّ قطرة عرق سُكبت في طلبِ حلم، وكلُّ فكرٍ سهرت عليه الليالي، وكلُّ جهدٍ بذلته بصدق، هو في حقيقته "طاقة" لا يمكنُ للكون أن يبتلعها أو يمحوها. قد لا يتحولُ جهدك إلى نجاحٍ ملموسٍ تراه عيناك في التوّ واللحظة، لكنه أبداً لا يتلاشى؛ إنه يتحولُ، يتشكلُ، وينسابُ في عروقِ الوجودِ ليؤثرَ ويثمرَ في أوانٍ قد لا تُدرّكه بصيرتُك المحدودة، لكنّ موازينَ الكونِ الدقيقة لا تُضيعُ مثقالَ نبضة.

✽ المبدأ الديني :

على الضفة الأخرى، حيثُ تُشرقُ أنوارُ الوحي لتطمئنَ قلوبَ المؤمنين، نجدُ الميزانَ الإلهي الذي لا يغفلُ عن دقيقٍ أو جليل: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ». إنها "فيزياء الروح" في أسمى تجلياتها؛ حيثُ الجهدُ البشري، مهما صَغُرَ حتى صار بوزنِ الذرة، مرصودٌ في سجلاتِ الخلود، وسيعودُ أثرُهُ إليك لا محالة، تماماً كما يرتدُّ الصدى إلى صاحبه. إنها "الكارما" الإلهية التي تضمنُ أن كلَّ سعيٍ سلكته سيرتدُّ عليك خيراً أو شراً، في الدنيا أو في الآخرة، وفي حياتك أو حتى كأثرٍ مباركٍ بعد رحيلك.

ما أروعَ هذا التطابقَ الفريد! حيثُ يلتقي "قانونُ بقاء الطاقة" بـ "عدالة الميزان"، ليؤكدَا أنَّ العلمَ والإيمانَ ليسا خصمين، بل هما وجهان لعملة الحقيقة الواحدة. فالعلمُ يمنحنا "كيفية" عمل الكون، والإيمانُ يمنحنا "الغاية" من وجودنا فيه. العلمُ بلا إيمانٍ بوصلةٌ مكسورة لا تملكُ هدفاً، والإيمانُ بلا علمٍ صرخةٌ في الظلام لا تملكُ

بصراً. وكما قال العبقري أينشتاين في إيجازه الساحر: «العلم دون دين أعرج، والدين دون علم أعمى».



في محراب الوجود، لا توجد فكرة عابرة ولا كلمة تائهة؛ فكلُّ خاطِرٍ يبرقُ في سماءِ ذهنك، وكلُّ لفظٍ ينسلُّ من بين شفَتَيْكَ، وكلُّ فعلٍ تخطُّه يداك، هو في الحقيقة طاقةٌ أزليّةٌ لا تعرفُ الفناء. إنها "كيمياءُ التأثير" التي لا تخطئ، حيثُ ترتدُّ أفعالُك من جنسِ طبيعتها، خيراً بوشاحِ الخير أو شراً بمرارةِ الشر، لتنسجَ خيوطاً من الأثر تمتدُّ في حياتك وما بعد رحيلك. فلا تستهنُ بتلك الثواني التي ظننتها ضائعةً في لجةِ التفكير، ولا بتلك الكلمات التي ألقيتها ومضيت، فما غرستَه في ترابِ الزمن لن يموت، بل سيتكاثرُ وينمو ليصيغَ ملامحَ العالم من حولك بقوةٍ خفيّةٍ قد لا تدركُ بصيرتُك المحدودةُ مداها.

تأملْ معي تلك "البذرة" التي أودعتها يوماً ثرى بلدٍ بعيد، ثم غادرتَه ونسيتَ أمرها مع تقادمِ السنين؛ إنها هناك، في صمتِ الأرض، كانت تعمل. لقد شقَّتِ العتمةَ ونمت حتى غدت شجرةً فارعةً تضربُ بجذورها في أعماقِ التاريخ، يلودُ بفيئها المتعبون، ويقناتُ من ثمارها الجائعون، ويلهو تحت أغصانها أجيالٌ من الأطفال لم ترَ وجهك

يوماً. تخيل أن فعلاً بسيطاً كزراع بذرة قد ولدَ شلالاً من الأحداث عبر الزمن، فما بالك بتلك الأفكار الجسورة، والكلمات الواعية، والأفعال العظيمة التي نبتت من صميم كيائك؟

إن قيمة عملك يا صديقي لا تُقاس بمقاييس البشر الضيقة من نجاح ملموس أو غاية آنية، بل تُقاس بغايات الخالق العميقة وأبعاده اللامتناهية. فهو الذي ألهمك - في المقام الأول - أن تفكر، وأن تقول، وأن تفعل، ليجعل منك أداةً في سمفونية الوجود الكبرى. إن عملك ليس ملكاً لك وحدك، بل هو رسالةً سماويةً أُلقيت في بحر الحياة، ستظل أمواجها تتسع وتتسع حتى تلامس شواطئ الأبدية.

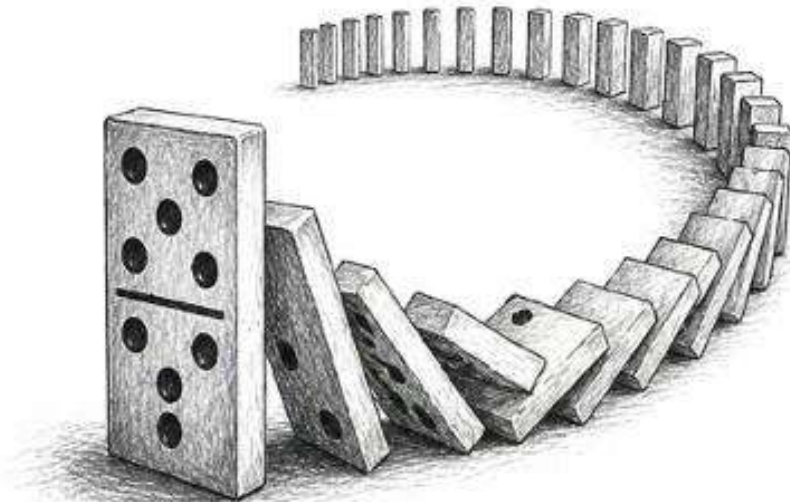
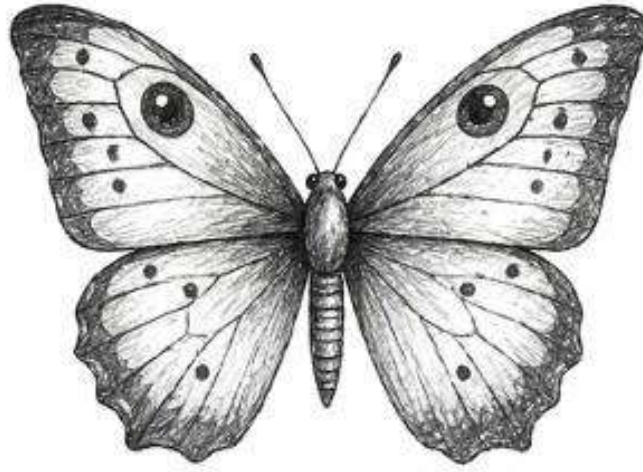
من منا لم يقف مبهوراً أمام شرفة السماء، يُسائل النجوم المتألئة التي تنبض بالحياة كأنها قناديل معلقة في رداء الليل؟ لكن الحقيقة الكونية المذهلة تخبرنا أن هذا العرس السماوي ليس إلا "ذاكرةً ضوئيةً"؛ فكثير من تلك النجوم التي نغازلُ بريقها قد انفجرت وتلاشت منذ دهورٍ سحيقة، ولو قُدِّر لنا الوصول لمكانها لما وجدنا سوى الصمت والعدم. ما نراه اليوم هو "نورها الراحل" الذي قطع ملايين السنين الضوئية ليلاصقَ حدقاتنا الآن، واصلاً إلينا كرسالةٍ حيّة من نجمٍ فارق الوجود منذ أزل.

هكذا هو جهد الإنسان، وسعيه، ونبض أفعاله؛ فبمجرد أن ينجز المرء أمراً ما، ينطلق منه إشعاعٌ لا يعرف التوقف، يسير في مناكب الأرض ليجد مستقراً له في قلبٍ غريبٍ أو عقلٍ بعيد. قد يصل هذا الأثر وأنت في أوج حياتك، أو يشرق كنجمٍ سحيقٍ بعد رحيلك بقرون، لكنه أبداً لا يتبخر في فضاء العتب.

ولأن طباع البشر تضج بالتنوع، فإن لكل فعلٍ إنسانيٍّ "متلقٍ نوعي" ينتظره؛ فما لا يراه مجتمعك الآن، قد يراه مجتمع آخر ككنزٍ لا يُقدَّر بثمن، تماماً كبائع يمرُّ الناسُ أمام بضاعته زرافاتٍ دون اكتراث، حتى يأتي ذلك "الوحيد" الذي يرى فيها ضالته المنشودة و سرّاً

سعادته.

إنَّ هذا التأثيرَ المتسلسل هو ما تهمسُّ به الفلاسفةُ المعاصرة؛ فتارةً نراه في "أثر الفراشة"، حيثُ رُفرفةُ جناحٍ مرهفةٍ في طرفِ العالم، قد تكون هي البذرةُ الخفيةُ لإعصارٍ يضربُ في الطرفِ الآخر. وتارةً نراه في "مبدأ الدومينو"؛ حيثُ لَمْسَةٌ بسيطةٌ لأولِ حجرٍ صغيرٍ لا تكادُ تُلحظ، تُطلقُ سلسلةً من الانكساراتِ المتلاحقة التي تتفاقم كمتواليّةٍ هندسية، لتصنَع في نهاية المطاف زلزالاً من التأثير المهيّب.



حُذِّها يقيناً يا صديقي : "طاقَتُكَ" ليست مهدورة، هي فقط "مُسافِرة" في رحلةٍ طويلة، تبحثُ عن العقلِ الذي يستحقها، والزمنِ الذي يليقُ بها، والقلبِ الذي سيجعلُ منها فجراً جديداً.

من أرشيف الزمن المثقل بالعبر، تطلُّ علينا قصة "هنرييتا لاكس"،
لتدعم فلسفة الطاقة المهدورة بأروع طريقة، تلك المزارعة السمراء
البسيطة التي لم تكن تعلم وهي تصارعُ ورمَ عنق الرحم في دهاليز
مستشفى "جون هوبكنز" عام **1951**، أن جسدها الهزيل يخبئُ
"سحر الخلود". لقد غادرت هنرييتا الحياة في ربيعها الحادي
والثلاثين، ظانَّةً أنها مجرد عابر سبيل لم يترك خلفه سوى خمسة
أيتام وحياة متواضعة، لكنَّ "نجمها" لم ينفجر ليموت، بل ليمطر
العالم ضياءً؛ فقد تبين أن خلايا ذلك الورم معجزة علمية كسحر
حقيقي فهي تستمر بالانقسام دون توقف مما منح العلماء في
المختبرات عينات دائمة من الصعب تأمينها في الحالة الطبيعية
لتطوير لقاحات لكثير من الأمراض التي أنقذت حياة الملايين كما
أسهمت بشكل كبير في تطوير تقنية الإخصاب خارج الجسم (IVF)
التي ساعدت كثير من الأزواج الذين يعانون من العقم على الإنجاب
، مما رَفَد الحياة بملايين البشر. لقد رحلت هنرييتا بصمت، لكن
صرختها الوجودية لا تزال تتردد في كل رئة تتنفس بفضل لقاحاتها،
وفي كل صرخة مولود جديد كان "رحمها" سبباً في وجوده بعد عقود
من رحيلها.

وليس بعيداً عن مدارات هنرييتا، نجد العالم "ألفريد فيغنر"، الذي
أفنى عمره يرقبُ رقصة القارات وانجرافها فوق أديم الأرض. لقد
نشر نظرياته الجسورة ومات وهو يظن أن كلماته ذهبت أدراج
الرياح، إذ لم يجد في حياته سوى السخرية والإنكار لغياب الدليل
المادي. لكنَّ الأرض التي "ادّعى" حركتها، لم تهدأ حتى أنصفت
ذكراه؛ فبعد أن واره التراب، نطق الصخرُ بالدليل، واستفاق العالم
على حقيقة أن فيغنر كان يبصر ما عجزت عنه أجيالُ بأكملها،
فأضحى اسمه محفوراً في ذاكرة الجغرافيا بعد أن ظنَّ يوماً أن جهده
كان وهماً ضائعاً.

أما في ملكوت الأدب، فيبرز "إدغار آلان بو"، ذلك الشاعر الذي
اعتصر الغموض من ريشته ليكتب أول قصة بوليسية في التاريخ.

عاش "بو" يطارِدُ لقمة العيش، ولم يجد في حياته ثمن كفافه، حتى أنه رحل فقيراً منسياً، لم يدرك أن شخصية محققه "دوبين" ستكون النواة التي استلهم منها أرثر كونان دويل شخصيته الأشهر "شارلوك هولمز". لقد حصد الورثة والغرباء الأرباح الطائلة من نزيف قلمه، وأضحى أيقونة الرومانسية السوداء، بعد أن مات وهو يتساءل إن كان صوته قد وصل لأحد.

وخلف ستارة اليأس، يطل وجه "فرانس كافكا"، الكاتب الذي لم يجد في حياته ناشراً يجرؤ على احتضان سوداويته المبدعة. لقد بلغ به الإحباط مبلغاً جعله يوصي بحرق جميع مخطوطاته بعد موته، ظناً منه أنها لا تستحق البقاء. لكنَّ القدر، في لمحة وفاء نادرة، جعل صديقه يخون الوصية ليحمي "نور" كافكا من الاحتراق في المدفأة، فيحترق بدلاً من ذلك إبداعاً عالمياً غيّر وجه الأدب في القرن العشرين. رحل كافكا وهو يظن نفسه "فاشلاً" أدبياً، ليعود من موته كأحد أعظم عمالقة الفكر الذين أدركوا أن الكلمة الصادقة، كالطاقة، لا تفتنى أبداً.

في ختام هذا التطواف بين العقل والروح، ندرك يقيناً أن لكل إنسان في هذه الحياة قيمةً عليا، وإن عميت عنها عيناه حيناً أو استصغرها في لحظات الانكسار. فما تحسبُه أنت فكراً ضائعاً، أو قولاً لم يجد له صدى، أو فعلاً تلاشى كالدخان، هو في حقيقة الأمر "بذرة" أودعتها في حقل الوجود. وبتدبير من الخالق العليم، ستنمو تلك البذرة وتتكاثر لتغير حياة الآخرين بعشرات الطرق، سواء كان ذلك وأنت ملء السمع والبصر، أو وأنت تحت أثقال التراب.

لقد أوجز الشاعر الحكيم أبو العلاء المعري هذا الدستور الوجودي في أبياته الخالدة:

الخط يبقى زماناً بعد كاتبه

وصاحب الخط تحت الأرض مدفوناً

والذكر يبقى زماناً بعد صانعه

وخالد الذكر بالإحسان مقرونا

إن حياتنا الحقيقية لا تُقاس بمعدل نبضات القلب الجسدي، بل بمدى بقائنا أحياءً في عقول الآخرين عبر الآثار التي تركناها تتفاعل مع حيواتهم. لا أحد يغادر هذه الأرض كما أتى؛ فنحن كائناتٌ تشعّ "طاقةً" أينما حلت. أفكارنا وكلماتنا وأفعالنا هي تموجاتٌ في بحر الكون، لا تتوقف أمواجها حتى تلامس شواطئ البعيد.

نحن جميعاً مزارعون في هذا الحقل العظيم؛ فلنحرص على أن نعجن بذورنا بالخير والحب والجمال. وقدّر الله، بحكمته البالغة، هو الذي سيتولى سقاية هذه البذور لتغدو أشجاراً وارفة؛ فإن لم نستظل بفيئها اليوم، فسيستظلُّ به غريبٌ غداً، كما نستظل نحن الآن بأشجارٍ زرعها راحلون لم نرهم قط. إن العمل الصالح، في أعرق معانيه، هو "بذرةٌ" تُلقى في ميزان الخلود.

وكما قال الشاعر الحطيئة في بيتٍ يختصر فيزياء الروح:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العُرف بين الله والناس

لقاح الظلام

تمرُّ حياةُ كلِّ إنسانٍ بملحمةٍ صامتةٍ، رحلةٌ تبدأُ ببياضِ الفطرة، ثم تقتحمُ نفقاً من السوادِ الدامس، لتنتهي ببياضِ البصيرة؛ تلك هي ثلاثيةُ الوجود (أبيض، أسود، أبيض). إن هذا النفق المظلم الذي نجدُ أنفسنا فيه ليس فخاً، بل هو تدبيرٌ إلهيٌّ فائقُ الحكمة، يدفعُ بالمرءِ نحو خوضِ عبابِ الخطيئةِ وتجرُّعِ مرارتها، لا رغبةً في سقوطه، بل ليعي بيقينٍ لا يتزعزع أن دروب الغوغائية والضلال ليست سوى سرابٍ لا يورثُ الروح إلا ظمأً، ولا يمنحُ العقل إلا ضياعاً.



إنها الفلسفةُ التي تتبدى في "لقاح الظلام"؛ حيثُ يتركُ الخالقُ عبدهُ ليعيشُ زمناً قصيراً في عتمة الخطايا، ليس تخلياً عنه، بل ليمنحه "جرعةً" من الوجد والشقاء. فكما يحققُ اللقاحُ الجسدَ بوهنِ المرضِ ليُكسبه مَناعةً أبديةً، تمنحنا تجربةُ السقوط في الدنيا مَناعةً روحيةً تحمينا من الانزلاق في هوةٍ أكبر، وتجنبنا عثراتٍ قد تلتهمُ بهجة حياتنا الآخرة، فتحيلُ فردوسها جحيماً يتنافى مع نقاء طبيعتها.

إن هذا العبور المتعمد في نفق الخطايا هو الذي يُعلِّمُ الإنسانَ عصارة العبرة، ويجعله يقدِّس النور ليس لأنه جميلٌ فحسب، بل لأنه اختبر وحشة غيابه. هي مَناعةٌ تحرسُ النفسَ من أن تنجرَّ وراءَ نزواتٍ

كبرى قد تقضي على كينونتها، أو تجهز على بذور سعادتها لتلقي بها في غياهبِ العدم. فنحن نُخطئُ لنتعلم، ونظلمُ لكي نُبصر، ونهبطُ لكي نعرف كيف يكون الصعودُ نحو الخلودِ آمناً، مكيناً، ومحصناً بوعيٍ كسبناه من عتمةِ التجربة.

تتجلى فلسفة "لقاح الظلام" في أبهى صورها حين نسقطها على القصة الأزلية للهبوط من الجنة؛ فخرج آدم و حواء من النور الأول لم يكن مجرد عقوبة، بل كان إيذاناً ببداية "عملية التمنيع الروحي" للجنس البشري. ففي الجنة، كان الإنسان يعيش في بياض الفطرة المطلق، لكنه كان بياضاً يفتقر إلى "المناعة" ضد الغواية؛ إذ لم يكن قد ذاق بعد مرارة الفقد أو قبح الخطيئة، مما جعل "شجرة الخلد" المتوهمة تبدو له كإضافة مغرية للكمال الذي يعيشه.

إن الهبوط إلى الأرض كان هو الدخول الفعلي في "النفق المظلم"، حيث سُمح للإنسان بأن يختبر "الأسود" بكل تجلياته من تعب، وشقاء، وخطايا. هذا العبور في نفق الدنيا يمثل جرعة اللقاح الضرورية؛ فالأرض هي المختبر الذي نرتكب فيه الأخطاء "بشكل مقصود" في السياق الكوني، لكي نكتشف عبر التعب والمرض والندم أن طريق الخطيئة هو طريق غوغائي لا يورث إلا البؤس. وبدون هذا الهبوط، لظلت معرفتنا بالنور معرفة باردة، ولظل تقديرنا للفردوس تقديراً ساذجاً لا يدرك عمق البديل.

بناءً على هذا، تصبح رحلة العودة إلى الجنة (الأبيض الثاني) هي العودة الكبرى التي نتحدث عنها فلسفة اللقاح؛ فالإنسان الذي سيعود إلى الفردوس بعد تجربة الأرض، لن يعود كآدم الذي خرج منها. سيعود بنفسٍ ملقحة ضد "الشجرة" وضد "الوسوسة"، نفسٍ ذاقت وبال أمرها في النفق المظلم فامتلكت "مناعة أبدية" تمنعها من إفساد بهجة الخلود مجدداً. لقد كان الهبوط "لقاحاً" حتمياً، ليتحول الإنسان من كائن يطيع بالفطرة والجهل، إلى كائن يقدر النور عن خبرة

وعصارة عبرة، مدركاً بفضل "التباين الحسي" أن أصغر ذرة نعيم في الآخرة تفوق في قيمتها كل جحيم الدنيا الذي نجا منه.

و في الحقيقة بعيداً عن مفهوم اللقاح و قصة آدم و حواء ، فإن فلسفة لقاح الظلام شائعة للغاية في الحياة من حولنا ، فنجدها مثلاً في ممرات البيولوجيا الصامتة، حيث يكمن سرٌّ عظيم يُدعى "الهرمسيس"، هنا تتجلى حكمة الخلق في أن الجرعات الضئيلة من السموم لا تأتي لتجهز على الحياة، بل لتعيد صياغتها. تخيل الخلية وهي تتعرض لقليل من الضغط أو جزيء من مادة غريبة؛ إنها لا تستسلم للوهن، بل تستنفر ترسانتها الدفاعية، وتطلق بروتينات الصدمة لترمم حمضها النووي وتشدّ عضد كيائها. هذه الرقصة المحسوبة بين الكائن والسمّ ليست صراعاً نحو الموت، بل هي تمرينٌ شاق على البقاء، حيث يخرج الجسد من معركة "الجرعة الصغيرة" بذاكرة بيولوجية صلبة، تجعل من الشدائد وقوداً لمرونة لا تنكسر، وتمنحه حصانةً تقيه من الانهيار حين تعصف به السموم الكبرى.

هكذا هي الخطيئة في رحلة الروح عبر نفق الخطيئة "الأسود"؛ إنها الجرعة الهرمسية التي يحقننا بها القدر لنبني مناعتنا الأزلية. إن السقوط في عثرة صغيرة ليس في حقيقته إلا استنهاضاً لوعي كان خاملاً، وتدريباً للقلب على حرقه الندم التي تظهر مسامه من الوهن. بدون هذه الجرعة من "سمّ الخطيئة"، تظل النفس غضةً كغصنٍ لم تختبره الرياح، تحمل براءةً هشّة قد تقتلها أول صدمة حقيقية في عالم الخلود. إن "لقاح الظلام" يعلمنا كيف نقاوم فيروسات الغواية العظمى عبر تجرع مرارة السقطات الصغرى في هذه الدنيا، لنخرج في نهاية النفق بكيانٍ روحي ملقّح، يمتلك في أخايدِهِ الوجدانية مضاداتٍ حيوية تجعله يأنف السقوط ويقدس النور بصلابةٍ لا تهتز.

كما نجد هذه الفلسفة في سجلات التاريخ، عندما يبرز عام **1666** كنقطة تحول فاصلة، حين التهم حريق لندن الكبير الخشب

والعشوائية، محولاً المدينة العريقة إلى رمادٍ صامت. لكن تحت ذلك الرماد، كان هناك سرٌّ يتبلور بعيداً عن أعين المذعورين؛ فالحريق الذي بدا كارثة محققة كان في جوهره "جراحة تطهيرية" قاسية قضت على وباء الطاعون الأسود الذي استوطن جحور الجرذان وأزقة الموت الضيقة المكتظة. لقد احترقت المدينة القديمة المريضة ببيوتها الخشبية المتهاكة لتفسح المجال لولادة مدينة من الحجر والآجر، بُنيت بمعايير هندسية تمنع الوباء من العودة وتفتح شرايين الحياة للضوء والهواء، فكان الرماد هو الثمن الضروري والوحيد لولادة نظام صحي ومعماري لم تعرفه البشرية من قبل.

يمثل "النفق الأسود" في حياة كل منا ذلك الحريق الشخصي الذي يباغتنا ليلتهم أو هام "الأنا" المتضخمة وغرور الطهارة الزائف الذي نتمسك به. قد يتركنا الله نرتكب الخطيئة أو نواجه الفشل الذريع لتندلع في أرواحنا نار الندم، وهي نارٌ رحيمة في جوهرها، لا تهدف لتفحيم الكيان بل لتطهير "أزقة الروح" الضيقة من طاعون الكبر والاستغناء عن النور. إن هذا الحريق الروحي هو "اللقاح" الذي يجتث مسببات الأمراض النفسية الكبرى من جذورها، لكي نعيد بناء شخصيتنا في "الأبيض الثاني" على أنقاض الرماد القديم، محصنين بوعي حجري صلب لا ينبت فيه وباء الضياع مجدداً، ومقدسين النور بقلوبٍ عرفت يقيناً معنى الاحتراق في غيابه.

وفي دهايز السيכולوجيا العميقة نجد الفلسفة مجدداً، حيث ينشأ ما يُعرف بـ "التنافر المعرفي" حين يصطدم الاعتقاد الراسخ بجدار الواقع الصلب، مخلفاً توتراً نفسياً لا يطاق يدفع الإنسان دفعاً لتغيير جلده الفكري. يحدث هذا حين يظن العقل الواهم أن سلوكاً معيناً سيجلب له الخلد واللذة المطلقة، ثم يصفعه الواقع بمرارة الفشل واحتراق الندم، مما يخلق شرخاً في الوعي يسمى "صدمة التحديث". هذه الصدمة ليست مجرد ألم عابر، بل هي آلية دفاعية تجبر الدماغ على إعادة تقييم المسار بالكامل، فيخلق "نفوراً كيميائياً" من المثيرات

التي سببت الوجد، محولاً تلك التجربة المرة إلى درسٍ محفور في الأخاديد العصبية، يمنع تكرار الخطأ حفاظاً على توازن الكيان من التبدد.

إن تجربة الخطيئة داخل النفق هي تماماً تلك "صدمة التنافر" التي تجعلنا ندرك يقيناً غوغائية البؤس الكامن خلف بريق الزيف. نحن ندخل النفق ونحن نظن أن في "المحرّم" سرّاً للبهجة لم يطله غيرنا، لكن "لقاح الظلام" يرينا قبحها عارياً من كل مساحيق الإغواء. هذا التناقض الحاد بين بريق الخطيئة في الخيال وبشاعتها في التجربة العملية هو ما يمنحنا "المناعة المعرفية" الأبدية. نحن لا نترك الخطيئة في مرحلة "الأبيض الثاني" لأننا "ممنوعون" منها بقوة خارجية، بل لأننا "عرفنا" حقيقتها المخذلة؛ لقد لقحنا الظلام بوعي بصري نافذ يجعلنا نرى السمّ الكامن خلف العسل، فنقدس النور كخيارٍ عقلي ناضج ومنتزع من براثن الضياع، لا كقطرة ساذجة لم يسبق لها الاختبار.

بل نجد الفلسفة حتى في مختبرات الهندسة ومراكز أبحاث الطيران، حيث تُخضع المعادن والمحركات هناك لما يُعرف بـ "تحليل الفشل"، إذ تُدفع الأجهزة قسراً نحو أقصى درجات الضغط حتى تصل إلى نقطة الانهيار المتعمد في غرف محكمة الإغلاق. لا يخشى المهندسون هذا الانفجار، بل يرقبونه بعيون فاحصة؛ لأنهم يدركون أن معرفة "كيف ولماذا" ينكسر المعدن في المختبر هي الضمانة الوحيدة لسلامته حين يخلق في الأعالي. إن هذا الفشل التجريبي هو "اللقاح التقني" الذي يكشف الثغرات الخفية، ويحول الحطام إلى بيانات حيوية تُستخدم لتشييد هياكل عملاقة تتحدى الجاذبية والظروف القاسية، ليكون الأمان في الفضاء السحيق ثمرةً للدمار المحكوم على الأرض.

تمثل الدنيا في فلسفتنا "غرفة المحاكاة" الكونية، حيث يُسمح لإرادتنا البشرية بالانهيار في نفق الخطايا لنكتشف "نقطة انكسارنا"

ونحن لا نزال في طور الإعداد. إن "لقاح الظلام" هو هذا الفشل التجريبي الضروري؛ فنحن نخطئ هنا تحت سقف الزمن المحدود لنتعلم كيف لا نخطئ هناك في رحاب الأبدية. عصارة العبرة التي نستخلصها من شتاتنا في "الأسود" هي بمثابة كتيب التعليمات النهائي الذي يحمي رحلتنا الكبرى؛ إذ نخرج من النفق بقلوب "مجرّبة" قد خبرت كل منعطفات السقوط، فصارت ملقحة ضد الانهيار الفاجع، ومستعدة للتخليق في ملكوت النور بيقين القبطان الذي عرف مواطن العطب فأصلحها قبل الإقلاع العظيم.

كما تثبت الدراسات النفسية الحديثة حول "النمو ما بعد الصدمة" تلك الفلسفة أيضاً، فالانكسار ليس نهاية المطاف، بل هو أحياناً نقطة الانطلاق نحو ذاتٍ أكثر صلابة وعمقاً. فالنفس التي واجهت "سواد" الفقد أو الفشل لا تعود مجرد نفسٍ مُعافاة، بل هي نفسٌ "مرتقية" أعادت صياغة أولوياتها الوجودية لتمتلك رؤية للحياة لا يدركها من عاش في رغد دائم. إن الندوب التي تتركها الأزمات في الوجدان تشبه تماماً العظام التي تلتئم في مواضع الكسر؛ إذ تترسب فيها معادن القوة لتصبح تلك النقطة هي الأقوى في الهيكل كله. هذا "التحول الكيميائي" في الشخصية يحول الوجدع إلى حكمة مأساوية، ويجعل المرء يمتلك قدراً من المرونة النفسية يجعله عصياً على التحطم مجدداً.

إن "الأبيض الثاني" الذي نبلغه بعد اجتياز النفق الأسود هو تلك المرحلة من "النمو ما بعد الخطيئة"، حيث يمنحنا "لقاح الظلام" براءةً من نوع فريد، ليست براءة الجهل الفطرية الهشة، بل براءة "التائبين" المحصنة بالندوب العميقة. إن من ذاق قبح السقوط ووحشة الابتعاد يمتلك في قلبه شغفاً للنور لا يدركه من لم يغادر ضيائه قط، فالمناعة الروحية هنا هي "ثمرة الصدمة" التي هزت كياننا. في نهاية النفق، نخرج كائناتٍ مرممة بعناية إلهية، تحول شقاؤها إلى وقود لتقديس الاستقامة، فصار انكسارنا القديم هو سر قوتنا الجديدة،

وصرنا نمتلك عمقاً في الفرح لا تصله إلا النفوس التي عرفت يوماً
معنى الغرق في الظلام.

و في فيزياء التعقيد، يطرح العالم "إيليا بريغوجين" رؤية مذهلة
للنظم التي تسبح في الفوضى تؤكد فلسفة لقاح الظلام مجدداً، حيث
يثبت أن الكيانات الحية والأنظمة المعقدة لا تتطور في الركود، بل
تحتاج إلى لحظة من الاضطراب العارم (الإنتروبيا) لتقفز إلى
مستوى أرقى من التنظيم. عندما يزداد التخبط داخل النظام ويصل
إلى نقطة الغليان، تتفكك روابطه القديمة المتصلبة، وبدلاً من أن
يتلاشى، يعيد تنظيم جزيئاته في هيكل أكثر ذكاءً وقدرة على
امتصاص الطاقة. الفوضى هنا ليست عدوة النظام، بل هي "المخاض
الفيزيائي" الضروري الذي يسبق ولادة استقرار جديد يتفوق على
سابقه بمرونته وقوته، محولاً الاضطراب من أداة هدم إلى وقود
للازدهار.

وتمثل الخطيئة في فلسفتنا تلك "الفوضى الروحية" التي تضرب
استقرارنا الهش في مرحلة "الأبيض الأول"، حيث يكون بياضنا
مجرد ركود يفتقر للمناعة. إن الدخول في النفق الأسود هو عملية
تفكيك قسرية للنظام القديم للشخصية، و"لقاح الظلام" هو الذي يدفعنا
نحو هذا الاضطراب لنكتشف وهن روابطنا السابقة. نحن نخرج من
النفق في "الأبيض الثاني" لا كعودة بسيطة لما كنا عليه، بل كـ "نظام
ناشئ" أعاد ترتيب أولوياته في قلب العاصفة. لقد صهر الظلام شتاتنا
وأعاد رصف جزيئات إرادتنا، فانبثقت من قلب الفوضى كائنات
ملقحة ضد الانهيار، لأننا امتلكنها هيكلًا روحياً جديداً لا يتزعزع،
صاغته التجربة المرة في مختبر الاضطراب. فننبعث كطائر الفينيق
الناري من تحت الرماد .

و أخيراً و ليس آخرأ ، نجد تلك الفلسفة في فيزياء الحواس، حيث
تعمل أعصابنا بمبدأ الفوارق؛ فالعين لا ترى النور في غرفة مضيئة

للأبد، بل تعتاده حتى يفقد بريقه وتخبو حدته، لكنها تبصره كمعجزة خارقة بمجرد خروجها من عتمة نفقٍ طويل. الدماغ البشري يحتاج دائماً إلى "التباين" ليعيد ضبط حساسياته الحسية، وبدون تجربة الظلام، تصاب النفس بـ "العمى الاعتيادي"، حيث تذبل البهجة وتتحول النعمة إلى روتين باهت لا لون له ولا طعم. التباين هو الذي يمنح الألوان هويتها، ويمنح المشاعر حرارتها، ويجعل للوجود طعماً قابلاً للإدراك والتمييز؛ فالضيء لا يُعرف إلا بالظلام، والماء لا يُقدس إلا في حضرة الظمأ، والحياة لا تُبصر إلا من نافذة الموت.

إن غاية "لقاح الظلام" القصوى هي حمايتنا من "ملل النعيم" والبلادة الروحية التي قد تصيب من لم يذق طعم الحرمان. إن المرور بالبؤس والشقاء في نفق الخطيئة هو الذي يعيد ضبط "عدسة الروح" لتقدر قداسة النور، فنحن نجرب الظلام لكي "نشواق" للنور بصدق، ولكي يظل "الأبيض الثاني" مبهرأً ومقدساً للأبد في أعيننا. المناعة التي نكتسبها هنا هي مناعة ضد "التعود" وضد "نكران النعمة"؛ فالتباين الحاد الذي خلقه النفق يجعل كل ذرة نور في حياتنا اللاحقة تبدو لنا كشمس ساطعة، لأن ذاكرتنا الملقحة بالبؤس ترفض أن تنسى قيمة الأوكسجين الذي نتنفسه بعد طول اختناق في درك الضياع.

الإنسان يولد ثلاث مرات

في ردهات الوجود الصامتة، تكمن حقيقة فريدة وعميقة: نحن جميعاً نولد ثلاث مرات في حياتنا، **الولادة الأولى** منها ليست سوى مقدمة فيزيائية للعالم، ودين من الألم سددهته بالكامل امرأة أخرى. في ذلك الوصول الأول، كنت مسافراً سلبياً عبر ممرات الوجد؛ كانت أمك هي من كابدت مخاضاً يمزق الأحشاء، وهي من صارعت ظلال الموت لتمنحك الضياء. لقد احتملت هي "المخاض الأول" لكي تتنفس أنت، لكن تلك الولادة لم تمنحك سوى جسدٍ، ولم تمنحك "ذاتاً". إنها حدث بيولوجي، انتقال من عتمة الرحم إلى سطوع الشمس، حيث كنت مجرد لوحة لم تُرسم بعد، وروحاً ملفوفة بتوقعات وسلالات أولئك الذين سبقوك.



أما "الولادة الثانية"، فهي الرحلة الواعية التي يبدأها الإنسان حين يقرر استكشاف أعماق كينونته. إنها اللحظة التي يدرك فيها المرء

أن الوجود الحقيقي يتطلب منه أن يكون هو المحرك والموجه لنموه الشخصي. هذه الولادة هي تجربة فكرية وروحية عميقة، تعتمد على قدرة الفرد على التمييز بين ما ورثه من قناعات وبين ما يختاره بوعيه وحريته.

هذا التحول الوجودي هو عملية ارتقاء تتطلب الصبر والتأمل؛ إنه الاختيار الواعي لمسار التطوير الذاتي بدلاً من البقاء في دائرة التكرار والتقليد. إنها العملية التي يتم فيها فحص الأفكار والتصورات التي تشكلت عبر السنين، والاحتفاظ بما يمثل الجوهر الصادق للإنسان. هذه هي المرحلة التي ينتقل فيها الشخص من مجرد استيعاب ما يدور حوله إلى التفاعل معه برؤية خاصة وفريدة.

عبر هذا المسار، يصبح الإنسان أكثر قدرة على فهم رسالته في الحياة وتطوير إمكاناته الكامنة. إنها رحلة من "التقليد" إلى "التجديد"، ومن "التبعية" إلى "الاستقلال الفكري". في نهاية هذا الطريق، يجد الإنسان نفسه وقد أصبح صوتاً متميزاً يساهم في بناء المجتمع، مدركاً أن الحياة رحلة مستمرة من التعلم واكتشاف الذات.

تعد النقطة الثانية في رحلة الولادة الحقيقية هي الأكثر قسوة وشراسة، إذ تتمثل في "آلام الانسلاخ عن الهوية الموروثة". إن الهوية القديمة التي نرثها ليست مجرد ثوب، بل هي طبقات من الجلد واللحم نمت فوق أرواحنا بفعل التربية، والبيئة، وضغوط المجتمع، حتى ظننا أنها نحن. لذا، فإن قرار الولادة من جديد يتطلب عملية جراحية ذاتية، حيث يتعين على المرء أن "يقشر" تلك الانتماءات الجاهزة والقناعات المعطبة التي قُيد بها منذ الصغر. هذا الانفصال ليس مجرد تغيير في الأفكار، بل هو تمزق شعوري هائل؛ ففي هذه اللحظة، يشعر الإنسان باليتم الحقيقي، إذ يفقد "الأمان الزائف" الذي كانت توفره له هويته القديمة، ويقف عارياً تماماً أمام مرآة الحقيقة، دون غطاء من قبيلة، أو موروث، أو تقاليد لا تشبهه.

إن المخاض الأعسر في هذه المرحلة يكمن في مواجهة "وحشة

الغربة"؛ فالانسلاخ عن البيئة يعني أنك قد تصبح غريباً بين أهلك، ومنبوذاً من قبل الدوائر التي كانت تألف نسختك القديمة المطيعة. إنها معركة بين "الانتماء" و"الحرية"، حيث يكتشف المرء أن ثمن الولادة كإنسان جديد هو التخلي عن القبول الاجتماعي السهل مقابل الصدق مع الذات. هذا الألم هو "مخاض الروح" الذي لا تقل وطأته عن مخاض الجسد؛ لأنه اختبار لمدى جدارتك بالحياة التي ستصنعها بيدك. ولكن في قلب هذا الوجد المبرح، تبدأ ملامح "الإنسان الفرد" في الظهور؛ فبمجرد أن تسقط تلك القشور الموروثة، يبدأ القلب في الخفقان بإيقاعه الخاص، وتتحول آلام التمزق إلى طاقة بناء، ليدرك الوليد الجديد أن كسر الشرنقة القديمة لم يكن دماراً، بل كان السبيل الوحيد ليخرج بجناحين يطير بهما نحو قدره الذي صاغه بنفسه.

لعبور هذا المخاض العظيم، لا تكفي الأمنيات ولا تكفي الرغبة العابرة في التغيير، بل يحتاج المرء إلى صهر كيانه في بوتقة "الإيمان العميق والإرادة الفولاذية". إن الإيمان المقصود هنا ليس إيماناً بالنصوص الجاهزة، بل هو ذلك اليقين الداخلي الصرف بقناعاتك الخاصة، والثقة المطلقة في أن خلف هذا الألم الذي تعيشه حقيقة تستحق العناء. إنه الوقوف وحيداً ضد تيار جارف من الموروثات، متسلحاً برؤية لا تزعزعها عواصف التشكيك ولا نظرات الاستهجان من الآخرين. هذا الإيمان هو "البوصلة" التي تضيء لك عتمة النفق حين تضع ملامح الطريق، وهو الصوت الذي يهمس في أعماقك بأنك لست مجرد خطأ في نظام البيئة، بل أنت "الاستثناء" الذي يبحث عن كماله.

أما الإرادة الفولاذية، فهي المحرك الذي لا ينطفئ وسط إنهاك التجربة؛ فمخاض الروح ليس حدثاً يقع في لحظة، بل هو سلسلة من الانكسارات والنهوض المتكرر. الإرادة هنا هي تلك "العضلة النفسية" التي تحمل أعباء الانسلاخ حين يضعف الجسد وتتوهم الروح تحت ثقل الغربة. إنها القوة التي تمنعك من العودة إلى "رحم

التبعية" الدافئ والأمن كلما اشتد الوجد، وتدفعك للمضي قدماً في هذا المخاض المنهك حتى الرمق الأخير. في هذه المرحلة، يلتقي الإيمان بالإرادة ليشكلاً "درع المحارب" الذي لا يلين؛ فبينما يمنحك الإيمان "لماذا" تعيش وتتغير، تمنحك الإرادة "كيف" تصمد وتستمر. ومن رحم هذا التحالف بين التصديق والعمل، يولد الإنسان الذي لا يُهزم، ذلك الذي حوّل أنينه إلى إيقاع للبناء، وصبره إلى جسرٍ يمر فوقه نحو ولادته التي اختارها بنفسه.

عندما تكتمل فصول المخاض وتنجلي غشاوة الألم، ينبثق فجر "اكتشاف الغاية والجمال"، ليجد الوليد الجديد نفسه في عالم لم يره من قبل، رغم أنه كان يعيش فيه دائماً. إن الثمرة العظيمة التي تلي هذا المخاض العسير ليست مجرد راحة من الوجد، بل هي استنارة الوعي التي تجعل المرء يدرك "لماذا خلقه الله". في هذه اللحظة، يتوقف العالم عن كونه مسرحاً للصدف أو سجنًا للموروثات، ويتحول إلى قصيدة إلهية بليغة يفهم الإنسان أخيراً وزنه وقافيته فيها. الجمال هنا لا يكمن في الأشياء الخارجية، بل في "العين الجديدة" التي تنظر إليها؛ عينٌ غُسلت بدموع التحرر، فلم تعد ترى الحياة عبئاً، بل فرصة مقدسة لإظهار كمال الصنعة الإلهية من خلال بصمة فردية فريدة لكل إنسان متحرر في الحياة.

هذا الانكشاف للجمال هو "المكافأة الكبرى" التي تستحق كل ذرة ألم؛ فعندما تدرك غاية الله من خلقك، تصبح خطواتك على الأرض صلاة، وأفعالك معزوفة منسجمة مع روح الكون. لم تعد تتحرك بدافع الخوف من المجتمع أو الرغبة في إرضاء البيئة، بل بدافع الشغف الذي يمليه عليك ميثاقتك مع خالقك. إن إدراك الغاية يمنح الحياة "ثقلًا وجودياً" وطعماً لا يوصف؛ حيث يرى الإنسان أن كل عثرة في مخاضه كانت ضرورية لكي يصل إلى هذا الوضوح الباهر. هنا، يبتسم التائب من عبودية التبعية، مدركاً أن الله لم يخلقه ليكون نسخة مكررة، بل ليكون "حقيقة حية" تعكس جمال الخالق

بأسلوبها الخاص، فيغدو الوجود كله، بما فيه من آلام وأفراح، لوحةً متكاملة الأركان تليق بمقام الإنسان الذي وُلد بحق.

تحمل لحظة الخروج إلى الحياة مفارقةً بصرية صارخة؛ فالوليد الذي يمثل أنقى معاني البراءة، يظهر للعالم مغطىً بطبقات كثيفة من الدماء والمخاط والسوائل العالقة التي تجعل منظره الأول مشوباً بالقبح والنفور. هذه "الطبقة القذرة" ليست من جوهر الرضيع، بل هي مخلفات الرحلة وقسوة العبور. وفي فلسفة الولادة الروحية، ترمز هذه الطبقات إلى كل ما فُرض عليك في طفولتك الباكرة؛ هي تلك "الهوية المفروضة" من قبل البيئة، والأحكام الجاهزة من الأشخاص من حولك، والتوقعات التي حاصرتك قبل أن تمتلك لغة للاعتراض. إنها الدماء النفسية التي لطخ بها الآخرون مرآة روحك، جاعلين حياتك تبدو في بدايتها مشوهة، ثقيلة، ولا تناسب جوهرك النقي الذي أراد الله له أن يشرق.

إن هذه العوالق البيئية هي "القشور" التي تجعل الإنسان يبدو غريباً عن نفسه؛ فالبيئة التي نشأت فيها قد تضع عليك وشاحاً من الخوف، أو طبقة من الجهل، أو غلالة من التحيزات التي لا تنتمي إليك. وبسبب هذه الطبقات المتسخة، قد تعيش سنوات طويلة وأنت تظن أن هذا القبح هو وجهك الحقيقي، وأن هذا الضيق هو قدرك المحتوم. إن الوعي بهذه الرمزية هو أول خطوة نحو التحرر؛ فكما أن الأم والممرضة لا يحكمان على جمال الرضيع قبل غسله، لا يجب عليك أن تحكم على "ذاتك" من خلال ما ألحقته بك الظروف والبيئة. إن "القبح" الذي تشعر به في حياتك أحياناً ليس إلا غبار الرحلة الأولى، وهو بانتظار "غسيل الإرادة" في ولادتك الثانية ليزول، ويكشف عن المخلوق اللطيف والجميل الذي كمنت صورته تحت تلك التراكمات منذ الأزل.

تأتي اللحظة الحاسمة في هذه الرحلة حين يقرر الإنسان أن يمارس

فعل "التطهير الإرادي"، وهو الفعل الذي يكافئ غسل جسد الرضيع من عوالق الولادة الأولى؛ فكما لا تكتمل بهجة القدوم إلا بنظافة الجسد، لا تكتمل الولادة الروحية إلا بتنظيف الذات من رواسب البيئة والآخرين. إن هذا التطهير ليس فعلاً سلبياً، بل هو عملية انتقاء واعية وشجاعة، حيث يمسك المرء بزمام "الإرادة" ليغسل حياته من كل ما علق بها من قناعات مشوهة، ومخاوف موروثية، وقيود اجتماعية لم تكن يوماً جزءاً من جوهره. هنا، يتحول الفرد من "مفعول به" إلى "فاعل"، ومن "ضحية للظروف" إلى "صانع للذات"، مستخدماً وعيه كتيار جارٍ يجرف كل تلك الطبقات التي جعلت حياته تبدو قبيحة في السابق.

وعندما تنجلي تلك التراكمات، ينبثق المخلوق اللطيف الذي أراد الله له أن يكون؛ فبمجرد أن يتخلص الإنسان من "أقنعة الآخرين"، تظهر بصمته الخاصة التي لا تشبه أحداً غيره. هذه البصمة هي السر الإلهي المودع فيك، وهي هويتك الحقيقية التي كانت مدفونة تحت ركام الموروث. إن التطهير الإرادي يجعل منك "إنساناً فارقاً" في الوجود، ليس لأنك تكلفت التميز، بل لأنك ببساطة عدت إلى "أصلك النقي". في هذه المرحلة، تبدأ في ممارسة الحياة بأصالة مذهلة؛ فكلما تك تنبع من قلبك، وقراراتك تمليها عليك قيمك، وبذلك تصبح حياتك في أبهى صورها؛ لأنها أصبحت انعكاساً لمراد الله فيك، لا لمراد البشر منك.

تصل هذه الملحمة الإنسانية إلى ذروتها في الإقرار بمسؤوليتك المطلقة عن "صناعة قدرك"؛ فالحياة ليست ما يحدث لك، بل هي ما تصنعه أنت بما يحدث لك. إن الدعوة لصياغة القدر بيدك لا بأيدي الآخرين هي الصرخة الأخيرة للتحرر من عبودية "الضحية"، حيث تدرك أنك تمتلك القلم لتكتب فصول روايتك قبل أن يدركك الموت. إن الولادة الثانية هي "البروفة" الحقيقية والوحيدة التي تثبت فيها جدارتك بالوجود؛ فمن لم يولد قبل موته،

سيبقى مجرد رقم عابر في سجلات المادة، أما من انتزع ولادته من بين أنياب التبعية، فقد صنع قدراً يتجاوز حدود الزمن.

وتكتمل الصورة بـ "الحتمية الثلاثية" التي تحكم رحلة الروح في هذا الكون؛ فنحن نمر عبر ثلاث بوابات لا مفر منها. الولادة الأولى (الجسدية) هي بوابة الدخول للمادة، والولادة الثانية (الروحية) هي بوابة اختيار الهوية والمعنى، أما الولادة الثالثة فهي "الولادة الكبرى" والموت الذي ننقل به من ضيق الدنيا إلى رحابة الكون الأكبر بين يدي الخالق. إن الغاية من ولادتك الثانية بإرادتك هي أن تنتهياً للقاء الأخير بصورة تليق بمقام الخالق؛ فالله يريدنا أن نعود إليه كائناتٍ ناضجة، اختارت النور بمحض إرادتها، وصقلت أرواحها في مختبر الدنيا لتكون "بصمات فارقة" في ملكوته.

بهذا المعنى، يصبح الموت هو "المخاض الأخير" الذي يحررنا من ثقل الجسد لنولد في عالم الحق، ولكن شتان بين من يولد في الآخرة وهو لا يزال يحمل "قذارة" الموروث الأرضي وقيود الآخرين، وبين من يولد هناك وهو "نظيف، نبيل، وحر" بفضل ولادته الثانية التي أنجزها في الدنيا. إن صناعة القدر هي إعدادك الشخصي لتلك اللحظة الكونية؛ لكي تقف أمام خالقك وتقول :

"لقد ولدْتُ كما أردتَ لي أن أكون، لا كما أراد لي البشر"

تلك هي الرحلة من الصفر إلى الأبدية، ومن الرحم الضيق إلى سعة الجنان، حيث لا يولد بحق إلا من ملك شجاعة البدء من جديد.

فلسفة دائرة الأرزاق

"وُلِدَ وفي فَمِه مِلْعَقَةٌ من ذهب!".. عبارة كثيراً ما تترددُ على الألسنة، يلقيها الناسُ كحكمٍ نهائيٍّ لوصفِ حياةٍ أولئك الذين يبدو أنَّ الأقدارَ قد دَلَّتْهم، فمَنَحَتْهم كلَّ شيءٍ دون عناء. وغالباً ما تُساقُ هذه الكلماتُ في ركابِ الثراءِ الفاحش؛ لتصفِ أبناءَ لم يعرفوا للحرمانِ طعماً، ولن يذوقوا لمرارةِ الكدِّ غصةً، طالما أنَّ الملايينَ تنتظرُهم على "طبقٍ من فضةٍ" بمجردِ أن يشتدَّ عودُهم، وكأنَّ طريقَهم ممهدٌ بالحريرِ من المهدِ إلى اللحدِ.

ولكن، هل صمدتْ هذه العبارةُ يوماً أمامَ مِشرحةِ الحقيقة؟ وهل ثَمَّةُ كائنٍ على وجهِ هذه الأرضِ يولدُ مكتملاً لا ينقصُهُ شيءٌ؟ إنَّ الرؤيةَ الضيقةَ التي تحصرُ "الامتلاء" في بريقِ المعدنِ الأصفرِ أو رفاهيةِ العيش، تتجاهلُ أنَّ كمالَ المادةِ قد يستترُ خلفه أعمقُ أنواعِ الفقرِ الروحيِّ، وأنَّ مَنْ يولدُ في قصورِ الذهبِ قد يفتقرُ لـ "لقاحِ التجربة" الذي يصنَعُ الإنسانَ.

فهل الرفاهيةُ هي "الكمال" حقاً، أم أنها مجردُ مغالطةٍ بصريةٍ كبرى تمنحنا صورةً مشوهةً عن الرضا؟ إنَّ السؤالَ الذي يطرحُ نفسه بجرأة: هل المِلْعَقَةُ الذهبيةُ هي أداةٌ لإطعامِ الروح، أم أنها قيدٌ يمنعُها من تذوقِ جوهرِ الحياةِ الممزوجِ بالصراعِ والمعنى؟

لعلَّنا لكي نُبصرَ الحقيقةَ عاريةً من زيفِ المغالطات، يتوجب علينا أن نعبرَ من جسرَيْنِ شاهقين: "دائرة الأرزاق"، و"حقيقة الدنيا التقلبية"

❖ دائرة الأرزاق :

تتجلى دائرة الأرزاق كواحدةٍ من أبهى تجليات العدل الإلهي؛ فهي ليست مجرد مفهومٍ ذهني، بل هي قانونٌ كونيٌّ ينصُّ على أن حياة

كل إنسان هي "دائرة" ثابتة المساحة، قُسمت أقاليمها بميزانٍ لا يظلم مثقال ذرة. السرُّ هنا يكمن في "ثبات المساحة الكلية"، فإذا تمدد إقليم "المال" في دائرة أحدهم وطغى، انحسرَ في المقابل إقليم آخر بالضرورة، كالسكينة أو الصحة أو الألفة. هي دائرة مسحورة، مبرمجةٌ أزلياً على التوازن؛ فلا أحد يملك كل شيء، ولا أحد يُحرّم من كل شيء.



إن أقاليم الحياة شاسعةٌ ومتنوعة، والله حين يُغلقُ باباً في إقليم، يفتح نوافذ في أقاليم أخرى قد لا تلمحها أبصارنا الغافلة:

● **المال** ، و هو الإقليم الذي يشغل تفكير أغلب الناس، و يربطونه بجهالة بكل شيء ، فإن امتلكت المال فأنت لا تحتاج شيئاً آخر بعده كما يعتقدون ..

● **الصحة** ، و هو الإقليم الأهم و الأكثر قيمة ، و كثير من الناس يغفلون أهميته بجهالة حتى يخسرونه ..

● **العائلة** ، أن تمتلك أم و أب ، أخوة و أخوات ، زوجة ، أبناء .. و كثير من البشر يفتقدون هذه العناصر لأسباب مختلفة ..

● **النجاح** ، بكل أشكاله ، في الدراسة أو العمل .. إلخ

● **الأمان** ، أن تملك سقفاً تعيش تحته ، ألا تملك أعداء يتربصون بك ، ألا تعيش في حرب أو تشرد ، أن تعيش مرتاح البال .. إلخ ..

● **الأصدقاء** ، كنز حقيقي في الحياة و ما أقلهم عندما تشيح الحياة بوجهها عنك !!

● **الإيمان** ، فإن طرق الله بابك فهذا حدث عظيم لا تستهن به ، فغيرك لا يزال يعيش في دوامة الشك و الحيرة ..

إضافةً إلى آلاف الأقاليم الأخرى و هذه مجرد أقاليم شائعة بين الناس، إن العدل الإلهي يكمن في تلك التفاصيل المذهلة؛ فبينما ننشغل نحن بمراقبة "زيادة" إقليم المال عند غيرنا، نغفل عن "النقص" الحاد في أقاليم أخرى يعاني منها. فالمساحة الكلية للدائرة تظل ثابتةً بين الغني والفقير، وبين القوي والضعيف. وكما قال الإمام علي بن أبي طالب في حكمته الخالدة:

فإنَّ الرزقَ مقسومٌ

وسوءُ الظَّنِّ لا ينفع

وفقيرٌ كُلُّ من يطمع

وغنيٌّ كُلُّ من يقتنع

لذا، اعلم يقيناً يا صديقي، أن تلك الملعة الذهبية التي تظنها في فم غيرك، قد سُكبت من مادةٍ إقليمٍ آخر تملكه أنت ولا يملكه هو. اقنع بنصيبك من مساحة الدائرة، واستمتع بتفاصيل أقاليمك، فالحياة ليست فيمن يملك أكثر، بل فيمن يُبصرُ الجمال فيما يملك.

❖ **الدنيا الشباطية ليست بجنة :**

يُعرفُ شهر شباط بمزاجه العاصف، فهو لا يستقر على حال؛ فبينما يغمرُك بشمسٍ دافئة في لحظة، يباغتك في اللحظة التالية برعودٍ وأمطارٍ صاخبة. هكذا هي "الدنيا"، لا تعرفُ الركود ولا تمنحُ الأمان المطلق؛ فهي مزيجٌ مضطربٌ بين الرخاء والشدة، النجاح والفشل، الصحة والمرض. لذا، فإنَّ أيَّ وصفٍ لحياة إنسانٍ بأنها "مثالية" في لحظةٍ عابرة هو وصفٌ خادعٌ ومبتور، فنحن لا نملكُ مفاتيح الغد

وما يخبئه خلف أبوابه الموصدة.
وتبقى الحقيقة الصادقة هي ما صدح به أبو البقاء الرندي في مرثيته
الأندلسية الخالدة:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ
فَلَا يُغَرِّ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ

إنَّ هذا القلب الذي يلفُّ أعمارنا ليس عبثاً، بل هو شكلٌ أسمى من أشكال العدل الإلهي؛ فمن يرفلُ اليوم في النعيم قد يختبرُ غداً مرارة الشدة، ومن يرزحُ تحت وطأة المحنة قد يشرقُ فجره بالفرج واليسر. فالدنيا لم تُصمَّم لتكون جنةً مستقرة، بل هي "ساحةُ اختبارٍ" متقلبة الأجواء تطالُ الجميع بلا استثناء. والشخص الوحيد الذي قد يولد بحق وفي فمه "ملعقة من ذهب" هو ذلك الذي يبصر النور في جنات الخلد، حيث يغيب الحرمان ويتبخر القلق. أما في أرضنا هذه، فما من أحدٍ إلا وتصيبه رياح "شباط" الوجودية.

تأمل معي يا صديق الحرف هذه المشاهد الواقعية التي تجسد ثبات مساحة "دائرة الأرزاق" وسط تقلبات المناخ:

ثراءٌ فاحش يقابله جسدٌ مقعد: يملكُ مفاتيح القصور لكنه لا يملكُ القدرة على السير في أروقتها.

نجاحٌ باهر يقابله حرمانٌ من الذرية: تزدهم حياته بالجوائز، وتخلو داره من ضحكات الأبناء.

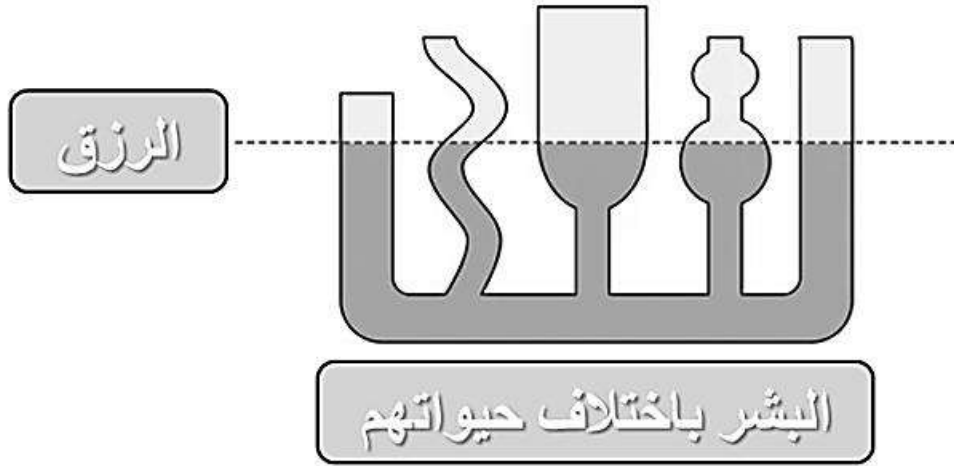
عائلةٌ مثالية ينهشها الخوف: يغمرهم الحب، لكنَّ طبول الحرب تسلبهم النوم والأمان.

شهرةٌ طاغية يقابلها سجنُ العزلة: يراه الملايين على الشاشات، لكنه لا يجد صديقاً واحداً يثق بصدقه خلف الكواليس.

كمالٌ يتبخر في ليلةٍ وضحاها: حياةٌ رغيدة تنهار فجأة، فيتفرق الشمل ويضيع الأبناء في دهاليز الفقر.

إنها ملايين الصور والقصص التي تزدحم على وجه هذا الكوكب،
لتؤكد أننا جميعاً محكومون بذات الميزان الإلهي؛ حيث يتبادل البشر
الأدوار في حقل التجربة، وتبقى "الدائرة المقدسة" ثابتة المساحة،
تُظللنا بظلال العدل الذي لا يحدد.

في قانون الأواني المستطرقة الفيزيائي ، نستعمل مجموعة أواني
مختلفة الأشكال و الأحجام و متصلة ببعضها ، و عندما نملؤها بالماء
يستقر على مستوى ثابت فيها جميعاً .. هذا الماء هو الرزق يا
صديقي ، فمهما اختلف الناس في تفاصيل حياتهم ستستقيم أرزاق
السماء بينهم على خطّ سواء .. إنه ميزان العدل الإلهي الذي لا يختل
أبداً و إن اختلفت نظرة البشر له باختلال نفوسهم أو قلوبهم أو عقولهم
أو أرواحهم ..



في الختام .. من الأنسب في رحلتنا القصيرة على كوكب الأرض ألا
نقول :

- أحسد فلاناً على حياته فهو يمتلك كل شيء ، لقد ولد و في فمه
ملعقة من ذهب !!

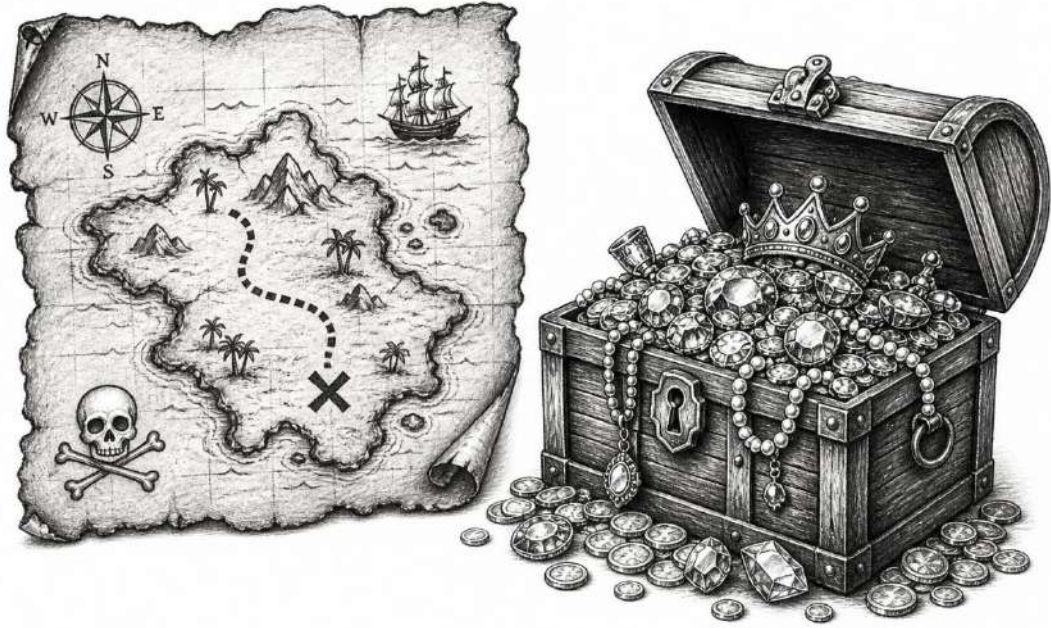
بل أن نقول :

- هذه العبارة لا وجود لها في الحياة الدنيا ، فكل إنسان يأتي إليها
تحكمه دائرة أرزاق ثابتة إن توسعت فيها بعض النسب المئوية في
أقاليم من الحياة ، تضاءلت نسب أخرى مباشرة على حسابها ، ولو

قدّر لنا أن نتعرف فعلياً على حياة أشخاص نظنها مثالية لدهشنا من
كمّ الحرمان الذي يعانون منه .. لذا الحمد لله على كل شيء و على
كل حال.. و من زاوية أخرى فالدنيا قلابة و لا تستقر على حال و
لا أحد يعرف ما الذي ينتظره خلف أبواب المستقبل .. أهو فرج
عظيم أم شدة غير متوقعة !!

فلسفة خريطة الكنز

يبرقُ في سماءِ تساؤلاتنا سؤالٌ حائر: هل اكتشافُ الكنوز في هذه الرحلة هو امتيازٌ مقتصرٌ على ثلّةٍ من المحظوظين الذين ابتسمت لهم الأقدار، أم أنّ هذه الفرضية ليست سوى مغالطةٍ بصرية، وأنّ هناك كنوزاً مدفونةً تنتظرُ كلّ عابرٍ سبيلٍ بلا استثناء؟ إنّ جوابنا المبدئي، الذي قد يبدو صادمًا أو مغرقاً في التفاؤل للكثيرين، هو حقيقةٌ ناصعة: «كلُّ كائنٍ يطأُ ثرى هذه الأرض هو شخصٌ محظوظٌ بامتياز، وفي جعبةِ غدهِ كنزٌ هائلٌ لا يُقدّر بثمن، ينتظرُ آوانَ قطافه بعد سنواتٍ من صرخته الأولى.»



قد يرتفعُ حاجبُ التشكيك لدى البعض؛ فكيف نتحدثُ عن الثراءِ والكنوز في عالمٍ يغصُّ بمن غادروه تحت وطأة الفقر والحرمان؟ ولعلّك تتساءلُ يا صديقي: هل هي "مخدراتٌ معنوية" تُباعُ للفقراء لتجميل واقعهم المرير؟ اطمئنْ يقيناً، فنحنُ لا نتحدثُ هنا عن أطيافٍ خيالية، بل عن كنوزٍ ماديةٍ ملموسة، لديها القدرةُ على تحويلِ حياتك إلى فردوسٍ حقيقيٍّ على وجهِ البسيطة.

ولكن، كيف يستقيم هذا الادعاء مع قسوة الواقع؟ وكيف يُبصرُ الذهب الكامن تحت ركام العوز؟ هذا ما سنكشف عنه الستار في رحلتنا القادمة، حيث سنغوصُ معاً في "مفهوم الكنز" بأبعاده الحقيقية، ثم نُرهِفُ السمعَ لـ "قصة كذبة الملاك الصادقة"؛ تلك الحكاية التي ستغيرُ نظرتك لميراثك الموعود في هذه الحياة إلى الأبد.

تشكلُ الكنوزُ في رحلة الحياة من رافدين أساسيين؛ أولهما تلك **الكنوز المادية** من بريق الذهب وسحر المجوهرات وسطوة المال، وهي بلا ريب انعطافة كبرى قد تنتشل المرء من دركات العوز إلى ضفاف النعيم المادي. لكن خلف هذا البريق المحسوس، يكمنُ ثلوثٌ مقدسٌ يمثلُ **الكنوز المعنوية** التي لا يطاؤها فناء؛ وهي (الأخلاق، والإيمان، والمعرفة). هذا الكنز ليس مجرد صفات تجميلية، بل هو المعمار الحقيقي للإنسان العظيم، والمفتاح السحري الذي يفتح أبواب الخزائن المادية الموصدة؛ فخلافاً لما يظنه الواهمون بأن القيم لا تُطعمُ خبزاً، نجدُ أن هذا الثلوث هو الضمانة الوحيدة للبقاء والازدهار، وذلك لأسباب جوهرية:

فالثريُّ بماله فقط إذا انكسرت سفينته ثروته غرق في لجة اليأس بلا رجعة، أما المتسلحُ بهذا الثلوث، فإنه إذا عثر، أقاله إيمانه بالتسليم، ومنحته أخلاقه صبراً جميلاً، وأهدته معرفته خرائط جديدة للنهوض. إنَّ المالَ بغير وعي هو ثروة مؤجلة للضياع، وكما تهمسُ الحكمة: **"درهم مال يحتاج قنطار عقل"**؛ فما نفع الذهب في يد من لا يملكُ الحكمة لتدبيره؟ وكم رأينا من مقامرٍ بالحظ ربحوا الملايين بالصدفة فبددوها بالجهالة، ليعودوا إلى فقرهم أذلَّ مما كانوا.

أما المعرفة، فهي القوة الضاربة؛ إذ قد يكمنُ ثراؤك القادم في معلومة عابرة تقتنصها من بين سطور كتاب، فتوحي إليك باختراع مذهب، أو تصميم عبقرى، أو فكرة روائية تخلدُ اسمك، أو حتى حلّ لعقدة نفسية كانت تغلُّ يدك عن الإبداع. وفي المقام ذاته، تقفُ الأخلاقُ

والإيمان كأقوى الأسلحة لمواجهة الحياة المتقلبة؛ فهما الدرع الذي يقي الروح من التحطم أمام المصائب، وهما البساط السحري الذي يسمو بك بعد الرحيل الأخير، لتعبر نحو جنان الخلد حيث الكنوز التي لا تُحيط بها العقول، بدلاً من الارتهان لدورات الشقاء المتكررة بالتقصص لمن غادر الدنيا خفيفاً من القيم، ثقيلاً من الأطماع.

تأمل مصائر الذين ملكوا خزائن الأرض كـ "قارون" أو "أوناسيس"، كيف تلاشت ممتلكاتهم وبقيت سيرتهم درساً في زوال العرش وبقاء الجوهر. إن البذرة التي تزرعها اليوم من أخلاق ومعرفة هي الكنز الوحيد الذي سينمو ليطعمك في الدنيا، ويظل وارفاً للظلال يفيئ إليك في ملكوت الحق.

قصة كذبة الملاك الصادقة : و هي قصة افتراضية تجعلنا نرى الحياة من منظور مختلف و زاوية أخرى و ستدهشك على بساطتها بلا شك ..

و مضمونها كالتالي :

((يميل الإنسان بطبيعته البشرية منذ طفولته إلى الإيمان بقناعة تامة زائفة أنه سيشيخ و يعمر ليعيش حياة طويلة رغم أن ذلك قد لا يحدث ، فحياته قد تنتهي طفلاً أو شاباً أو كهلاً ، بل قلة من البشر يعمرّون على أرض الواقع .. و لنفترض هنا أن ملاكاً نزل عليك من السماء في مراهقتك و أخبرك بأنك ستعثر على كنز من المجوهرات عندما تبلغ سنّ الخمسين من عمرك سيجعلك أثرى الأثرياء و يحيل حياتك جنة ، فكيف ستتعامل مع حياتك القادمة حتى تبلغ سن الخمسين ؟!)

بلا أدنى شك ستؤجل كل أحلامك إلى بعد هذا السن فتزهد بالمال و الثراء مبدئياً فأنت على موعد معهما لاحقاً بكل تأكيد ، و تقتنع بحياتك الراهنة ، كما تطمئن لمستقبلك حتى شيخوختك ، بل ستنشغل في شبابك بأمور معنوية كالثاوث المقدس الذي تحدثنا عنه (الأخلاق و

الإيمان و المعرفة) ، لأن أمامك متسع من الوقت للاستمتاع بالأمر المادية بعد بلوغك سنّ الخمسين كونك تؤمن بأنك ستعمّر و تشيخ .. هنا تأتي الفكرة الرئيسية في قصتنا و مغالطتنا ككل و مرتبط الفرس فيهما ، فتخيّل أنك توفيت عند بلوغك سنّ الخمسين بدلاً من عثورك على الكنز الموعود ، هل ملاك السماء في هذه الحالة خدعك و كذب عليك بوعوده هذه ؟

إطلاقاً ، فأنت بحياتك السابقة القويمة و الرضية و القنوعة و الإيجابية ستسمو بروحك بعد الموت إلى جنان الله ، و جميعنا يعني تماماً ماذا تعني هذه الجنان ، حيث تغدو كنوز التاريخ كلها مجتمعة بالنسبة لها كذرة في فضاء الكون .. و للإنسان الصالح هنالك عطاء غير محدود أو منتهٍ و إلى الأبد .. بل الحقيقة أنّ الملاك إن كذب عليك بشيء ، فبأنّ الكنوز التي كانت تنتظرك عند سن الخمسين أكبر بكثير و كثير مما وعدك !! فهو لم يكذب عليك على الإطلاق بل كانت كذبة صادقة تماماً و الاختلاف الوحيد أنك عثرت على كنزك في مكان لم تكن تتوقعه على الإطلاق ، مكان خارج حدود هذا الكون ، و لا تنسَ أبداً بأنّ الناس عبر التاريخ قطعوا قارات كاملة وراء كنوز الأرض غير المضمونة بلا تذر و بحماس كبير ، فكيف يتذمرون من الانتقال الآن من دار الدنيا إلى دار الآخرة بلا جهد أو تكاليف لبلوغ كنوز حقيقية مضمونة لا توصف بكلام ؟!))

و ما ينطبق على قصتك الافتراضية هذه مع الملاك ينطبق على جميع البشر في الحياة ، فقد وعدهم الله عبر أنبيائه بأن من يشغل حياته في الدنيا في تطوير الثالوث المقدس السابق فإنّ جنانه الرحبة بما فيها تنتظره بعد الموت .. و الله حقيقة لا تقبل الشك و جنانه حقيقة أخرى كما وعدنا .. فلماذا يرضى الإنسان بوعده ملاك له بأنه سيعثر على كنز سيجعله ثرياً في عمر متقدم و ينتظر ذلك بقناعة و تسليم و اهتمام بالثالوث المقدس ، و لا يرضى بوعده الله له بأنه سيحصل على كنوز لا توصف في نفس العمر تماماً لكن بأن يحلّ

أجله و ينتقل إلى الجنان ، فيعيش حياته برضا و قناعة و تسليم أيضاً و ينشغل بتطوير هذا الثالوث ريثما يحين أجله هذا و يعثر على كنوز السماء .. ؟!

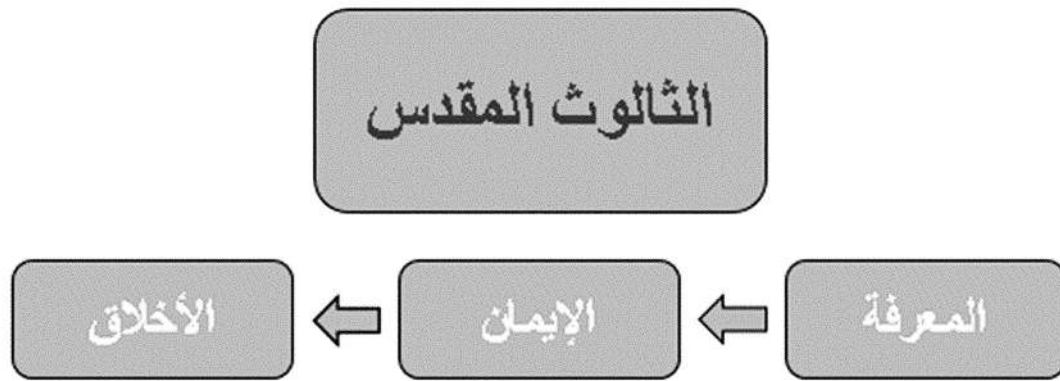
فربما كتب الله لك أن تموت بعمر الثلاثين مثلاً ، و مغادرتك إلى الجنان عندها أعظم بكثير مما لو استمررت على قيد الحياة و عثرت على كنز مادي محدود بعمر الثلاثين نفسه ثم استمتعت به حتى عمر المئة افتراضياً علماً أن السعادة الصرفة في الحياة الدنيا سراب لن يتحقق و لو امتلكت كنوز الأرض قاطبة..

و هذه مفارقة عجيبة أراها عند الأغلبية الساحقة من البشر ، و إن فكرت بها قليلاً عزيزي القارئ ستجدها شائعة و غير منطقية و مدهشة للغاية !! إذ بالفعل كل إنسان يأتي على هذه الحياة سيعثر على كنز حقيقي في فترة معينة من حياته و هي بالتحديد (اليوم الذي سيموت فيه) فلماذا نرفض انتظار هذا اليوم و ذاك الكنز بقناعة و رضا و تسليم فنؤجل أحلامنا كلها إلى ما بعد هذا السنّ لكن لنحققها كلها بأفضل صورة ممكنة في مكان آخر أجمل بكثير ؟! في حين نقبل بانتظار ذلك اليوم مقابل كنوز أقل بكثير إن كنا سنعمّر كثيراً بعده ؟! و ما الفارق بين الحالتين بالأساس سوى الاختلاف الهائل بين قيمة الكنزين و طبيعة المكانين (دار الفناء القلابة و دار البقاء الأبدية) ؟!

فكّر بها قليلاً ، ستجد أن السبب الوحيد لهذه المفارقة هو ضعف إيمان البشر بالله و بالحياة بعد الموت ، و هنا يعود الثالوث المقدس ليثبت أهميته العظيمة في حياتنا فتمنحنا المعرفة الإيمان و يمنحنا الإيمان القناعة بقسمة الله و انتظار كنوز السماء بعد انقضاء أجلنا فنعيش حياتنا بأخلاق رفيعة ..

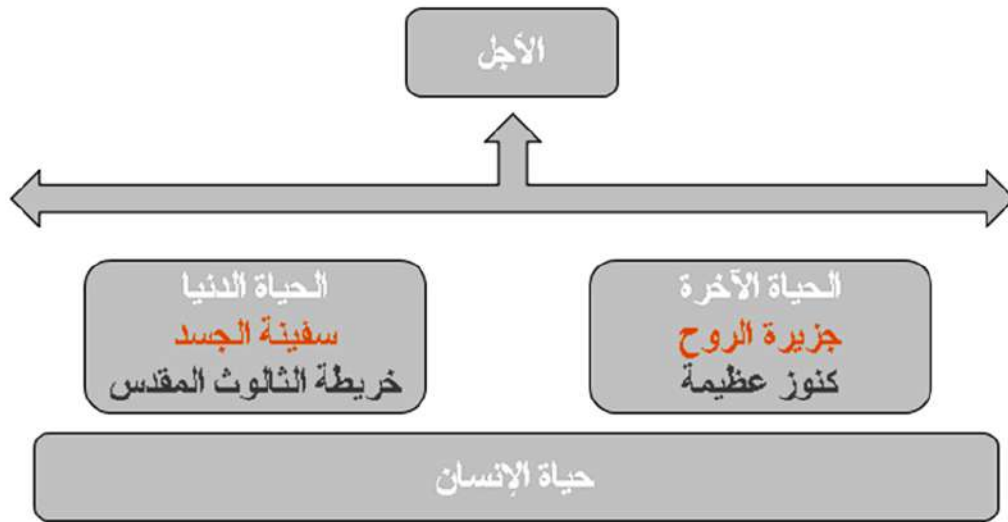
و يمكننا تلخيص كل ما سبق بأنّ السماء و شمت على جسدها خريطة كنز مخبأ فيها ، كنز لا يقدر بثمن و لا يوصف بكلام و لا يحاط بعقل

، أما فك شفرة هذه الخريطة فيكون بتطوير الثالوث المقدس في حياتنا (الأخلاق و الإيمان و المعرفة) الكفيل بمنحنا هذا الكنز بعد سنوات محددة من عمرنا عندما يحين أجلنا فنغادر الدنيا الفانية مرة واحدة و إلى الأبد إلى جنان السماء الرحبة حيث تنتظرنا الكنوز العظيمة الموعودة لنتمتع بها إلى ما لا نهاية ، و جلّ ما تطلبه السماء منا هو الصبر و الانتظار قليلاً لبضعة سنوات لا أكثر ..



لا يمكننا فهم الحياة الدنيا بدقة و عدل إن لم نربطها بالحياة الآخرة كتنمة طبيعية و منطقية لها .. فإن اعتبرنا حياة الإنسان في داري الفناء و البقاء جزءاً واحداً لا يتجزأ ، فعندها سندرك جيداً أنه في نقطة معينة من هذه الحياة سيعثر كل إنسان بلا استثناء بالفعل على كنوز عظيمة لا تقدر بثمن ، لا توصف بكلام و لا تحاط بعقل كما وعدتك في مستهل مغالطتنا و هذه حقيقة ثابتة لا تقبل الشك أبداً و علينا التعامل معها كواقع لا كاحتمال بالإيمان و اليقين بوجود الله و حقيقة جنانه و عندها سيتغير كل شيء و تتغير نظرتنا إلى الحياة جذرياً .. أما خريطة الكنوز هذه فبيدنا جميعاً ألا و هي : (الالتزام بالثالوث المقدس : الأخلاق و الإيمان و المعرفة) ، و كلّ ما علينا هو تتبع هذه الخريطة في رحلة حياتنا على هذه الأرض لبضعة سنوات لا أكثر كمغامرة فريدة و ممتعة و شيقة نمخر فيها عباب محيط الحياة الدنيا بسفينتنا الخاصة حتى نبلغ جزيرة الكنز (الحياة الآخرة) حيث ينتظرنا كنزنا العظيم المدفون فيها كما وعدتنا

الخريطة بالضبط ..



و في النهاية أتركك يا صديق الحرف مع هذه المقولة العظيمة لرسول
المحبة العظيم (المسيح) التي تتقاطع مع جوهر فلسفتنا على نحوٍ
رائع و مثاليّ :

((لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسدها السوس و الصدأ
، و حيث ينقب السارقون و يسرقون ، بل اكنزوا لكم كنوزاً في
السماء حيث لا يفسدها سوس أو صدأ ، و لا سارقون ينقبون و
يسرقون))

آلام الموت

= هل سمعت أن فلان مات ؟

= أجل رحمة الله عليه ، و كيف توفي ؟

= بطريقة بشعة للغاية .. بحادث سير حيث اصطدمت سيارته ليلاً بصهريج وقود مما سبب انفجار الصهريج و تفحم المركبتين معاً بمن فيهما ..

= يا ساتر .. كم هي ميتة مؤلمة .. ماذا فعل في حياته كي يستحق هذه النهاية المأساوية المفعمة بالعذاب .. !؟

= بالفعل ، لا بد أن غضب الله عليه شديد ..



في هذا الحوار الدائر بين صديقين حول وفاة أحد معارفهم نواجه مغالطة مزدوجة يقع فيها كثير من الناس، الشق الأول منها هو ربط الكوارث و المصاعب التي نتعرض لها في حياتنا بجهالة و سذاجة

بسوء أفعالنا و غضب الله علينا .. و هي من أشيع المغالطات عند البشر لكنها ليست موضوع نقاشنا الآن.. أما الشق الثاني فهو موضوع حديثنا التالي و كيف أنّ الناس تخلط عن جهل و غير وعي بين المظهر و الشعور .. فنقول مثلاً : (يا رباه لقد سقط فلان من الطابق الأخير و تهشم جسده تماماً ، كم هذا مؤلم ؟) في حين نقول بالمقابل : (لقد سقط فلان من الطابق الأول و كُسر حوضه فقط ، لقد نجى من موت شنيع و مؤلم بحق !)

و يكمن سرّنا الجديد في الحياة بين هاتين الجملتين (الربط بين فداحة المشهد و شدة الألم) ، و سنقوم عبر السطور التالية بمقاربة سرنا من زاويتين هامتين و شيقتين :

◆ **الزاوية الأولى :** أن الحوادث المميتة كالسقوط من شاهق أو حادث السير المروع أو التفجيرات و كثير غيرها غير مؤلمة البتة على عكس ما يشعر الناس تجاهها ..

فالدماغ يتوقف عن العمل بغياب الوعي أو الموت النهائي قبل أن تسنح الفرصة للمصاب أن يتألم حتى .. أما الحوادث غير المميتة كالجروح ، الكسور ، الرضوض و غيرها فتسبب أذيات مؤلمة للغاية بحفاظ المصاب على وعيه و الوعي هو توأم الألم ..

و من الهين علينا توقع أن البشر تصف الحالة الأولى بأنها ألم مهول لأن مظهر الحالة مهول بحد ذاته من تفجير أو تهشم ، في حين تصف الحالة الثانية بالحدث البسيط كون الأذية محدودة و المشهد بسيط .. و الخلاصة أن الألم يتناسب عكساً مع شدة الحادث و حتى عندما يبلغ درجات شديدة فإن المصاب يغمى عليه من شدة الألم ليتوقف الألم بذلك .. فتكوين الإنسان محسوب بدقة بحيث أن لكل شيء غاية و سبب يكون فيها الهدف النهائي من كل شيء هو مصلحة الإنسان لا غير ..

◆ **الزاوية الثانية :** التمييز بين الألم و الموت .. فالأول هو شعور

بشري واع كهبة إلهية لنا كي نتجنب الوصول إلى الثاني (الموت)
فالألم هو الضوء الأحمر و جرس الإنذار الذي يخبرنا بوجود
اضطراب ما في الجسم علينا معالجته و تصحيحه تجنباً لخسارة
حياتنا .. و طالما أنك تتألم فأنت على قيد الحياة ..

أما الموت فهو تجربة غير مؤلمة على الإطلاق بل هي رصاصة
الرحمة التي تقتل الألم بشكل نهائي فيتوقف الجسد عن الإحساس في
جزء من الثانية .. و ذلك ما عبر عنه الإمام علي بن أبي طالب
بقوله :

((استهينوا بالموت فإن مرارته في خوفه))

و بالفعل القناعة بأن الموت مؤلم هو شيء مكتسب غير منطقي نتج
عن أمرين هامين ، الأول جهلنا بتجربته كوننا لم نختبره من قبل إذ
لم يعد أحد من الموت كي يخبرنا عن ماهيته ، و الثاني أننا نقرن
الموت بالمشهد المهول القاسي الذي يحيط بكثير من حالاته كما ذكرنا
في الحوار بين الصديقين في مستهل حديثنا .. لكن إن نحن قاربنا
موضوع الموت بطريقة علمية و عقلانية نجد أن الموت هو توقف
أني للجسد عن العمل تماماً بما في ذلك المشاعر الإنسانية و بالتالي
الموت تجربة يسيرة غير مؤلمة يرحل فيها الإنسان بسلاسة و سلام
على خلاف ما يحيط به من مظاهر قاسية يستقبلها الشهود الأحياء
بمشاعرهم الجياشة ، فهنا يقوم الشهود بإسقاط مشاعرهم المؤلمة و
الفرجة بشكل غير منطقي على الميت نفسه الذي لا يشعر بشيء في
الحقيقة .. كما أن الموت لا يختلف بشيء عن النوم أو التخدير ، هل
سبق لك و أن تألمت عندما غفوت أو تم تخديرك لإجراء عمل
جراحي من قبل ؟!

و هنا نستذكر مقولة أسماء بنت أبي بكر الصديق :

((إذا ذبحت الشاة فالسلخ لا يؤلمها))

و هي مقولة منطقية علمياً تماماً تدعم ما سبق و ذكرناه بأن الموت انتهاء لأي شعور بشري حيث تغادر الروح زنزانتها في حين يبقى الجسد جماداً كالصخر لا يضره أيأً تفعله به .. كحال الجثة التي تحترق و تتفحم بعد التفجير فالمظهر مرعب و مؤلم بالنسبة للشهود على الحادث لكنه غير مؤلم البتة بالنسبة لصاحب الجثة الذي فقد إحساسه بالغياب عن الوعي أو الموت ..

و متى ما تأقلم الناس مع هذه الحقيقة العلمية هان عليهم الموت و لم يعد مخيفاً على الإطلاق .. كما كان يحدث عند الأضاحي و القرابين البشرية لحضارات الهنود الحمر في الأمريكيتين من المايا ، الإنكا و الأزتيك .. حيث كانت الأضحية البشرية تسلم نفسها بطواعية و رضا للشخص الذي سيذبحها فينحرها بهدوء دون أي ألم من قبلها و تفارق الحياة آنياً ، و من يشهد ذلك الاحتفال الديني يفهم تماماً سهولة الموت و بساطته على خلاف ما هو شائع بين الناس. فالنحر يتم بجزء من الثانية ثم تنقطع التروية عن الدماغ فتفقد الأضحية وعيها

و في الحقيقة أن ما ينطبق على مفهوم الموت ينطبق على مفهوم الألم بحد ذاته .. فجزء كبير من شدة الألم هو وهمي نابع من الخوف من عواقب الألم من جهة و من منظر العامل المسبب للألم من جهة ثانية كالحرق أو دماء الجرح أو العظمة البارزة من الكسر ... و إن أحكمنا سيطرتنا على مشاعر الألم عند حدوثه فإننا سنقل كثيراً من شدته .. و أستذكر هنا من تجربتي الشخصية كطبيب حادثة جرت لي في إحدى المشافي عندما أتاني جندي شاب مصاب في الحرب بلغم و قد قطعت ساقه و فصلت عن فخذه فلم يعد يربطها به سوى الشريان .. فقد كان الجندي هادئاً ومستكيناً لحاله ، الأمر الذي رأيت نقيضه تماماً عند جنود بإصابات أقل و هم يصرخون بشدة من الألم

لنتوصل إلى نتيجة هامة في حديثنا :

((الألم هو حالة نفسية قبل أن تكون جسدية ترتبط بقوة بالمشهد

المصاحب للألم .. فكلما زادت قسوته زاد شعورنا بالألم المصاحب كثيراً على نحو غير علمي أو منطقي و هذا ما ينطبق بدوره على الموت بحد ذاته))

و في الطب الكثير من الأدلة على هذه النتيجة ، فعندما تخبر المريض عمداً أن الإجراء الطبي الذي ستقوم به مؤلم سيتشنج و يتألم بقوة ، و بالعكس إن أخبرته أنه إجراء بسيط يسبب ألماً خفيفاً سيتقبل الموضوع برحابة صدر و يتألم قليلاً و لو كان الإجراء مؤلماً فعلياً على أرض الواقع ، بدءاً من حقن إبرة الدواء و انتهاءً بأكبر العمليات الجراحية .. و كما قال شيخ الأطباء ابن سينا :

((الوهم نصف الداء ، و الاطمئنان نصف العلاج ، و الصبر أول خطوات الشفاء))

و ربما سمع كثير منا قصة الشخص الذي شرب كأساً من النبيذ فمازحه صديقه أن النبيذ مسموم ، ليسقط ميتاً على الفور ، و في هذا مؤشر على قوة تأثير الوهم على الإنسان و الذي قد يصل به إلى درجة الموت وهماً .. و هذا ما ينطبق في مغالطتنا على مفهومي الألم و الموت .. و لقد لخص شاعر العصور الوسطى الإنجليزي جيفري تشوسر ذلك بمقولته الشهيرة :

((يا لقوة الوهم ! الناس سريعو التأثير لدرجة أنهم قد يلقون حتفهم من مجرد خيال))

إذاً الألم موضوع نسبي يتعلق بعوامل عديدة على رأسها المشهد المصاحب له أو التوقع المسبق لشدته ، و هو هبة ربانية تحمينا من تفاقم الأذية و خسارتنا لحياتنا إن لم تعالج .. و أكبر دليل على هذه الحقيقة حالة طبية تعرف ب ((متلازمة عدم الشعور بالألم CIP Congenital Insensitivity to Pain)) و فيها يفقد

المصاب الشعور بالألم تماماً و قد يظن البعض أن هذه نعمة من الله لكن الحقيقة على نقيض ذلك ، فمتوسط عمر المصابين بهذا المرض قصير بسبب الأذيات و الانتانات الكثيرة التي تصيب جسدكم دون أن يدركوا ذلك و التي تتفاقم و تؤدي بحياتهم بعد فوات الأوان .. كما تكون حياة المريض به معقدة للغاية إذ يقوم بعد أسنانه وتفقدوها واحداً تلو الآخر لمعرفة إن سقط أو تسوس أحدها، و يفحص كامل جلد جسده لتحري وجود حروق، جروح، أو رضوض .. كذلك يتأكد من سلامة كامل مفاصله، فيحركها واحداً واحداً بحثاً عن خلوع، فكل أذى قد يحدث دون أن يشعر... و هذه الإجراءات يقوم بها على مدار الساعة على نحو مؤلم نفسياً بشكل يفوق الألم الجسدي الذي حرم منه بأضعاف مضاعفة ..

لذا تقبل يا صديق الحرف الأذى الذي تتعرض له برحابة صدر و أحكم السيطرة على مشاعرك تجاهه فإن ذلك يخفف كثيراً من شدة الألم المصاحب له .. و استهن بالموت و لا تخف منه فهو عملية آلية تحدث في جزء من الثانية و ينتهي معها كل شيء .. أما المشاهد المروعة التي قد تصاحبه فهي مربوط الفرس في حديثنا و مجرد وهم مؤلم في أدمغتنا نسقطه على المصاب أو المتوفي كحالة مأساوية ترتجف القلوب من هولها .. و هي على نقيض ذلك في أغلب الحالات

و أخيراً عندما سيموت كل منا في يومه الموعود سيدرك أكبر حقائق الحياة :

((أكثر شيء قلقت منه طوال حياتي كان أسهل تجربة عشتها في حياتي .. إنه الموت نفسه))

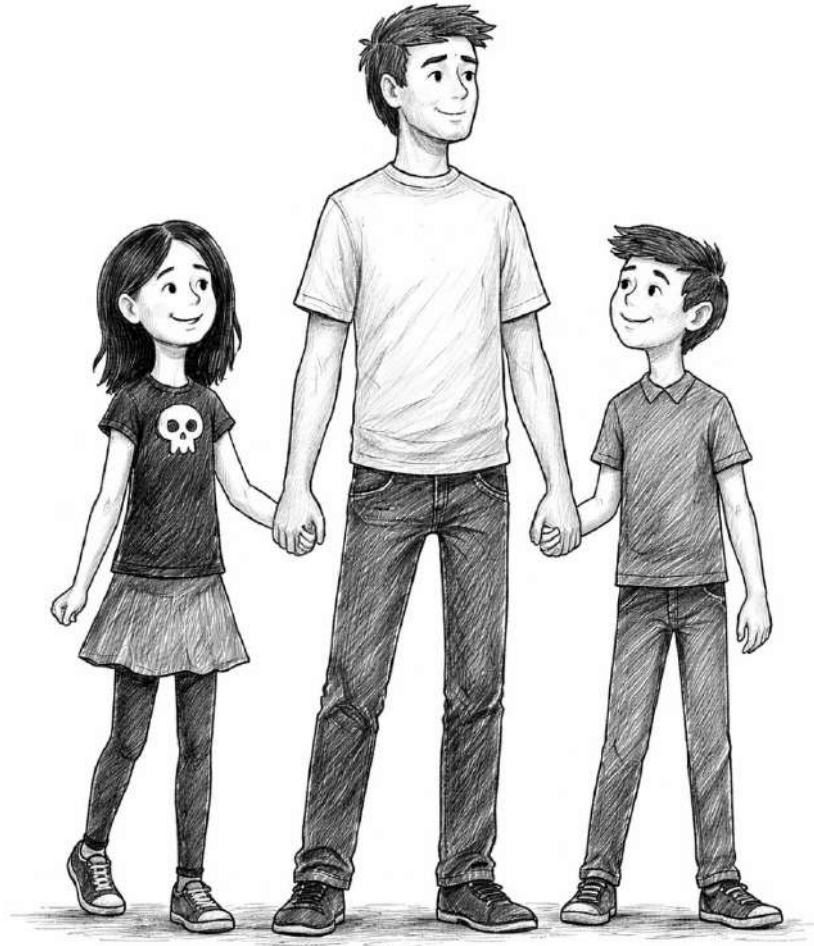
الإشباع و بداية الضياع

= أهلاً بك صديقي ، كيف هي أمورك ؟

= الحمد لله ، و أنت ؟

= جيدة .. كيف حال الزوجة و الأبناء ؟

= بخير و صحة جيدة ، لكن أولادي تالة و فارس يتعبانني بحق ..



= خير ؟!

= يتذمران على الدوام و تحصيلهم الدراسي غير مرضٍ مقارنة
بأقرانهم رغم أنني أوفر لهم كل شيء .. لا يحتاجان أو يطلبان شيئاً
إلا أمنتهم لهم في نفس اليوم .. !

= أمر مؤسف .. لكن اعذرني يا صديقي أن أقول لك بأن الحق عليك في المقام الأول ..

= عليّ أنا !!

= أجل .. فأكبر خطأ وقعت فيه هو توفير كل شيء يطلبانه لهما ..

= لم أفهم .. كيف يمكن لذلك أن يكون خطأ.. أنا ألعب دور الأب المثالي لهما !؟

= المثالية ليست بتأمين كل شيء .. بل بتعليمهما قيمة كل شيء كي يقدره حق قدره و يحافظا عليه ..

من بين ضلوع هذا الحوار الذي اختبره أغلبنا في حياتنا بطريقة أو بأخرى ، بين صديقين يتذمر أحدهما من سلوك أبنائه غير المرضي رغم تأمين كل شيء لهما على نحو غير عقلاني أو منطقي ، ينبض قلب سر الحياة الجديد ، فيحاك سؤاله على نول الحقيقة كالتالي :

(هل تأمين كل شيء للإنسان حرفياً ، بحيث لا يعرف طعم الحاجة في حياته يؤدي بشكل منطقي إلى سلوك إيجابي مقابل يحسن نواحي حياته ، أم أنّ هنالك مسار آخر للأمر ؟)

الجواب الوجيز المبدئي هو و على نحوٍ قد يفاجئ الكثيرين :

(للأسف ، كلما عاش الإنسان في عالم مثالي لا يحتاج فيه شيئاً ، شذّ سلوكه أكثر و فقد كثيراً من إنسانيته و معايير الأخلاقية)

كيف يمكن لذلك أن يكون صحيحاً ؟

يبدو الجواب للوهلة الأولى غير منطقي ، فالإنسان كلما تحسنت نوعية حياته يفترض أن يزيد إنتاجه و تتفاقم سعادته ، أعلم ذلك ، لكنني سأحاول توضيح هذا الجواب أكثر لك يا صديقي عبر الصفحات التالية ، و سأستهل حديثنا بأن أروي لك قصة مقتضبة

لكنها مفعمة بالعبر على نحوٍ لا أنكر بأنه مخيف و خطير إلى حدٍّ ما أيضاً ،حكاية عن تجربة سلوكية نفسية غريبة و فريدة من نوعها أجراها عالم الأخلاق الأمريكي (**جون كالهين**) عام **1986** م ، و تدعى تجربة (الكون **25**) ، فقد أنشأ جون ما يعتبر مدينة فاضلة للفئران في مختبره ، فيها رزقٌ دائم و أمان مستمر و مطلق، ثم وضع فيها أربعة فئران، اثنين ذكور و اثنين إناث ، و تركهم بعدها ليعيشوا و يتكاثروا كل **55** يوم و هو يراقبهم و يدرس سلوكهم و يسجله حتى بلغ عددهم حوالي **600** فأراً ، فما الذي حدث خلال تلك التجربة بحسب رأيك ؟

جوابك على الأرجح يفترض بأن الفئران عاشوا حياةً سعيدةً في مجتمع مثالي مؤمن فيه كل شيء بال مسؤوليات أو حاجات أو هموم أو مخاوف !

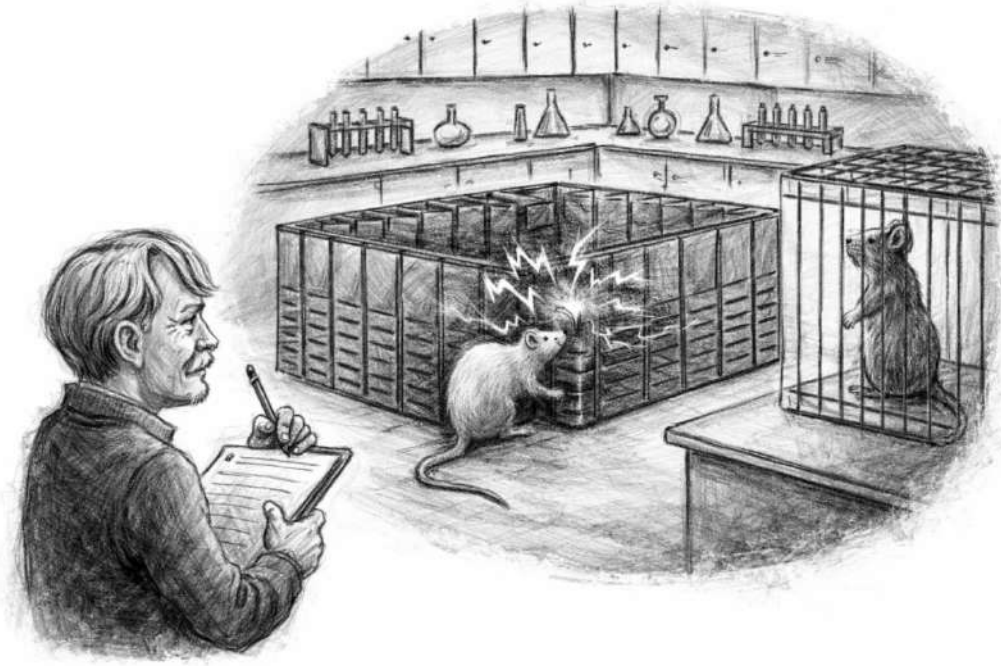
لكن الصادم في التجربة أن ما حدث في الحقيقة هو العكس تماماً ، فمع قدوم الأجيال الجديدة من الفئران إلى الحياة و التي ترعرعت في عالم متوفر فيه كل شيء بدأت الأمور التالية بالتفشي :

- العدائية من الفئران تجاه بعضها البعض ..
- الأنانية المفرطة خاصة عند الذكور و تخليها عن أزواجها و أولادها ..
- قتل الأمهات لأطفالها ..
- سلوكيات اجتماعية و جنسية غير طبيعية من قبل كلي الجنسين

نتائج غريبة و عجيبة تخالف المنطق و التوقعات ، أليس كذلك !؟

استمرت الأمور هكذا بتراجع أعداد الفئران حتى بقي فأر وحيد بعد عدة سنوات ليموت أخيراً فتنتهي معه تلك التجربة الغامضة و

المحيرة و تنتهي أيضاً الأحلام بإقامة اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة
كتجربة على مجتمع الفئران ..



لكن لماذا حدث ذلك من وجهة نظر العالم جون العلمية ؟
في الواقع العالم جون لم يفسر النتائج بل وصفها فحسب فالعلم بحد ذاته لا يستطيع تفسير تلك التجربة لأنّ نتائجها لا تعتمد على أسس مادية ملموسة بل أنها تسير بعكس اتجاه التوقع العقلاني المنطقي ، لكننا نجد الجواب الشافي عن أسئلتنا عند الدين و الروحانيات هذه المرة .. في الحقيقة يمكن تفسير تلك النتائج ببساطة شديدة عبر جملة واحدة فحسب :

(الإشباع و بداية الضياع)

و ترجمة هذه العبارة أنه بعد التعود على النعم لفترة من الزمن تفقد قيمتها في نظر مالكها تدريجياً ليتلو ذلك طور الانحدار عندما يصل الإنسان إلى مرحلة لا يقدر فيها ما بين يديه فيفقدّه..

و لا غرابة أنّ ما ينطبق على الحيوان في هذه النقطة ينطبق أيضاً على عالم الإنسان .. فجل الأمر ببساطة أنك يجب أن تجرب الحرمان

و الحاجة للشيء أولاً كي تقدر قيمته تماماً فلا تخسره لاحقاً و تحافظ عليه ، أما من يولد في عالم متوفر فيه كل شيء بحيث لا يعرف للحاجة طريقاً سواً كان إنساناً أو حيواناً (كفئران تلك التجربة) فلن يعي تماماً قيمة النعم ليفقدها عاجلاً أم آجلاً .. فالعملية نفسية بحتة بالمحصلة ..

و من وحي تفسيرنا الروحاني الأخلاقي هذا ، أستعين بالقرآن الكريم مجدداً لأستشهد بآية أقدرها للغاية تلخص تجربة الكون **25** هذه بمنتهى الروعة و البلاغة و تختصر مفهوم الإشباع بأفضل طريقة ممكنة ..

تنص الآية على :

(و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض و لكن

ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير)

و كما ترى يا صديق الحرف كم هي آية مذهلة و معبرة بالفعل ، فالله يعلم ما لا يعلمه البشر و يعرف مصلحتهم أكثر منهم ، إذ يدرك كما يقول بنفسه أن الرزق الشامل للجميع سيؤدي إلى فساد الأخلاق بسبب الوصول إلى

الإشباع الخطير الذي ذكرناه آنفاً و بالتالي بداية طور الضياع و فقدان النعم أي تماماً كما جرى مع الفئران في مدينتهم الفاضلة التي أعدها لهم العالم جون و بسط لهم الرزق فيها !! ..

قد يسأل سائل هنا ، لكن لماذا يرزق الله قسماً من البشر الكثير ، في حين يقتدر رزقه على قسم آخر .. ؟!

سؤال هام ، مشروع و منطقي بلا شك .. تجيب عليه آية قرآنية مذهلة أخرى متممة للآية السابقة يعتدل معها ميزان العدل الإلهي و تتحقق المساواة بين الجميع .. و تقول :

(و تلك الأيام نداولها بين الناس)



أي أنّ دوام الحال من المحال فمن هو في النور أو اليسر قد يمسي في الظالم أو العسر و من هو في الظالم أو العسر قد يصبح في النور أو اليسر و هكذا كتوالي النهار و الليل في حياتنا و لا يبقى على حاله سوى الله تعالى ، فالحياة دورات من شد و إرخاء .. عسر و يسر و بين هذه الثنائيات يلقنا الله بأبلغ المواعظ و أعظم الدروس .. و يمكننا اختزال كل ما سبق بالجملة التالية المبسطة التي تلخص فلسفة الإشباع و بداية الضياع ..

(وفرة النعم تسبب البطر ثم فساد الأخلاق ثم

فقدان النعم)

فالبطر خطيئة لا توازيها خطيئة ، و كارثة حقيقية تعصف بحياة الإنسان ، و نظراً لخطورته و تأثيره السلبي على أخلاقه و إنسانيته نجد الله تعالى يقول في القرآن الكريم :

(و كم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك

مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً و كنا نحن

الوارثين)

فالبطر ذو نتائج وخيمة تستدعي غضب الله و تأديبه للبشر كي يعودوا إلى طريق الصواب و تقدير النعم بعيداً عن الإسراف أو التبذير ..

و هذا يفسر بدوره لماذا كان الأنبياء و القديسون زاهدين بالحياة و متقشفين، ألنهم يدركون بأن الغنى و الثراء يفتحان أبواب البطر على مصراعيه مع عواقبه الوخيمة ..

و خير مثال على ذلك هو بوذا الذي عاش أميراً مترفاً في شبابه يملك كل شيء كما ذكرنا من قبل ، لكنه هجر كل ذلك لاحقاً و اكتفى بحياة الناسك بحثاً عن الاستنارة و فهم الحياة بصورة دقيقة و عميقة ، حتى أن كلمة بوذا تعني حرفياً : (**المستتير**) ..

وهنا يظهر مفهوم الصيام و أهميته في حياتنا ، طبعاً المقصود هنا هو الصيام عن كل متع و ملذات الحياة المادية منها و المعنوية ، و ليس الطعام و الشراب فحسب، فالصيام بحد ذاته شكل مبسط من أشكال اللقاح ضد الإشباع .. إذ أنك بامتناعك عن متع الحياة لفترة

من الزمن كما يحدث في الصيام ، فإنك تقدر قيمتها تماما و كأنك فقدتها بالفعل، فتدرك ما الذي ينجم عن الإسراف أو التبذير بها مما يدفعك إلى احترامها و صونها بأشعار العيون ..

و كما أن للقاح الأولي جرعات معززة و داعمة لاحقاً ، كذلك الصيام يعود سنوياً لتدعم تجاربه بعضها بعضاً مما يرسخ فكرة احترام النعمة في نفوس الناس ..

و يمكن القول و بكل ثقة بأن الصيام هو أهم أركان الأديان على الإطلاق لأنه إن مورس بوعي و إدراك قد يجنب الإنسان طور السقوط في الحياة عقب الإشباع عندما يعي بنفسه تماماً قيمة النعم فيصونها محققاً غاية الإله الأسمى دون أن يحتاج الخالق أن يحرمه منها كي يعي قيمتها بحق ..

أي أن الصيام هو ترياق التسمم بالإشباع ..

و في الحقيقة تجربة الكون **25** ليست الأولى من نوعها في التاريخ بل سبقتها بزمان سحيق تجربة مماثلة نعرفها جميعاً ، بل أنها طبقت

على الإنسان و ليس على الحيوان .. إنها تجربة آدم و حواء بعيد الخلق الأول في الجنة ، فقد عانيا بدورهما من تجربة الإشباع من نعم الجنة التي خلقا فيها و كانت تحتوي كل شيء حرفياً فلم يعرفا للحاجة طعماً ، فماذا كانت النتيجة ؟

تخلياً عن كل تلك النعم و عصياً ربهما عند أول أمر منه لهما بالابتعاد عن شجرة التفاح فبطرا و خسرا تلك النعم ليهبطا إلى الأرض مرتع الحاجة و الحرمان و الدروس الفريدة في تقدير قيمة النعم و التزام النصائح الإلهية النبيلة.. فالقصة ليست قصة تفاحة فحسب بل قصة رمزية تشير إلى العصيان بعد الإشباع من النعم الإلهية .. فلو قال لهما الله لا تقطفا تلك الوردة على سبيل المثال لقطفاها دون تردد .. و هكذا ..

حتى أننا نجد الفكرة ذاتها تتكرر مع أشهر ثلاث تفاحات أخرى في التاريخ .. تفاحة الشقاق الذهبية في الأساطير الإغريقية ، تفاحة العالم اسحق نيوتن و تفاحة الثائر وليام تيل ..

و بالعودة إلى موضوعنا الأساسي حول الإشباع و بداية الضياع ، فهو برمته أشبه بدخول قطار حياة الإنسان في نفق مظلم ، في البداية و قبل دخول الإنسان النفق يعيش في النور و يتمتع بمحاسنه و رونقه حتى يصل إلى مرحلة الإشباع منه فيصاب بالبطر و يبدأ طور الضياع ليدخل النفق المظلم فيتوه و تعصف به الحيرة و المرارة و الحرمان فيستذكر أيام النور بحنين لا يوصف و يقدره حق قدره مع التوبة و الطلاق من حالة الإسراف و التبذير للنعم و سوء تقديره لها في الماضي ، و عندها فقط يخرج قطار حياته من النفق إلى النور مجدداً و إلى الأبد لتبقى تجربة النفق درساً هاماً كبوصلة يستدل بها في قادم السنوات..

و مما يدعم تحليلنا السابق هو دراسة سلوكية نفسية اجتماعية أجراها العلماء حول معدلات الانتحار حول العالم ، فوجدوا أن أعلى معدلات

الانتحار هي في المجتمعات المتطورة التي يتوفر فيها كل شيء للمواطن كالدول الاسكندنافية .. لماذا ؟ لأنهم بكل بساطة يملكون كل شيء فقد بلغوا بذلك درجة الإشباع فتلقفتهم غياهب الظلمة و الضياع و قادتهم إلى الإحباط و اليأس بعد فقدان النعم لقيمتها في عيونهم .. !

الله نبيل ، رحيم و كريم .. لديه خزائن السموات و الأرض و لو شاء لمنحنا إياها بغمضة عين دون أن يخسر شيئاً ..

لكن من سيخسر في هذه الحالة هو نحن ، عندما نفقد تقديرنا لهذه النعم فنضيع في متاهة الإشباع و الضياع ، لذا و من أجل مصلحتنا فقط لا غير يجعلنا الخالق نعيش الحرمان و الألم و الحاجة في الحياة الدنيا كي نقدر نعم الجنة اللامحدودة في الحياة الآخرة بعد الموت فنصونها بأشفار العيون .. و لدينا في قصة أبينا آدم و أمنا حواء عبرة و مثل بليغ .. لذا نجد الله يصف حياتنا في الدنيا بالقول :

(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه)

فالله لم يعدنا بغير المشقة في الدنيا من خلال دروس الحرمان المتنوعة ، حرمان المال أو الغذاء أو الصحة أو الأمان أو العائلة ... إلخ ، كي نستحق الراحة و الاستمتاع الأبدي في الآخرة بنعم نعي بعمق و قناعة قيمتها الحقيقية ..

أما حلم اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة التي حلم بها أفلاطون ذات يوم فلن تقام أبداً في هذه الحياة لأن فيها هلاكاً للجنس البشري على خطى تجربة (الكون 25) ، بل إن الله سيحرمانا جميعاً من متع و حاجات متنوعة حتى قيام الساعة ، لأنّ الدنيا ليست مكاناً للاستمتاع البحت ، بل لتعلم الدروس الهامة التي سنتسلح بها في حياة الآخرة الباقية بعد الموت ..

الحرمان و الرحمان لا يتشابهان بالحروف فحسب بل بأمور أعمق بكثير .. فالحرمان رحمة إلهية تجعلنا نقدر حقاً قيمة الأمور التي حرمتنا السماء منها كي نحافظ عليها لاحقاً عندما يهبنا إياها الله دون مقابل و للأبد .. كما قال نبي الرحمة محمد :

(صوموا تصحوا ..)

أي نصحّ جسدياً ، نفسياً و روحياً على حدّ سواء .. فلا أروع من الصيام كحرمان مؤقت من متع الحياة يجعلنا نقدر قيمتها حقّ قدرها طوال العام التالي حتى نضرب موعداً جديداً مع صيام آخر إلى أن تحفر فلسفة تقدير النعم في أرواحنا إلى الأبد مع التأثير التراكمي للصيام على امتداد سنوات عمرنا ..

التعاضد النفسي

المعطف ..

قصة قصيرة من تأليف الروائي الروسي الكبير نيقولاى غوغول ، تحكي قصة معطف رجل يدعى أكاكي أكاييفتش ، و هي قصة إنسانية قال عنها الروائي الشهير تورغينيف: (كلنا خرجنا من معطف غوغول)

أكاكي إنسان ساذج فقير معدم لا يملك من حطام الدنيا شيئاً بل لم يكن يطمح لامتلاك أي شيء .. كان ينظر للأشياء وكأنها غير موجودة أو أنها ليست له .

عاش في غرفة مستأجرة صغيرة ومعتمة بمفرده .. وكان يملك بدلة واحدة أصبحت قديمة ومهلهلة ، مع ذلك لم يكن يتذمر أبداً ، ولم يكن يشتكي لحد كما لم يطلب أي شيء من الآخرين .. فكل الأيام عنده تشبه بعضها .. هذا الرجل كان لديه حلم وحيد في حياته و هو شراء معطف جديد ، لأن معطفه القديم قد خرج من الخدمة ولم يعد صالحاً للاستخدام وليس هناك إمكانية لإصلاحه أو ترقيعه و البرد في روسيا قاتل ..

وفعلا ذهب أكاكي إلي الخياط ليخيط له معطفاً جديداً . لكن من أين يأتي بالمال ؟

الراتب بالكاد يكفي الأكل والشرب !!

فكر الرجل .. ولم يجد حلاً سوى التقشف لمدة سنة كاملة حتي يدخر ثمن المعطف .. تخيلوا أنه توقف عن شرب الشاي قبل النوم مع أنها المتعة الوحيدة التي لديه ، ولم يعد يشعل قنديل المصباح ليلاً ليوفر ثمن الزيت .. بل وصل به الأمر لإلغاء وجبة العشاء ، و عندما كان يذهب إلى العمل ، كان يمشي علي رؤوس أصابع قدميه ليحافظ علي

حذائه لأطول فترة ممكنة كي لا يضطر لشراء حذاء جديد وذلك بغية توفير ثمن المعطف ..

فخلال هذه السنة تحول المعطف إلي هدف وغاية كان يفكر به طوال الوقت ويشاهده في أحلامه ، وكل اسبوع كان يذهب الي الخياط ليطمئن علي المعطف ..

مرت السنة وانتهي التقشف وأتي يوم التسليم .. وعندما أرتدى المعطف أوشك أن يصاب بنوبة قلبية من شدة الفرح و حينما خرج إلي الشارع كاد يطير فرحاً وخاصة عندما شعر بثقل المعطف علي كتفيه .. هذه المرة كان يضحك من أعماقه ..

ذهب إلي العمل في اليوم التالي ليجد زملاء العمل ينظرون إليه نظرة دهشة كونه يرتدي معطفاً جديداً !! و بسبب مظهره الأنيق الجديد دعاه أحد الزملاء إلي عيد ميلاده لأول مرة .. و بالفعل ذهب الي الحفلة و هو يشعر بأنه لا يزال علي قيد الحياة وبأن لوجوده قيمة .. لكن للأسف ، لم تدم الفرحة طويلاً .. ففي طريق عودته هاجمه بعض اللصوص واشبعوه ضرباً ثم سرقوا المعطف منه فانفطر قلبه

وبالرغم من صراخه البائس واليائس لم يساعده أحد من المارة وظل مرمياً على الأرض يرتجف من شدة البرد ومن شدة القهر والضعف والحزن ، الي أن استجمع قواه وقصد أحد مراكز الشرطة لتساعده في كشف المجرمين أو في محاولة إعادة المعطف له ، لكن المحقق هناك نظر إليه نظرة عدم اكتراث وقال له إنه لن يضيع وقته في مسألة تافهة كسرقة معطف ..

فعاد أكاكي الي الشارع مرة أخرى ليتعرض لهجوم من نوع آخر ، هجوم البرد القارس و مرارة القهر .. فحطم البرد عظامه من الداخل ليعود الي غرفته و هو يهذي بكلمة واحدة فقط .. المعطف .. المعطف .. المعطف .. و بات يراه في كل مكان .. في اليوم التالي مات صاحب المعطف من البرد و القهر ، ومع كل شتاء كانت روح

صاحب المعطف البائسة تمشي في شوارع مدينة سان بطرسبرغ الروسية لتنتقم من كل إنسان يمتلك معطف و لا يعرف قيمة ذلك ..

في هذه القصة المؤلمة بحق و المنتشرة في مختلف أرجاء العالم باختلاف الأشخاص و مع استبدال المعطف بأشياء أخرى ، تكمن عبرة من أعمق عبر الحياة ، و هي الكم الهائل من النعم التي نملكها بين أيدينا و لا نعرف قيمتها الحقيقية بسبب امتلاكنا لها ، في حين يدرك تلك القيمة بشكل مهول كل إنسان حرم منها .. فكم نملك من (معطف) و نتعامل معه بازدراء في حين أنه حلم الحياة بالنسبة لآخرين .. المعطف الذي قد يكون زوجة أو أبناء أو منزل أو سيارة أو وظيفة أو صحة أو مال و غيره .. و هذه المغالطة البينة تعتبر واحدة من أهم أسرار الحياة ، إذ يقع في شباكها كل البشر خلال حياتهم .. لذلك تستحق منا أن نقاربها بعمق و تفصيل أكثر كي نفهم جيداً الأسباب الكامنة خلفها لنفاديتها إن أمكن ، و لإنجاز ذلك سنقوم بتحليلها من عدة محاور هامة للغاية :

- الصيام الفكري ..

- لا قيمة لشيء في متناول اليد ..

- خوارزمية إدراك قيمة النعمة ..

لذا لا تجعل امتلاكك مجاناً لهذا الكتاب يا صديق الفكر يجعلك تستهين بمحتواه أو تتجاهله ، بل ابذل قليلاً من الجهد لقراءته و التفكير في هذه السطور على وجه الخصوص عليها تكون دفعة لك لتقدير كل النعم التي تملكها بين يديك و تجهل قيمتها الحقيقية ..

الصيام الفكري ..

كما أوردنا في مقدمة حديثنا ، الصيام الفكري مفهوم عميق و هام للغاية رغم أنه يقوم على مبدأ بسيط :

(بذل الجهد للحصول على الشيء يجعلك تشعر بقيمته أكثر و
بالتالي تصونه و تحافظ عليه أكثر)

و هذا المفهوم ليس ببعيد عن مفهوم الصيام التقليدي ، فحرمان الإنسان من المذاذات بطيفها الواسع لفترة من الزمن يجعله يقدر قيمتها أكثر فيحافظ عليها و يستلذ بها أكثر .. لكن الصيام الفكري أشمل و أعمق ، فهو يشمل كل شيء في حياتنا حرفياً مادياً كان أم معنوياً ..

و خير مثال على هذا المفهوم هو المال ، فمثلاً بالمقارنة بين الأبناء لأباء أغنياء و فقراء ، نجد أن الابن الذي يأتي إلى الدنيا في عائلة غنية تمنحه كل شيء ، لا يقدر قيمة الأشياء و يعتبرها من بديهيات الحياة ، لذلك يمكنه أن يبذرها أو حتى يبدها بسهولة حتى يصل إلى الإفلاس ، على عكس الابن الذي يأتي إلى الحياة في عائلة فقيرة ، فيشعر تماماً بقيمة النعمة و المال و يشق طريقه في الحياة بجد و اجتهاد كي يخرج من بيئته القاسية هذه لكنه إن أصبح غنياً فسيعرف بالضبط كيف يصون ثروته و يحافظ عليها لاحقاً ..

و على المقلب الآخر للمادة نجد الدين ، فالابن الذي يولد في بيئة دينية قديمة كثيراً ما يستهين بهذه النعمة و من الممكن أن ينحرف في فترة من حياته عن جادة الصواب .. على عكس الشخص الذي تربى في بيئة فاسدة و ضالة ، فمن المرجح أن يهتدي لاحقاً في حياته و إلى الأبد لأنه بات يعلم جيداً قيمة الدين و الأخلاق في الحياة و أنها بهما أجمل بكثير ..

و لهذا السبب بالضبط إن راجعت صفحات التاريخ و بحثت في حياة العظماء كلهم فستجد أن القاسم المشترك بينهم هو حياة صعبة في الشق الأول من العمر جعلتهم يفهمون حقيقة الحياة و قيمة النعم و الأشياء لذا تابعوا الشق الثاني من عمرهم بالالتزام و تحقيق الإنجازات بعيداً عن الإسراف و التبذير المادي أو المعنوي أو الوقتي .. فالسماة تسلك في تعاملها مع الإنسان سلوك القوس و السهم ، فهي بحرمانها للإنسان من بعض الأمور ترجع السهم إلى الوراء ثم

بتعويضه بالنعم ينطلق سهم الإنجاز و تقدير النعم بقوة نحو الأمام ..

لا قيمة لشيء في متناول اليد ..

هذا المفهوم يتشابه مع مفهوم الصيام الفكري ، فالشيء الموجود بين أيدينا يمنحنا إحساساً وهمياً بأنه :

⊙ بديهي ، و نستحقه بلا سبب ..

⊙ دائم و أبدي ، و سيرافقنا إلى مماتنا ..

فيتولد لدينا يقين بأن كل ما نملكه في حياتنا واقع لا بديل له في فلسفة الحياة و خلق الإنسان ، لكن في الحقيقة الحياة ليست كذلك ، بل هي دورات من مد و جزر للنعم .. و لا يدري الإنسان متى يصحو من النوم ليجد الأمور قلبت رأساً على عقب و اختفت تلك النعم من بين يديه .. و عندها فقط سيشعر بالقيمة الحقيقية لتلك النعم ، كما يقول الطبيب و الأديب الروسي الكبير أنطون تشيخوف :

(لا يشعر البشر بقيمة ما يملكونه إن كان وفيراً ، فنحن لا نقدر ما نملك بل وحتى لا نحبه)

أو كما يقول المثل الشعبي الشهير :

(لا ندرك قيمة الشيء حتى نفقده)

و بالعودة إلى مطلع حديثنا فصديقنا أكاكي الذي حرم من المعطف أصبح يراه كل الحياة و يتمسك به بيديه و أسنانه ..

و القاعدة العامة للسماء في تعاملها مع البشر هي :

(لا شيء تملكه حق لك ، فإما أن تثبت للسماء أنك تستحقه بتقدير قيمته و صونه و الحفاظ عليه ، أو أنك ستخسره ذات يوم لا محالة كي تقدر قيمته بالطريقة الصعبة و تسعى للحصول عليه مجدداً بمشقة و عندها ستحافظ عليه بنفسك بدون ضغط خارجي لأنك بذلت الجهد حتى امتلكته)

و هذه القاعدة تنطبق على كل مجالات الحياة (الأمان ، الصحة ، المال ، الدين ، العائلة ، العمل ، المنزل ، الوطن .. إلخ) ..

خوارزمية إدراك قيمة النعمة ..

نعم السماء علينا لا تعد و لا تحصى ، فكل شيء حرفياً من حولك عزيزي القارئ تملكه بدون جهد و بالمجان هو نعمة مسؤول عنها أمام السماء ، و هي ببساطة تجربك لترى هل أنت أهل لاستحقاق هذه النعم أم لا ، فإن كان الجواب نعم أغدقت عليك بالمزيد ، و إن كان الجواب لا ، بدأت تشعر بانحسار النعم من حولك بدون مقدمات .. و لكي نؤكد للسماء أننا أهل لاستقبال النعم علينا اتباع الخوارزمية التالية :

● **الإيمان التام أن لا شيء مجاني في الحياة :** بمعنى أن النعم التي نملكها ليست شيئاً بديهياً من صلب الحياة و نستحقه بمجرد أن أتينا إليها ..

● **إدراك أهمية النعم في حياتنا :** و هذا أهم بند ، إذ متى فقد الإنسان الشعور بأهمية الشيء فهذا نذير شؤم بأنه سيفقده قريباً ..

● **صون النعمة و الحفاظ عليها :** و أبسط مثال على ذلك هو هدر الطعام ، فعلى الإنسان أن يأكل بقدر حاجته و في حال تبقى طعام إضافي عليه أن يوزعه على المحتاجين ..

● **شكر السماء على النعم :** فبالشكر تدوم النعم بل و تتضاعف أيضاً .. و من أجمل العادات المتبعة حول العالم في هذا السياق هو عيد الشكر في أمريكا ، الذي يخصص فيه الناس يوماً لشكر السماء على نعمها ..

● **تجربة الحرمان من النعم لفترة من الزمن:** كي نعزز البنود السابقة كلها عملياً ، و هنا يأتي دور الصيام الفكري و التقليدي الذي يمنحك تجربة مجانية لتحقيق ذلك .. و أحياناً تأتي هذه التجربة من

السماء كابتلاءات عصبية مؤقتة تمنح الإنسان دروساً بليغة في تقدير قيمة النعم ثم تنحسر، كما قال البارئ :

(و لنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين)

● الإحساس بالآخرين الذين حرمتهم الحياة من نعم نملكها بأنفسنا : بأن نشاطرهم جزءاً من هذه النعم ، و أبسط مثال على ذلك هي الصدقة .. فنحن بهذه الطريقة نعيش تجربة فقدان النعمة بدون أن نفقدها على أرض الواقع بمقاسمة هؤلاء تجربتهم و مشاعرهم ..

● تربية الأطفال على هذه الخوارزمية : فالمرء ينشأ على ما قد علمه أباه ، و الطفل يأتي إلى هذه الحياة بقناعة أن كل شيء من حوله بديهي و دائم ، و بأن حياته ستستمر على هذا المنوال مما يولد في أعماقه شعوراً بالاستهتار بالنعم و التعامي عن قيمتها الحقيقية ، و هنا يأتي دور الآباء في شرح الحقيقة لهم و تعليمهم البنود السابقة



من الأقوال المأثورة في أرشيف التاريخ :

(كنت أحزن لأنني لم أكن أملك حذاءً ولكنني توقفت عن الحزن لما رأيت رجلاً بدون قدمين)

و هذه المقولة تشرح مفهوماً هاماً للغاية هو عنوان حديثنا ، و هو مفهوم التعاضد النفسي ، فرؤيتنا لأشخاص من حولنا حرموا من أشياء نملكها يجعلنا نشعر بقيمتها و نصونها و نحمد الله عليها .. لذا تذكر يا صديق الحرف بأن مقابل أي شيء لا تملكه هنالك مئات الأشياء التي تملكها و لا يملكها غيرك .. و بالمحصلة السماء وزعت النعم على البشر بالعدل لا بالتساوي ..

أثر الكوبرا

قال موزع الأوراق في لعبة البوكر في إحدى صالات القمار في لاس فيغاس :

= فليظهر اللاعبون أوراقهم ..

فتح جاك أوراقه و هو يبتسم بثقة من انتصاره فليديه **FULL HOUSE** و احتمال خسارته ضئيل للغاية .. فتح بقية اللاعبين أوراقهم تباعاً و كان جاك في طريقه نحو الفوز كما توقع حتى فتح آخر لاعب أوراقه ليصدم بأن لديه **STRAIGHT FLASH** و بذلك خسر جاك ماله كله فقد دخل به كاملاً **ALL IN** ..

خرج جاك من صالة لاس فيغاس يجر ذيول الخيبة بعد أن خسر ثروته كلها .. و هو يفكر ، ما الحل الآن ؟ لديه خياران ، إما أن يقلع عن القمار و يستمر بعمله كي يعوّض خسارته ، أو يقترض مبلغاً من المال كي يقامر به مجدداً و يعوّض خسارته ثم يرد المال لصاحبه ..

و لأنّ جاك ماهر جداً في لعبة البوكر قرر اقتراض المال و المحاولة مجدداً ..

بالفعل هذا ما حدث ، لكن جاك خسر المال مجدداً لسوء حظه ، فتفاقمت ديونه و مشكلته ، لذا اقترض مجدداً مزيداً من المال فخسر ثانية ، و هكذا حتى ترتبت عليه مبالغ هائلة و رفعت عليه أكثر من قضية فحوكم بالسجن في النهاية حتى يعيد الأموال التي لا يملكها إلى أصحابها ..

فما الذي حدث في الحقيقة ؟ لقد حاول جاك حلّ مشكلته ، لكن طريقة الحلّ فاقت مشكلته و زادت تعقيداً و سوءاً حتى أدت به إلى ظلمات

السجن .

لا شك أننا جميعاً مررنا في حياتنا بتجربة مماثلة لتجربة صديقنا جاك ، عندما حاولنا حلّ مشكلة اعترضت طريقنا في الحياة فانتهى بنا الحلّ إلى وضع أسوأ بكثير من الوضع الذي فرضته المشكلة علينا ، و هذا هو بالضبط جوهر سرنا الجديد (أثر الكوبرا) مع سؤاله المحوري التالي :

(هل لكل مشكلة حلّ بالفعل ، أم أن بعض الحلول تفاقم المشكلة ؟
و كيف يمكن لحلّ بالأساس أن يزيد من سوء نكباتنا ! و هو
حل ؟)

و جوابنا المبدئي الوجيز على هذا السؤال و الذي ربما سيشأئكم قليلاً يا صديقي هو :

(أجل بعض المشاكل الكبيرة = النكبات = لا حلّ لها سوى انتظار
فرج الله لأنّ حلّها سيفاقم مساوئها حتى يصل بنا إلى نقطة
الانكسار و اللاعودة كما حدث بالضبط مع صديقنا جاك .. و هذا
ما يدعى أثر الكوبرا)

فما قصة هذا المصطلح الغريب (أثر الكوبرا) ؟ و كيف نشأ ؟
أثر الكوبرا مصطلح يشير الى الفكرة التالية :

((حل مشكلة قد يفاقم من سوءها))

و قد نشأ هذا المفهوم في الهند إبان الاستعمار البريطاني في القرنين
19 و 20 .. فحينها عانى البريطانيون من زيادة أعداد أفاعي
الكوبرا في العاصمة دلهي على نحو خطير ، فقرّروا حلّ المشكلة
بأن أعلنوا مكافأة مالية لكلّ من يصيد ثعباناً من المواطنين .. بالفعل
أقدم الهنود على قتل الكثير من الأفاعي بغية اقتناص الجائزة ، بل
أكثر من ذلك أقدم السكان على تربية الأفاعي لقتلها و كسب المال

مما سبب خسائر اقتصادية كبيرة للحكومة البريطانية لذا ألغت المكافأة في النهاية ..

فماذا كانت النتيجة ؟

أصبحت الثعابين التي تم تربيتها من قبل السكان بلا قيمة لهم لذا تركوها في الطبيعة فتكاثر أكثر من الأول .. !!

و هكذا كان حلّ مشكلة انتشار الأفاعي سبباً في زيادة انتشارها بدلاً من إنقاص عددها ليصبح مصطلح أثر الكوبرا شاملاً لأي حالة مماثلة بعد ذلك ..



نبدأ من حيث انتهينا مع أثر الكوبرا بقول عميق للإمام علي بن أبي طالب :

(للنكبات غايات تنتهي إليها ، و دواؤها الصبر عليها و ترك الحيلة في إزالتها ، فإن الحيلة في إزالتها قبل انقضاء مدتها و بلوغ غايتها سبب لزيادتها)

و بالفعل بعض المشاكل الكبيرة التي تعصف بحياتنا كنكبات تكون بغاية إلهية منشودة ، و في حال حاولنا تلافيها أو حلها زاد حجم النكبة أكثر لأنّ الله ببساطة يصمّم على بلوغنا نهايتها كي نتعلم الدرس البليغ منها ، لذا من الأنسب في هذه الحالة انتظار فرج الله

لها بعد بلوغنا هذه الغايات لتتخسر تدريجياً حتى تختفي و تبقى الحكمة و العبرة منها ..

و لتوضيح هذه الفكرة الهامة أكثر سنتطرق إلى مجموعة أمثلة من الحياة أغلبها طبي من وحي توجهي المهني تدعم هذه الحقيقة و تشرحها بعمق أكثر لإيصال فكرتنا بوضوح :

المثال الأول ، الرمال المتحركة :

ففي حال سقط إنسان في رمال متحركة فالعلم يقول بأن حركته الشديدة كمحاولة لإخراج نفسه منها سيجعله يغوص فيها أكثر و بسرعة أكبر و الحل المنطقي الوحيد في هذه الحالة هو البقاء ثابتاً و هادئاً لأطول فترة ممكنة حتى يمر أحدهم بالجوار و يقدم لك يد المساعدة .. و أي حل آخر سيفاقم مشكلتك لتغوص في الرمال بسرعة أكبر !!

المثال الثاني ، انكسار المعاوضة في قصور القلب:

فعندما يتلف جزء من القلب و يخرج من الخدمة يحاول الجسم معاوضة ذلك برفع الضغط الشرياني عبر تقبيض الأوعية ، حبس السوائل و الشوارد و زيادة عمل النسيج القلبي الطبيعي ..

لكن عندما يبلغ التلف جزءاً كبيراً من القلب ، تنكسر هذه المعاوضة فيهبط الضغط الشرياني كثيراً و تتشكل الودمات في الكواحل و غيرها ، فإن حاول الطبيب رفع الضغط هنا عبر تسريب السيرومات كحلّ للمشكلة فإنه يجهد القلب أكثر و يزيد حجم و رقعة الودمات كما يدخل المريض في وذمة رئة حادة قد تودي بحياته !!

المثال الثالث ، الضائقة المادية :

فكثيراً ما يلجأ الناس لحل مشاكلهم الاقتصادية إلى الديون كي يحافظوا على مستوى المعيشة نفسه ، مما يفاقم المشكلة المالية أكثر ، في حين أن الحل المناسب لها هو الاقتصاد و تخفيض مستوى المعيشة كي يلائم ميزانيتهم حتى تتحسن ظروفهم أو يصادفوا فرص

عمل أفضل بدخل أكبر فيعودوا عندها إلى مستوى المعيشة السابق و ربما أفضل منه .. و مثال آخر مشهور عن هذه الفكرة هو حالة التضخم المالي الذي يصيب دولة ما عندما تلجأ لحلّ انهيار قيمة عملتها بطبع الكثير منها!

المثال الرابع ، الرهاب الاجتماعي :

ففي هذا الاضطراب النفسي تنتاب المريض نوب هلع عند احتكاكه بالناس من حوله فيحلّ المشكلة بالانزواء و الانعزال عن المجتمع مما يزيد حدة الرهاب و يفاقم خطورته و ربما أدى إلى انتحار

المريض من شدة يأسه ، في حين الحلّ لهذا المرض هو بالإغراق اي الانفتاح على الآخرين حتى الوصول إلى درجة التعود و انحسار الرهاب ، بالطبع رفقة العالج الدوائي و النفسي المناسب.

المثال الخامس ، صدمة النزيف :

ففي حالات النزف الشديد ينخفض الضغط الشرياني كثيراً لكنّ رفعه مباشرة بمقبضات الأوعية يزيد نقص تروية الأطراف مسبباً احتشاءها و تموتها ..

أما التدبير المناسب في هذه الحالة فهو تعويض الدم و السوائل أولاً حتى نصحح نقص الحجم قدر الإمكان ثم نستخدم مقبضات الأوعية بأمان لرفع الضغط الشرياني .

و كما نرى بوضوح من هذه الأمثلة ، فكلها مشاكل عويصة و محاولة حلها بطريقة خاطئة يفاقم من خطورتها لدرجة قد تنهي حياة الإنسان أو تدمرها على أقل تقدير ..

في حادثة شخصية جرت معي منذ سنوات ، كنت ذات صيف في قريتي ألوذ من حرّ المدينة و ضجيجها، و كان أبي قد وضع مادة لاصقة على قطعة رخام كي يمسك بفأر عاث خراباً في المنزل ، و وضع القطعة أمام المنزل ، لكن للأسف و من سوء حظ أحد

العصافير أنه أعجب بمنظر القطعة البراق من السماء فهبط و وقف عليها فالتصقت قدماه بها و عجز عن الطيران مجدداً ، و من شدة خوفه و فزعه أخذ يرفرف بجناحيه بقوة أكثر كي يخلص قدميه لكن جناحاه التصقا بدورهما على القطعة و كلما حاول تخليص نفسه أكثر زاد التصاقهما أكثر حتى عجز تماماً عن الحركة و انا أراقبه مشفقاً عليه بحزن ، و كلما حاولت مساعدته اشتد هياجه ، لكنه عندما تثبت تماماً ، استكان لوضعه الراهن و استسلم ليديّ ، فقامت بإذابة المادة اللاصقة بمشتق نفطي حتى حررته بالكامل و سمحت له بالطيران ، و لو أن العصفور استسلم لواقعه منذ علقت قدماه لأمكنني تحريره بسهولة و بسرعة ، و لو قرّ على نفسه هذا الكم من الفزع ، و لما خسر كثيراً من ريشه ..

و هنا نعود إلى فكرتنا الرئيسية ، أعمال الحيلة في النكبات يفاقم من المشكلة كأثر الكوبرا !!

في قصة مفعمة بالعبر ذات صلة بمغالطتنا حدثت بالفعل في ولاية تكساس الأمريكية عام **2020** ، التقت شابة مصادفة بفتى أحلامها ، فتعرفت عليه أكثر و أحبته و اقتنعت تماماً بأنه الشاب الذي طالما حلمت به ثم تزوجا .. لكنها أخفت عنه سرّاً بأنها لا تنجب بسبب استئصال رحمها من قبل .. و عندما لم تنجح بالحمل لمدة عام أصر زوجها عليها بأن يذهبا للمشفى لإجراء فحوص توضح سبب عدم حدوث الحمل فأدركت الشابة بأن أمرها سيكتشف و سيعرف زوجها أنها كذبت عليه و بالتالي ستخسر حبها و فتى أحلامها و يتطلقان ، طبعاً هذه تعتبر نكبة في حياتها و كان الأحرى بها أن تعترف لزوجها بالحقيقة فإما أن يقبلها كما هي عاقراً أو يطلقها و يبدأ كل منهما حياة جديدة ، لكنها قررت حل المشكلة بطريقة أخرى ، فأقنعت زوجها بالتريث لشهر آخر قبل اللجوء إلى الأطباء فوافق على مضض.. و بعد أسبوع أخبرته كذباً بأنها حامل بحسب الاختبار المنزلي ففرح بشدة.. أما هي فبدأت تحجز مواعيد وهمية في المشفى

لمراجعة طبيب النساء و تدعي أنها ذاهبة إلى مواعيدها ، و عندما تقدمت أكثر بحملها المزعوم قامت بشراء صور إيكو مزيفة تظهر جنينها المفترض و بطن صناعية من السيليكون من موقع الكتروني .. ولعبت دور الحامل تماماً كمحاولة منها للتشبث بزوجها لأطول فترة ممكنة ..

لكن موعد الولادة اقترب و كذبتها أوشكت على الانكشاف بل على نحو أكبر و أسوأ ، و هنا كانت فرصتها الثانية لحل المشكلة مجدداً بالاعتراف بكذبها و إنهاء الأمور ..

لكنها أوغلت في كذبتها أكثر و على نحوٍ أخطر بكثير، فقد تعرفت عبر مواقع التواصل الاجتماعي على سيدة حامل في نهاية حملها و أصبحتا صديقتين ، ثم أخبرتها بأنها تنوي زيارتها للتعرف عليها شخصياً ، و بالفعل قامت بالزيارة لكنها كانت تخفي حلاً أخيراً كارثياً لمشكلتها التي وقعت فيها ، فقد أقدمت على طعن السيدة الحامل حتى الموت و شقت بطنها ثم استخرجت جنينها و مضت به إلى المشفى بسرعة كي تدعي أنها ولدت في منزلها قبل أوانها .. لكن شرطة المرور أوقفنها بسبب سرعتها الزائدة و وجدت الجنين معها فشكت بأمرها و قصتها و رافقتها إلى المشفى ليتبين بأن الجنين ميت و بعد فحصها النسائي تبين أنها لم تلد كما قالت بل لم تكن حاملاً بالأساس، و بعد فترة تم اكتشاف جثة السيدة الحامل و بربط القصتين ببعضهما و إجراء اختبار DNA للجنين المتوفي تبين أنه ابن السيدة المقتولة فتم إلقاء القبض على السيدة الكاذبة و حوكت بتهمة القتل العمد ثم زجت في السجن مدى الحياة .. و هنا نجد مجدداً أنّ أعمال الشابة الحيلة في حل نكبتها المتمثلة بعجزها عن الحمل و بالتالي التهديد بخسارة زوجها فاقمت سوءها حتى انتهى بها المطاف إلى جريمة قتل خسرت معها ليس زوجها فحسب بل حريتها أيضاً بقية عمرها ، و لو أنها استكانت لقضاء الله و قدره لو فرت على نفسها كل هذا و ربما بقي زوجها معها رغم عدم قدرتها على الإنجاب ..

فكما تلاحظ جيداً يا صديقي ، أعمال الحيلة في المشاكل الكبيرة العويصة بحلول اعتباطية غير عقلانية أو مدروسة قد ينتهي بك إلى كوارث حقيقية أكبر بكثير من مشكلتك الأصلية كما حدث مع هذه الشابة (مشكلة أنها عاقر) أو صديقنا جاك في مطلع حديثنا (مشكلة خسارة ماله) حيث أدت حلولهما غير المناسبة إلى السجن و فقدان كل شيء ..

و كخلاصة أخيرة إن واجهتك نكبة ما في حياتك ، فاعتمد البروتوكول البسيط التالي لتجاوزها بأقل الخسائر الممكنة :

① شخّص سبب مشكلتك بدقة، و لا تتسرع بالحل ، فالتشخيص الصحيح أول خطوة و أهم خطوة لحل المشاكل.

② فكّر بهدوء بحلّ سليم لا يفاقم خطورة المأزق ..

③ في حال فشلت حلولك المنطقية الآمنة استكن لواقعك و استسلم ليد الله الرحيم الذي كما ابتلاك بالنكبة سيعينك على الخروج منها بعد تحقيق الغاية النبيلة و العبرة الملهمة منها و التزم الدعاء ، فلا شيء يدوم ، لا فرح و لا ترح كما قال الإمام علي مجدداً :

دع المقادير تجري في أعنتها

و نم نوماً قريراً هانئ البال

فما بين غفلة عين و انتباهتها

يغيّر الله من حالٍ إلى حالٍ

ببساطة اعتبر مشاكلك كالأشخاص من حولك ، قد لا تتفق معهم أبداً ، لكن عليك التعايش معهم و قبولهم ، فوجودهم بحياتك ليس عبثياً ، بل وضعهم الله في طريقك لحكمة يعلمها و متى بلغت هذه الغاية سينسحب هؤلاء الأشخاص من حياتك ..

و لم أجد جملة بسيطة لكن عميقة تصف هذه الفكرة بإبداع أكثر من مقولة الفيلسوف الهندي أوشو :

(تقبل مشكلتك كهدية من الله)

فكلّ عقبة تعترض طريقنا تحمل هدية من الله في طياتها على هيئة درس بليغ أو نجاة من مشاكل أكبر ..

من أكبر العبر الإلهية في خلق الكون المبدع هو توالي الليل و النهار
و كأنّ الخالق يقول لنا :

(الحياة دورات متتالية من يسر و عسر .. شدة و رخاء .. نكبات
و انفراجات ..)

فاصطبر يا صديق الحرف على مشاكلك و عسرك كما قال تعالى :

(و اصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)

فهل من كلام مريح و مفائل أكثر من ذلك ، أنت بحماية الخالق النبيل
و تحت ظل رحمته و في عيونه التي لا تنام و لا تغفل عنك .. فكما
ابتلاك بالمصيبة لحكمة في نفسه سيعينك بفرجه في الوقت المناسب
لتشرق الشمس من جديد بعد الغيوم و المطر .. و تذكر أنّ أشدّ
لحظات الليل حلوة هي التي تسبق بزوغ الفجر مباشرة ، و في نهاية
كل نفق مظلم ضوء يشير إلى مخرجه مهما بلغ طوله و اشتدت
عتمته .. فاصطبر على عتمة ليلك و نفقك (نكباتك) و تيقن بأن
فرج الله ينتظرك على بعد خطوات من ذروة العتمة ، كما قال الإمام
الشافعي :

و لربّ نازلةٍ يضيق لها الفتى

ذرعاً و عند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها

فرجت و كنت أظنها لا تفرج

الشيطان هو أنت

= ها قد وصلنا إلى لوحة جديدة في جولتنا السياحية على لوحات متحف اللوفر في قلب باريس ..

= أظن أنها لوحة (كش مات) أيها المرشد !



= أصبت .. و هذه اللوحة هي لفنان ألماني من القرن 18 يدعى فريديريك ريتز ، و قد صور فيها كما ترون بأنفسكم لاعبي شطرنج ، الأول هو الشيطان الذي يبدو مفعماً بالثقة و الغرور من الفوز ، بسبب سيطرته على الرقعة، و اللاعب الثاني هو إنسان تبدو عليه علامات اليأس، لأنّ الشيطان الذي يبدو منتصراً في اللوحة سوف يربح روح ذلك الرجل و يسيطر عليها في حال هزيمته.. و بين اللاعبين يقف ملاك يراقب المعركة على الرقعة بصمت .. و يمكن وصف اللوحة باختصار بأنها انتصار الشيطان بدهائه على الإنسان .. لننقل إلى اللوحة التالية ..

مضت المجموعة السياحية في زيارتها بقيادة المرشد ، لكن أحد

أفرادها و هو بطل عالمي متمرس في لعبة الشطرنج ، لم يتحرك معهم وبقي يتأمل لوحة (كش مات) بدقة و عمق، فنادى عليه المرشد ..

= هيا سيدي ، سيفوتك شرح اللوحة القادمة ..

= من فضلك حضرة المرشد ، هلا عدت قليلاً إلى لوحة كش مات



تفاجأ المرشد من هذا الطلب الغريب لكنه عاد على مضض ..

= ماذا هنالك سيدي ؟

= حضرة المرشد ، يجب إما تغيير اسم هذه اللوحة أو إزالتها من المتحف، أنا كلاعب شطرنج محترف أرى أن ملاك الإنسان لا يزال أمامه فرصة للمناورة، إذ يمكن تحريكه بهذه الطريقة وبعدها سوف يربح الإنسان ويخسر الشيطان .. إن عنوان هذه اللوحة يروج لفلسفة خاطئة في الحياة بأنه لا أمل للإنسان في معركته مع الشيطان و عليه إعلان الاستسلام على خلاف الواقع ، فالإنسان المؤمن بالله واثق بنفسه و سيتمكن من هزيمة الشيطان لا محالة بعون من الله و الملاك المراقب للعبة .

هزّ المرشد رأسه بدهشة و قال ..

= مذهل و معبر للغاية !!

الشیطان .. العدو الأول للإنسان عبر الزمن ..

كثيراً ما تم تصويره كمخلوق حي يهمس في أذنك بالخطيئة أو يوسوس في صدرك بالفسوق .. لتتحدى حياتك إن أنت أذعنت له إلى الهاوية السحيقة ..

فهل الشيطان موجود فعلاً ككائن يتربص بمليارات البشر ؟ و كيف يمكنه فعل ذلك بنفس اللحظة بين الجميع ؟! أم أن هذا التصور عن الشيطان هو محض مغالطة يوسوس بها شيطان المغالطات في عقولنا ليبعدنا عن بلوغ الحقيقة المجردة الملاك ؟!

هذا ما سنحاول معرفته خلال الصفحات التالية ، عبر مقاربة السرّ الجديد من اسرار الحياة ، من 4 زوايا هامة للغاية :

- الشيطان في التراث ..

- عبدة الشيطان ..

- الشيطان فكرة لا شخص ..

- كيف تهزم شيطانك ؟ ..

و أياً كان الشيطان ، تعوذ منه يا صديق الفكر و هيا بنا نحلل الموضوع بتفصيل أكثر بسم الله الرحمن الرحيم ..

الشیطان في التراث :

إنّ أغلب الديانات الأرضية و جميع الديانات السماوية وصفت حياة البشر كصراع بين الخير و الشر ، فيرمز للخير عادةً بالإله ، أما الشرّ فيرمز له بعدة طرق حسب الحضارة السائدة ، فهو :

● إله أيضاً كحال الإله أهرمان في الديانة الزرادشتية الذي يواجه إله الخير أهورا مزدا ، و الإله ست عند الفراعنة ...

● مخلوق تمرد على الإله الخالق و وعده بإغواء خلقه عن عبادته كحال إبليس عند المسلمين و الشرير عند المسيحيين و الشيطان عند اليهود ..

● النفس الأمارة بالسوء التي تغري الإنسان كي يعصي الآلهة فيستحق عقابها كما هو الحال عند الإغريق مثلاً ..

و أسماء الشيطان تتنوع بتنوع الحضارات فهو إبليس ، الشرير ، لوسيفر ، عزازيل ، بافوميت ، بعل زبول ، مفستو فيلس ، ساتان ، عفريت الجنّ و غيرها ..



و الشيطان أياً كان اسمه أو تكوينه من إله أو مخلوق أو فكرة فقد أثبت قوته عبر الزمن و كثيراً ما يكسب معركته مع البشر .. لماذا ؟
لعدة أسباب لعلّ أهمها :

✽ خياراته أكثر من خيارات الإنسان ، فللخطأ أوجه لا نهائية أما الصواب فله وجه وحيد ..

✽ لا يوجد رادع أخلاقي أو خطوط حمراء تحدد حركاته ..

✽ إتقانه للعبة الضياع بين (الماضي) بذكرياته الأليمة و خسائره و فشله ، و (المستقبل) المبهم المخيف غير المضمون .. فينطحن الإنسان ضعيف الإيمان بين مطرقة الوقوف على الأطلال و التأسف على ماضٍ لن يعود و بين سندان القلق من مستقبل مجهول قد يعيد إحياء الماضي بكوارثه مجدداً ، فيغفل الإنسان عن أهم ثروة يملكها في حياته أي (الحاضر) ماضي الغد و محدد هيئة المستقبل الآتي ، فيعتكف عن العمل و الإنجاز و يستسلم لواقعه الكئيب دون ردة فعل ،

✽ يعزف بحرفية على أوتار الغرائز و الحاجة و الطموح وهذا هو مثلث برمودا الذي يختفي فيه ضمير الإنسان دون أثر ..

✽ أتباعه هم الأكثر في كل زمان و مكان بسبب المغريات التي يقدمها ، مما يجعل طريق الحق و الصواب الوعر بالأساس شحياً برواده مما يصعب عليهم المعركة أكثر ..

عبدة الشيطان :

بسبب الأسباب الصريحة و القوية السابقة و كثير غيرها نجد للشيطان أتباعاً بالملايين عبر صفحات التاريخ ، بل وصلت الحالة ببعضهم إلى عبادته و تقديسه دوناً عن الله خالقهم ، حتى أنهم يمارسون طقوساً خاصة بهم و يروجون لرموز و قرائن شيطانية مميزة من قبيل :

● النجمة الخماسية المقلوبة

● رأس الكبش

● رقم 666

● الصليب المقلوب

● رفع السبابة و الخنصر مع ثني بقية الأصابع

● الوشوم المتعددة و الموسيقى الصاخبة

وغيرها ..

بل أكثر من ذلك ، فقد قام الكاهن و المشعوذ الأمريكي اليهودي أنطون لافي الملقب (ابن الشيطان البار) هناك في بلاد العام صاموئيل و يلسون (سام) أو أمريكا بالترويج لعبادة الشيطان بشكل علني و رسمي بل أسس له كنيسة حملت اسمه (كنيسة الشيطان) في مدينة سان فرانسيسكو لتقام فيها طقوس عبادة الشيطان على نحو جريء فاضح و قانوني دون رقيب أو حسيب .

كما أصدر لافي كتابه (الإنجيل الأسود) الذي جاء في نصه في الفصل الثامن:

(اقتلوا الأجنة في بطون أمهاتهم، واشربوا دم الصغار، واصنعوا منه حساءً، واخبزوا في الأفران لحومهم، واصنعوا من عظامهم أدوات للتعذيب)

فمبادئ عبدة الشيطان بحسب التسريبات و التصريحات كثيرة و على رأسها الثلاث الأسود المقدس :

① تحقيق شهوات النفس المتنوعة و رغباتها دون قيود حتى لو اضطرهم ذلك للقتل أو القيام بممارسات جنسية جماعية ، بل حتى مع المحارم ليكونوا أقرب للشيطان ..

② تقديم القرابين للشيطان و يفضل أن تكون من الأطفال .. و التشجيع على الإجهاض و الانتحار..

③ الانتقام، و تدمير كل من يحاول مضايقتهم بلا أدنى هوادة أو رحمة و بأبشع الوسائل و الطرق ..

و قد نالت منظمتهم شعبية لا بأس بها بسبب استقطابها للمختلفين

في المجتمع الذين تم رفضهم أو التضييق عليهم من قبل العامة ، كالأقليات و المختلفين جنسياً و الأعراق الأخرى غير العرق الأبيض كالهنود الحمر أو الأفارقة أو الضعفاء الذين يتعرضون للتنمر و غيرهم .

و للأسف فإن كل هؤلاء يلجؤون من الظلم و أذى الآخرين لهم إلى الفسوق و هو أذى أكبر لهم و بأيديهم في مفارقة غريبة و مؤلمة .. فالطريقة الأصح كي يقوي الإنسان روحه أن يلجأ إلى الله و السماء فهو المعين الوحيد من نكبات الدهر الذي لن يخذلك أبداً ..

و يحاول عبدة الشيطان الترويج لأنفسهم كجماعة لطيفة تبحث عن العدل و نصره المظلومين ، لكن ما يتسرب من مبادئهم و طقوسهم للآخرين يفترض عكس ذلك تماماً ..

الشيطان فكرة لا شخص :

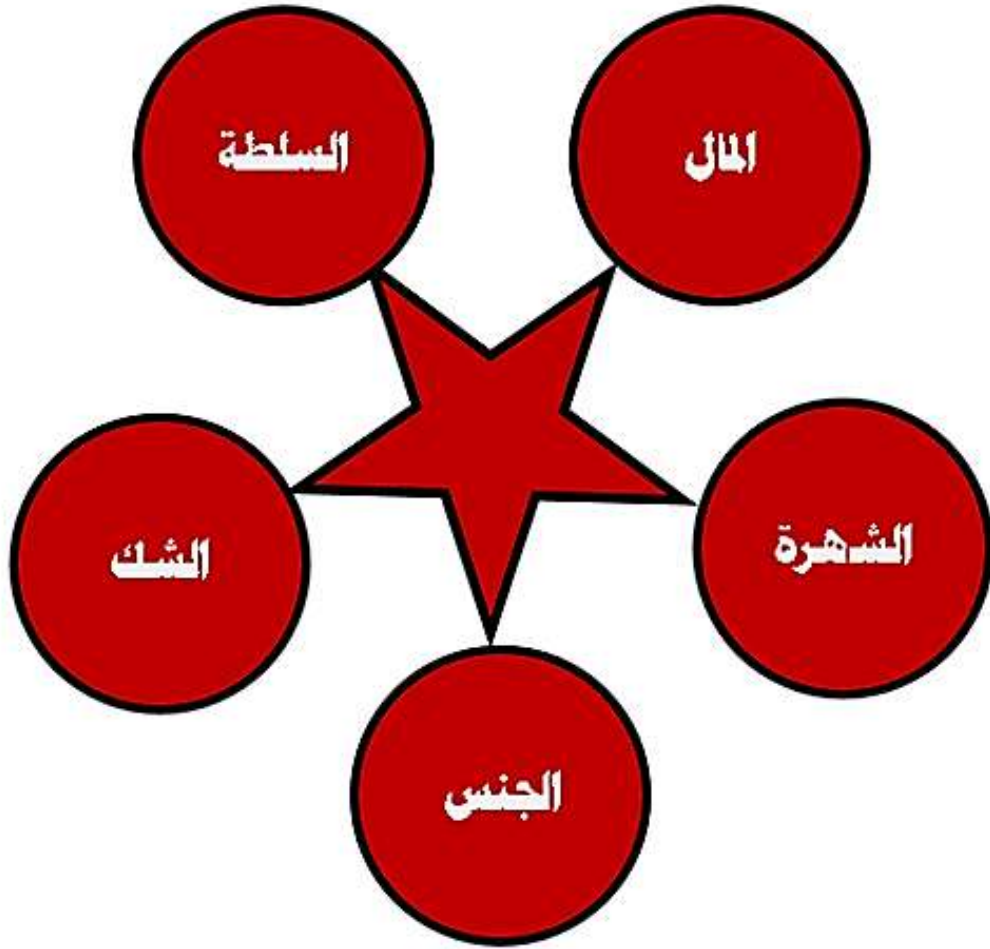
كي نفهم طبيعة الشيطان ، علينا أولاً أن نفهم طبيعة الإنسان .. فالإنسان يأتي إلى هذه الحياة صفحة بيضاء طاهرة كالثلج و هذا ما نعوه براءة الأطفال ، لكن ما أن يشب هذا الطفل قليلاً و يتعرف على إغواءات الدنيا و متعها حتى يتنازل عن براءته و يرثه الأخلاقي النظيف و ينغمس في الملذات بأشكالها المختلفة ..

هل يذكرك هذا بشيء عزيزي القارئ ؟

بالضبط .. بوصف إبليس في الإسلام ، فقد كان ملاكاً من ملائكة الله يعبده ، ثم تمرد عليه و أسس امبراطورية من الفسوق خاصة به لإغواء البشر ..

بمعنى آخر .. الشيطان ليس بالضرورة شخص آخر يوسوس للإنسان .. بل الشيطان يكمن داخل الإنسان بالأساس ، و يعيد كل إنسان قصة حياة إبليس في حياته نفسها بالتحول من الطفل الملاك إلى الشاب الشيطان ، قبل أن يهديه الله إلى صراطه المستقيم مجدداً فيستعيد

طهارة الطفولة ، و قد سبق و ناقشنا هذه الفكرة بتفصيل أكثر في مغالطة (خوارزمية الله) ، فالشيطان بالأساس فكرة قبل أن يكون جسد أو غيره .. و هذه الفكرة يمكن تجسيدها بشعار عبدة الشيطان (النجمة الخماسية المقلوبة) ، إذ يجسد كل رأس فيها ركن من أركان سيطرة الشيطان على الإنسان :



① الغريزة : و هو الركن الأخطر و الأكثر سيطرة على الإنسان ، فالإنسان الذي لا يتحكم بغرائزه و يوجهها بعقله ينحدر إلى قاع الأخلاق الرديئة ، فعندما تتحكم الغريزة بالعقل و ليس العكس ستنتفتح أمام المرء أبواب الجحيم حرفياً .. و كي يقاوم الإنسان شيطانه هنا ، عليه تغليب العقل على الغريزة كي يسيرها وفق أصول معينة لا تضره أو تضر الآخرين و هذا ما يسمى **جهاد النفس** ، و هو أصعب أنواع الجهاد ..

② **المال :** المال بالطبع ضرورة لا غنى عنها للبقاء على قيد الحياة أولاً ثم لتحقيق حياة كريمة ثانياً و ربما لتحقيق حياة رغيدة ثالثاً .. لكن أن يتحول حب الثراء السريع إلى هاجس عند الإنسان فذلك ينذر بأسوأ العواقب ، لأن الطريق لتحقيقه غالباً ستكون مليئة بمطبات الفساد و الغش و الاختلاس و السرقة و ربما الجريمة .. و هنا الإنسان يقاوم شيطانه بالرضا بما رزقه الله و محاولة تحسين وضعه الاقتصادي بالطرق المشروعة .. فالحلال البطيء سيبقى بلا شك أحسن عاقبة من الحرام السريع ..

③ **الشهرة :** هوس الشهرة قد يصل بالبعض إلى ارتكاب كل أنواع المعاصي لتحقيقها .. رغم أن الشهرة بالأساس سراب بل مصيدة حقيقية كما فصلنا في مغالطة الشهرة من قبل .. لذا على الإنسان أن يسعى إلى الشهرة الإيجابية بالعمل الصالح المفيد للبشرية ، لا الشهرة السلبية بالتهريج و إيذاء الذات و تحطيم الآخرين و غيره ، و هنا الإنسان يقاوم شيطانه بالتركيز على العمل الإيجابي الذي يطور و يطور الآخرين ، و في الواقع الشهرة الإيجابية هي التي تقصد الإنسان الناجح و ليس العكس لذا ستأتيه الشهرة من حيث لا يحتسب ..

④ **السلطة :** هوس المجد و الجاه و التحكم بمصير العباد حلم راود آلاف الطغاة عبر التاريخ ، و في سبيل تحقيقه حدثت مجازر و خيانات و انقلابات و طغيان ، فأن تقنع الملايين باتباع كلامك ليس أمر هين ، بل ينبغي أن يكون كلامك موزوناً و فيه مصلحة المجتمع و بعيد عن المكاسب الشخصية .. و هذا ما يتعارض مع أحلام السلطة و هوس التحكم بالآخرين ، لذا لن ينصاع الشعب لك ، و بالتالي ستلجأ للعنف و غيره لفرض سيادتك و كلمتك عليه .. و هنا الإنسان يقاوم شيطانه بالوعي أن المناصب تكليف لا تشريف .. أي أن ينبغي من بحثه عن السلطة إحقاق العدل و تأمين

الحريات و الحياة الكريمة للشعب لا استعباده و استغلاله ..

⑤ الشك : عندما ينخر سوس الشك بوجود الله و الحياة بعد الموت في روح الإنسان ، يفقد كل خصاله البشرية الحميدة ليتحول إلى وحش ناطق لا يردعه رادع عن تحقيق كل ما سبق .. و هنا الإنسان يقاوم شيطانه بأن يؤمن يقيناً أن الله حق و أن حياته على هذا الكوكب رحلة وجيزة ستنتهي قريباً و العاقبة في الآخرة حيث الحياة الأبدية .. فيزهد بدنيا قصيرة الأمد في سبيل آخرة للأبد .. لذا فالإيمان بوجود الله و بجنانه بعد الموت يعتبر نقطة الانطلاق و حجر الزاوية في هزيمة الإنسان لشيطانه المتغلغل في دماغه فيكتم صوته ويشل تأثيره عليه كلياً ..

لا تتوقع عزيزي القارئ أن يتجسد الشيطان أمامك كمخلوق يحاول زعزعة إيمانك و دفعك إلى الخطيئة ، فالشيطان فكرة قبل كل شيء .. فكرة من خمس أركان كما شرحنا و الشيطان يجلس في مركز هذه النجمة و يراقب عن كثب كيف يعيش الإنسان في حياته الصراعات الكبيرة مع الغريزة و المال و السلطة و الشهرة و الشك

يقول بولس الرسول:

(البسوا سلاح الله الكامل كي تقدرُوا أن تثبتُوا ضد مكائد إبليس فإن معركتنا ليست مع شيطان من لحم و دم ، بل هي مع الرؤساء ، و السلاطين ، و ولاية العالم التابعين له على ظلمة هذا الدهر)

و يقول الإمام علي بن أبي طالب :

(و اتخذُوا الشيطان لأمرهم ملاكاً ، و اتخذهم له أشراكاً ، فباض و فرّخ في صدورهم ، و درج في حجورهم ، فنظر بأعينهم و نطق بألسنتهم)

و خلاصة هاتين المقولتين أن الشيطان ليس مخلوقاً مجسداً بذاته بل

هو فكرة أنّ الإنسان عندما يهزم في معركته مع واحد أو أكثر من الخماسي السابق فإنه سيتحول بذاته إلى شيطان حقيقي يغوي الآخرين و يفسد في الأرض .. فالشيطان مخلوق وحيد و البشر بالمليارات ، فكيف سيتمكن من الوسوسة لهم جميعاً في نفس الوقت ، ما يحدث على أرض الواقع أن كل إنسان من هذه المليارات يتصارع يومياً مع خمس (الغريزة و المال و السلطة و الشهرة و الشك) الذي هو الشيطان الحقيقي فإما أن ينتصر المرء و يعيش كملاك حقيقي أو يهزم و يتحول إلى شيطان بنفسه !!

في ليلة القبض على السيد المسيح قبيل صلبه كما تقول الروايات المسيحية تجسد أمامه الشيطان على هيئة أفعى و أخذت تغويه كي يستسلم و يتراجع عن إكمال ما تبقى من رسالته فينقلب على خالقه ، عبر إخافته من عذابات الضرب و الصلب ، و توهين عزيمته بأن أحد تلامذته خانه و البقية سيتخلون عنه ، و كأن كل حياته كانت عبثاً و فشل في رسالته و مسعاه .. فالله بذلك تخلى عنه فلماذا يتعلق به ؟.. لكنّ المسيح قاوم كل ذلك و تجاهل كلام الشيطان بصلافة و شجاعة فداس رأس الأفعى و سحقه .. فما الذي حدث بالفعل ؟

المسيح تعرض لأحد أركان الخمس الشيطاني و هو **الشك** ، لكنه تغلب عليه و مضى برسالته إلى النهاية

كيف تهزم شيطانك ؟

إن أردنا توصيف أقوى سلاح للشيطان في معركته مع الإنسان فلن نجد أنسب من كلمة واحدة (استسلم) ..

استسلم لفقرك فاسرق .. استسلم لكسلك فغش ، استسلم لفشلك فلا تحاول ، استسلم لضعفك فلا تقاوم ، استسلم لغريزتك فاتبعها ... استسلم على طريق الصواب الوعر فاتخذ الطريق المختصر بالخطأ و الخطيئة كي تبلغ أهدافك و رغباتك بأقل جهد ممكن ..

بالمقابل فإن أقوى سلاح للإنسان في مواجهة شيطانه هو : (حاول ، قاوم و استمر) .. و تذكر أن هزيمتك لا تكون من خارجك أبداً بل تبدأ من أعماقك أولاً ، فكل إغواءات البشر و الظروف القاهرة من حولك تبدأ من كلمة واحدة (موافق) فإن أنت لم تنطقها ، عجزت جميع الأساليب الشيطانية الممكنة عن جرك إلى الخطيئة ..

و تذكر أن الإنسان الناجح الصامد يجد حلاً لكل مشكلة ، أما الإنسان الخنوع المستسلم فيجد مشكلة في كل حل ، أما حلول الله فلا تنتهي و تحيط بنا من كل حذب و صوب كأسلحة يزودنا بها في وجه دعوات شياطيننا للاستسلام لظروفنا القاهرة و مشاكلنا العويصة ليقول البارئ لنا :

(لا تستسلموا فالله معكم ، و من جعل نفسه في خدمة الله جعل الله كل شيء في خدمته)

كما قال تعالى في الذكر الحكيم :

(لا تيأسوا من روح الله)

بل ذهب القرآن بعيداً في ذلك فنجد الآية الأخرى :

(إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)

و لنا في حكاية لوحة كش مات في مقدمة مغالطتنا عبرة في ذلك.

فلا تيأس عزيزي القارئ مهما اشتدت بك الخطوب و أوصدت في وجهك أبواب الأرض ، فللسماء أبواب لا تغلق تنزل منها الحلول و المساعدات و حتى المعجزات في اللحظة المناسبة دوماً ، فالله يختبر إيمانك و شجاعتك بالآخرين و بالظروف الصعبة ، و متى أثبت له وفاءك و ولاءك سخر الكون برمته لنصرتك و تحقيق أهدافك و إخراجك من بئر المكائد ، الفشل و الحاجة كي يدفع بملاكك إلى المعركة و يقول لشيطانك :

(كش مات)

بنقلة مفاجئة عبقرية لم تتوقعها و لم يتوقعها .. و لنا في رسول الله أسوة حسنة في معاركه الدفاعية ، فقد كانت الهزيمة آتية لا محالة بانتصار أعدائه عليه بالعدد و العدة و كل شيء مادي آخر ، فتدخل الله بقواته ليقول :

(فأنزل الله سكينته عليه و أيده بجنودٍ لم تروها)

فإن كان خالق كل شيء معك عندما تتبع طريق المنطق و الصواب فأني مخلوق سيهزمك بالخدعة أو الحيلة أو الإغواء التي لا ترحزح الصواب قيد أنملة !؟

في ختام سرنا الجديد ربما من الأنسب ألا نقول :

= الشيطان يوسوس في رأسي كي أفعل كذا و كذا ..

بل أن نقول :

= الشيطان فكرة بالأساس .. و من يوسوس في رأسك هو صراعك الشخصي مع خمس الشيطان (الجنس و المال و السلطة و الشهرة و الشك) ..

و ألا نقول :

= لقد أعلنت الاستسلام ، كيف أواجه عدواً بلا مبدأ أو رادع أو خطوط حمراء .. فالصواب يتيم و للخطأ ملايين الآباء ..

بل أن نقول :

= المعادلة في هذه الحياة بسيطة للغاية تقوم على ساقين لتضع ساقاً على ساق كملك متوج لا يقهر :

✽ الصواب ثابت لا يتغير ، و لا أحد قادر على لي ذراع قوانين الدنيا ، و لو قال مليار شخص أن $4 + 3 = 6$ سيبقى الجواب هو

7 و لو اتبعه شخص وحيد أو حتى لو لم يتبعه أي إنسان ، فقد أتى بشر و رحلوا و أتى غيرهم و رحلوا و هكذا ، في حين بقيت القوانين راسخة لا ترحل، فهل من قوة أكبر من ذلك ؟!

✽ **المخلوق لا يمكن له أن يهزم خالقه** مهما فعل على نحوٍ بديهي .. فالخالق يعرف كل شيء عن مخلوقاته بأدق التفاصيل و مكامن القوة و مواطن الضعف فيها ، أما المخلوق فيجهل كل شيء عن خالقه إلا بما كشفه بنفسه عن نفسه من كونه عادل ، جبار ، لا محدود القدرة .. فكيف لنا أن نتخلى عن هذا الخالق النبيل القوي لننتبع مخلوقاً وضيعاً محتالاً كشیطان يوسوس في صدورنا و يغوينا كي ندمر أنفسنا بأنفسنا سواء أكان كائناً حقيقياً أم مجرد فكرة تعيش في كل إنسان ..

كان اللواء إيميليو مولا القائد العام لجيش الشمال إبان الحرب الأهلية الإسبانية ، و أثناء مؤتمر صحفي مع صحفيين أجانب، سئل اللواء أي الطوابير الأربعة التي يتكوّن منها جيشه سيفتح مدريد ؟ عندئذ رد اللواء مولا قائلاً أنّ هذه ستكون مهمة الطابور الخامس ، في إشارة ضمنية إلى الجماعات الفرانكية الموالية للملكية التي كانت تعمل في الخفاء داخل مدريد أي أنه كما الشيطان راهن على سقوط عدوه من داخله و ليس على قوته الخارجية على كبرها !!

و علينا جميعاً تمنيع أنفسنا من الداخل و القضاء على الطابور الخامس في ذواتنا أولاً و قبل كل شيء لنلتفت بعدها إلى قوى الأعداء من حولنا فنحن كفلاء بأنفسنا و الله كفيل بهم ، و هذا ما وعد الله عباده الصالحين ، كما يقول البارئ في الذكر الحكيم :

(إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان)

فالشیطان سيحاول التسلل إلى حياتك كحصان طروادة ، و عليك ببساطة ألا تسمح له بذلك بأن تحصن نفسك من إغواءات خمس

الشيطان ..

الخوف الفطري

بينما كان الصديقان جالسين في المقهى يحتسيان فنجان قهوة ،
مرت سيارة شرطة بصوتها المميز بالجوار ، فلاحظ أحدهما على
الآخر أنه بدأ يتعرق و تسارعت أنفاسه بشكل فاضح ، فقال له
بدهشة..

= ما الذي أصابك يا صديقي .. ؟ يبدو مظهرك و كأنك أنت المجرم
المطلوب الذي تلاحقه الشرطة !!!

هدأ الصديق قليلاً ثم رد بالقول :

= إنها حالة انعكاسية تصيبني عند سماع صوت سيارة الشرطة ..

= و لماذا ؟

= حالة ذات صلة بحادثة تعرضت لها في طفولتي ، ربما يمكنك
كطبيب أن تساعدني بفهمها و علاجها ..

= لا بأس .. و ما هي تلك الحادثة بالضبط ؟

= عندما كنت بعمر التاسعة .. حدث أن كانت الشرطة تلاحق مجرماً
في حيننا ، فاخترأ المجرم في حديقة منزلنا بينما كنت ألعب هناك و
كان بيده مسدس وجهه إليّ و هددني ألا أصرخ بينما كانت أصوات
سيارات الشرطة تقترب ، مما أثار في قلبي عاصفة من الرعب ، و
منذ تلك الحادثة و أنا أفقد اتزانني عند سماعي لصوت سيارات
الشرطة ..

= إذن فالموضوع واضح و مفهوم .. ما أصابك هو منعكس شرطي
كفوبيا ، أي أنك خفت ذات يوم من المجرم أثناء سماعك لصوت
السيارات ، ثم بدأت تخاف من صوتها حتى بدون وجود مجرم ..

= معقول !؟ هل يمكن حدوث ذلك بالفعل ؟

= بالطبع ممكن ، لاسيما عندما يكون العامل المفزع قوياً كفاية ، هل سمعت من قبل بتجربة ألبرت الصغير ؟

= لا ..

= إنها من أغرب تجارب المنعكس الشرطي في التاريخ ، و أخطرها أيضاً ..

= أثرت فضولي .. ما مضمونها ؟!

= أجريت التجربة عام **1920** على طفل يدعى ألبرت يبلغ من العمر عاماً واحداً فقط ، حيث وضع بجواره فأر أبيض فلم يرتكس ألبرت له أبداً .. ثم بدأ الباحثون بالطرق بقضيب معدني في كل مرة يوضع الفأر مع الطفل ، فبدأ يشعر بالخوف و يبكي .. لاحقاً أصبح ألبرت يخاف و يبكي عند ظهور الفأر حتى بغياب الطرق .. أي ببساطة تولد لديه منعكس شرطي سبب له فوبيا من الفئران غير المؤذية أو المخيفة بالأساس ، أي أنه ولد لا يخاف من الفئران لكن حادثة معينة جعلته يربط الفئران بمصدر مزعج مخيف ثم اقترنت لديه رؤية الفئران بذلك الإزعاج ..



= أي كما حدث معي بالضبط !!

= تماماً ..

= و ما الذي حدث بعدها ؟

= أوقفت التجربة بسبب درجة الفوبيا الشديدة التي بلغها ألبرت ،
لاحقاً و بعد عقود أراد الباحثون أن يلتقوا بألبرت ليعرفوا إلى أين
آلت أموره ؟

= و ماذا وجدوا ؟

= تبين لهم أن ألبرت توفي في سن السادسة بسبب استسقاء الدماغ ،
بعد أن عاش سنواته القليلة هذه في حالة رعب حقيقي من الفئران ..
مما أثار سؤالاً هاماً للغاية : هل كان لتلك التجربة دور في موت
ألبرت ؟

= مرعب !!

= بلى ، لذا يعتبر كثيرون أنّ هذه التجربة كانت غير أخلاقية و غير
إنسانية ..

ابتسم الصديق بقلق ..

= و ما الحل في حالتي الراهنة يا صديقي ، بدأت أخاف من الموت
بسببها ؟

= أفضل طريقة لعلاج الفوبيا هي (الإغراق) ..

= و ما الذي يعنيه ذلك ؟

= تعال لأحدثك أكثر عن الخوف و عن طريقة التخلص منه و
علاجه ..

الخوف.. ذاك الزائر الثقيل الذي لا يطرق الأبواب، بل يقتحم حصون الروح لينتزع منا سكينة الأيام وأمان اللحظة. إنه الشعور السلبي الذي يصب في عروق حياتنا قلقاً مفرطاً، فيحول رتبة الاستقرار إلى اضطراب يعصف بالتوازن، حتى تدبل بهجة الأشياء من حولنا، وتفقد الحياة عطرها المعهود.

لكن، هل الخوف قدرٌ مغلول في أعناقنا منذ الصرخة الأولى، وجزء لا يتجزأ من شيفرتنا الجينية وفزيولوجيا أجسادنا؟ أم أنه محض وهم عابر استوطن الصدور، ودرس تعلمناه في مدرسة الأيام، وليس فطرةً وُلدنا بها؟ ولعل في العبارة الأيقونية ذائعة الصيت فصلاً للخطاب: «الحب هو ما وُلدنا به، أما الخوف فنحن من نتولى تعلمه».

في رحلتنا القادمة، سنحاول فكّ شفرة هذا الغامض، مقتحمين أسواره من أربع زوايا جوهرية تعيد ترتيب رؤيتك للوجود:

تشريح الخوف في مختبر العلم : لنبصر كيف يقرأ العقل لغة التهديد. عتمة الخوف وظلاله : لنرصد كيف ينهش في جسد سعادتنا.

الجانب المضيء في قلب الرهبة : هل للخوف وجه يحمينا ويذود عن كينونتنا؟

ميثاق العبور (بروتوكول التعامل) : خارطة طريق لمن أراد كسر القيود.

فإن كنت يا صديقي ترزح تحت وطأة "فوبيا" تسرق منك توازنك - سواء أكانت من الحشرات أو المرتفعات الشاهقة أو غيرها - فإن هذا "السرّ الجديد" قد صيغ خصيصاً لأجلك. لعلّه يكون القبس الذي ينير لك عتمة النفق، ويستأصل ذاك السرطان الذي يقتات على هدوء حياتك، لتشرع في المضي قدماً بقلب لا يرى في الخوف إلا سحابة عابرة في سماء واسعة.

تحليل الخوف علمياً :

علمياً الخوف هو تغيرات فيزيولوجية تطرأ على الجسد البشري عند تعرضه لمنبه معين يفترض الدماغ أنه سيسبب أذى جسدي لنا .. و هذه التغيرات تحرضها هرمونات تدعى **هرمونات الشدة** و أهمها الأدرينالين و الكورتيزول فتسبب مجموعة تظاهرات تشمل :

- تنبه تام ..
- قلق ..
- خفقان قلب ..
- تسارع تنفس ..
- انتصاب الشعر ..
- جفاف الفم ..
- تعرق غزير ..
- توتر العضلات ..

أي أن هذه الهرمونات تعد الجسد البشري لمواجهة عامل الخطر المحقق به ، فيرتكس بعدها بإحدى **3 طرق** :

✳ **يتجمد مكانه** .. و هذه آلية تتبعها الحيوانات التي تعتمد على التمويه و التخفي أمام مفترسيها ..

✳ **يهرب** .. إن كانت الكفة ليست لمصلحته ..

✳ **يقاقل** .. إن كان هو الأقوى أو لم يكن هنالك مجال للهروب ..

و بالمحصلة الخوف هو ارتكاس بشري طبيعي و حميد يخبرنا الدماغ من خلاله بوجود خطر محتمل قد يصيبنا ، و لكن هنالك حالات شاذة من الخوف يكون سببها هو منعكس شرطي قديم لا سيما في الطفولة قام بربط عامل غير مؤذٍ بعامل آخر مؤذٍ للغاية ، كما

في تجربة ألبرت الصغير السابقة ، أو كالفتاة التي تخاف من النحل بشكل مرضي ، لأن نحلة لسعتها في طفولتها فسببت لها صدمة تأقية كادت تؤدي بحياتها .. و هذا الخوف المرضي غير الطبيعي يدعى (الفوبيا) و التي تأخذ أشكالاً مختلفة ، كالخوف من الحشرات أو المرتفعات أو الأماكن المغلقة أو حتى الناس الآخرين و غيرها من المخاوف .. بمعنى أن الفوبيا هي خوف من شيء غير مخيف بسبب اقترانه ذات مرة بشيء مخيف بالفعل ..

سلبيات الخوف :

للخوف سلبيات كثيرة عندما يكون مرضياً كفوبيا أو مستمراً دون توقف كما في حالات الحروب أو الاعتقال أو الملاحقة ، و أهمها :

✧ **تأثيرات جسدية خطيرة** بسبب هرمون الكورتيزول السام الذي يؤثر سلباً على مختلف أجهزة الجسم فيسبب مثلاً داء السكري أو ارتفاع التوتر الشرياني أو تخلخل العظام أو البدانة أو نقص المناعة و غيرها ..

✧ **تأثيرات نفسية خطيرة** جراء القلق المزمن و فقدان الأمان .. و بالمحصلة قد ينتهي الخوف المرضي إلى الاكتئاب الشديد و حتى الانتحار بعد يأس الإنسان من حياته الراهنة .

✧ **فقدان المتعة و البهجة في الحياة** و تحول الحياة إلى حالة من الشلل التام و كأنك في الجحيم ..

✧ **تدهور الحياة الوظيفية و ربما الرشد ..**

✧ **تدهور الحياة الاجتماعية و ربما الانعزال و الوحدة و عواقب ذلك الكارثية ..**

إيجابيات الخوف :

للخوف الطبيعي كوكبة من الإيجابيات لعلّ أبرزها :

✽ تنبيه الإنسان من الأخطار المحدقة كي يرتكس لها و يتجنبها ،
و ربما أنقذ ذلك حياته بالفعل ..

✽ الاستفادة من الخوف في الحملات الإعلانية السياسية
والتجارية والصحية العامة .. مثلاً تخويف الناس من عواقب
التدخين الصحية كي يقلعوا عنه ، أو تخويف الناس من مرشح سياسي
معين كي يؤثروا على نسبة انتخابه و هكذا ..

✽ الشعور بالقليل من الخوف يساعدك أيضا على فقدان الوزن،
فهو يحرق سعرات حرارية مقارنة بالأوقات التي لا تكون فيها خائفاً
.. فمع تسارع النبض وإفراز الأدرينالين، يزداد معدل التمثيل الغذائي
ويبدأ الجسم في حرق السكريات والدهون .. و قد أظهرت دراسة
أجراها باحثون أنه من المرجح أن يحرق أولئك الذين شاهدوا فيلم
رعب مدته **90** دقيقة ما يصل إلى **113** سعرة حرارية، وهو عدد
السعرات الحرارية نفسه الذي يُمكنك حرقه من المشي لمدة نصف
ساعة.

✽ تقوية جهاز المناعة، وهذا ما أظهرته دراسة أخذت عينات دم
من المشاركين قبل وبعد مشاهدة فيلم رعب مدته **80** دقيقة.
وأظهرت النتائج ارتفاع في خلايا الدم البيضاء لدى المشاركين في
الدراسة، وهي نوع الخلايا التي تدافع عن الجسم ضد كل الأمراض
المُعديّة..

✽ عند بعض الناس، يمكن أن يكون الخوف على نحو غير منطقي
سبباً للإثارة والمتعة، فهناك مَنْ يُفضِّل مشاهدة أفلام الرعب، أو
يدفع المال لدخول بيت الرعب لتعريض نفسه لبعض الخوف .. و
فسر العلماء ذلك بأن أدمغة الناس تتفاعل تفاعلاً مختلفاً أثناء التعرُّض
للخوف.. فأحد الهرمونات التي تُطلق أثناء التعرُّض للمواقف المخيفة
هو الدوبامين، المعروف أيضاً باسم هرمون الشعور بالرضا، لأنه
جزئياً مسؤول عن شعور عقولنا بالسعادة .. و عندما يتدفق الدوبامين

عند التعرُّض لموقف مخيف، فإن بعض الناس يتفاعلون معه بقوة أكبر من غيرهم، وهو ما يجعل مشاعر الخوف أقرب إلى الإثارة عند بعض الناس !!.

✽ **الخوف حافز للعمل و الإنجاز ،** فالخوف من الرسوب يدفعك للدراسة و الاجتهاد ، و الخوف من المرض يدفعك لاتباع حياة صحية ، و الخوف من القانون يدفعك للسلوك القويم ، و الخوف من الفقر يدفعك للعمل و هكذا ..

بروتوكول التعامل مع الخوف :

علاج الخوف المرضي (المفرط أو المستمر) يتم باتباع البروتوكول الخماسي التالي :

① حدد جيداً العامل الذي يسبب الخوف لديك ..

مثال : الخوف من الأماكن المغلقة ..

② حدد العامل الذي اقترن بخوفك منها و حاول أن تتصالح نفسياً معه ..

مثال : علقت في حفرة عميقة في طفولتك فولد خوفك من الأماكن المغلقة ..

③ افهم الآلية الفيزيولوجية للخوف و تأثير هرمونات الشدة على الجسد الذي تحدثنا عليها أنفاً .. فهذا يساعدك على ضبط ارتكاس جسدك للعامل المخيف ..

مثال: التنفس العميق البطيء يهدئ النفس و يصفى التفكير عند احساسك بالخوف ..

④ العامل الأهم في علاج الفوبيا هو (**الانغراق**) : و يعني طبياً تعريض مريض الفوبيا من شيء الى هذا الشيء لفترات طويلة حتى

يزول تأثيره المخيف (تنفك العقدة) ..

مثال : من يخاف الاماكن المغلقة احبسه في غرفة صغيرة بضعة ساعات ، سيعاني كثيراً بالفعل لكنه في النهاية سيهزم مخاوفه ..

تماماً كمقولة (داوني بالتى كنت هي الداء) الشهيرة ، و مقولة الامام علي بن أبي طالب الايقونية :

(إذا هبت أمراً فقع فيه)

و في الفيزياء مثال بليغ للغاية عن هذه الفكرة و هي قطرات الأمير روبرت أو الدموع الهولندية و هي تقطير الزجاج المنصهر في الماء البارد فينجم عنه قطرات غريبة تقاوم الكسر من أعتى المطارق ..

و هذا حال الانسان الذي يعاني من خوف مرضي ، أشبه بزجاج سهل الكسر ، لكن ما إن يذاب بعملية الاغراق في الماء البارد الذي هو العامل المثير للخوف حتى يتحول الى شخص شجاع و ثابت لا يخاف أبداً بعد ذلك ..

⑤ لا تقلل من تأثير الروحانيات على تهدئة نفسك ، فبذكر الله تطمئن القلوب ، لكن ذلك لا يعني ألا نلجأ لأهل الاختصاص في الطب النفسي لمساعدتنا بالعلاج المعرفي السلوكي و /أو العلاج الدوائي المناسب ..

مثال : يمكن علاج رهاب المسرح (الخوف من الجمهور) بحبة واحدة من دواء حاصر بيتا قبل لقاء الجمهور بربع ساعة و هذا ما يعتمده المحاضرون و الفنانون ..

أي شيء نخاف منه في حياتنا له جذور و أسباب مقترنة به في الطفولة .. فالإنسان يأتي الى هذه الحياة لا يهاب شيئاً .. لكنه يبدأ باكتساب المخاوف من التجربة أو التربية ، فمثلاً إن أنت وضعت أفعى بجانب رضيع فلن يخاف منها ، لكن بعد أن يكبر و يعرف أنها مؤذية سيتولد الخوف في قلبه منها..

و العائلة بشكل عام فنانة في زرع الخوف من كل شيء في قلوب أبنائها ، من الخوف من الآباء الى الخوف من السلطة انتهاء بالخوف من السماء .. و هذا خطأ جسيم ، فالخوف الوحيد الذي يجب تربية الانسان عليه هو الخوف من ارتكاب الخطيئة بإرادته كي لا يفسد هو و مجتمعه ، اما اذا كان على الصراط المستقيم فعليه ألا يخشى أحداً في الكون ..

و في الحقيقة فكرة الخوف ولدت في قلب الانسان منذ أيام إنسان الكهف، بخوفه من الحيوانات المفترسة كالديناصورات أو الكوارث الطبيعية كي ينجو بحياته، ثم بدأ بنقلها كإرث إلى أبنائه بالتعليم و ليس بالجينات ليصبح الخوف لاحقاً عادة و عرف في حياة البشر .. و هذا الخوف حميد لأنه يعني الحذر ، أما أن يتسع هذا الخوف كتصحر يشمل كل شيء و يسبب جفاف الروح فكارثة حقيقية يجب وأدها في مهدها ..

في ختام مقاربتنا لسر الحياة الجديد، من الأنسب ربما ألا نقول :
= الخوف البشري شيء فطري في جيناتنا و لا يمكننا التخلص منه بل ان نقول :

= الخوف شعور مكتسب و ليس فطرياً .. له جانب إيجابي بارتكاسنا للعوامل المؤذية كي نتجنبها و ننجو ، لكنه إن أصبح مرضياً قد يدمر حياتنا الشخصية و الوظيفية الى الأبد .. لذا علينا علاجه بالبروتوكول السابق الذي تحدثنا عنه قبل أن يتوسع كسرطان في نفوسنا و يقضي علينا ..

في التراث الشعبي الألماني حكاية شهيرة للأخوين غريم تعرف بقصة (الشاب الذي خرج ليعرف ما هو الخوف) ، و تتحدث عن فتى لا يخاف أبداً فيتم تعريضه لتجارب مرعبة كثيرة بين الزومبي و الجماجم الناطقة و الأشياء التي تتحرك و تهاجمه ، لبث الرعب في قلبه ، لكنه و لأنه لا يعرف الخوف يتعامل معها كلها ببرود

فيقمنها قبل أن تخيفه ..

و هي قصة طريفة لكنها ذات مغزى عميق بنفس الوقت، و هو أننا عندما نقرر ألا نخاف سنجد أنه ما من شيء مخيف بالفعل ، فالخوف شيء نحن نصنعه و ليس شيئاً من صميم تكويننا كالعظام و العضلات.. وإن بحثت في سجلات التاريخ عن أبرز القادة و العظماء ستجد أن الصفة المشتركة بينهم جميعاً لم تكن السلطة أو الثراء أو الوسامة أو الذكاء .. بل هي الشجاعة .. لأنك إن امتلكتها أمكنك بلوغ أي حلم يراودك أما إن فقدتها لن تبرح مكانك ، كما قال الفيلسوف الإغريقي أرسطو :

(الشجاعة أهم الصفات الإنسانية لأنها الصفة التي تضمن

باقي الصفات)

فالحياة تؤتي أكلها للشجعان و تحجم بوجهها عن يخشون مجابهة مصاعبها ..

كرتا غاليو

= ماذا تشاهد على هاتفك يا صديقي ، أراك مبتسماً !؟

= إنه فيديو يتحدث عن شخصية شهيرة تدعى أناتولي .

= و ما قصته ؟

= شاب نحيل يدّعي أنه عامل تنظيفات في **GYM** رياضي يراقب شباباً مفتولي العضلات و هم يحاولون رفع أثقال كبيرة بشق الأنفس ، ثم يتقدم منهم و يسألهم لماذا يرفعون أثقالاً مزيفة ؟ .. فيجيبوه بدهشة بأنها حقيقية تماماً ، لكنه يؤكد لهم أنها مزيفة و يمكنه بنفسه رفعها بسهولة ، فيستهزئون به و يحذرونه بأنه سيؤذي ظهره إن حاول ، فيبتسم بسذاجة و يقول لهم ألا يخشوا شيئاً لأنها أثقال مزيفة



= وبعد ذلك ؟

= يتقدم أناتولي و يرفع الأثقال بمنتهى السهولة وسط صدمة و دهشة

الشباب مفتولي العضلات من حوله ..

= مذهل !! و كيف يمكنه فعل ذلك ؟!
= في الحقيقة خلف ثياب عامل التنظيفات تلك يتميز أناتولي بجسد نحيل لكن ذي عضلات قوية للغاية مع قابلية مذهلة للتحمل بفضل سنوات من التدريب المكثف و المستمر و الصحيح ..

= أي أن الأثقال ليست مزيفة و لم تصبح أخف ، بل أناتولي هو من أصبح أقوى !!

= تماماً ، كحال الحياة برمتها .. حياة قاسية للغاية تحتاج إلى صبر و تدريب مستمر لتحمل أعبائها .. و علينا ألا ننخدع بمظهر الأشخاص البسيطين من حولنا فنستخف بهم بسبب أعمارهم الصغيرة أو فقرهم المادي أو غيره ، فلربما كانوا قادرين على تحمل أعباء تعجز عن حملها الجبال كما يقال !!

يقول الناشط الحقوقي الأمريكي مالكوم X :

(الحياة لم تصبح أسهل أنت أصبحت أقوى)

و هذا الكلام صحيح حرفياً .. فالحياة قاسية للغاية و لا تمنحك أهدافك بسهولة ، بل تتطلب منك الجهد و الصبر و المثابرة حتى تستحق هداياها .. و يستحيل أن تجد أحداً ناجحاً في الحياة من فراغ ، إذ لابد أن تجد في ماضيه تعباً مزمناً و قافلة من التضحيات قادتته إلى هذا النجاح .. أما قول البعض :

(الحياة ابتسمت لهم أخيراً وأصبحت أسهل مما كانت

عليه من قبل)

فهو مغالطة شائعة للغاية في الحياة ، فالحقيقة أن الحياة لم تتغير يا

صديق الحرف و لم تصبح أسهل على الإطلاق ، بل أنت أصبحت متمرساً في التعامل معها و خبيراً في تجنب كوارثها و اغتنام فرصها و هداياها عبر سنين طوال من التجارب و الدروس ، و هذا هو بالضبط جوهر سرّنا الجديد (**كرتا غاليلو**) مع سؤاله المحوري التالي المنبثق عما سبق :

(هل صعوبة الحياة و سهولتها أمر خارجي يحدده المحيط و البيئة أم أنه أمر داخلي يحدده الإنسان بنفسه ؟!)

إنّ جوابنا الوجيه و المبدئي هو :

(أنت وحدك من يحدد سهولة أو صعوبة الحياة من حولك، وذلك عبر تطوير إمكانياتك بشكل متواصل و من خلال تجاربك المتنوعة و بفضل الدروس العظيمة التي تتعلمها في الحياة ، لأنّ الصعاب و العوائق أمر نسبي تختلف من شخص لآخر، كحال صديقنا أناتولي في مقدمة مغالطتنا ، فالأثقال لم تصبح أخفّ بل هو أصبح أقوى بالتمرين الحثيث و الجهد المستمر ، إذ ما يزال رفع تلك الأثقال نفسها أمراً شاقاً بل مستحيلاً لكثيرين غيره)

و لتوضيح هذا الجواب بشكل أدقّ و أعمق ، سنقوم بمقاربة هذا السرّ من 4 زوايا هامة للغاية :

✧ كرتا غاليلو :

هي تجربة مثيرة للغاية قام فيها العالم الإيطالي الشهير **غاليلو** بإسقاط كرتين مختلفتين في الكتلة من قمة برج بيزا المائل لإثبات أنّ زمن السقوط الحر لا يعتمد على الكتلة ، محاولاً بذلك دحض نظرية الجاذبية لأرسطو التي تنصّ على أنّ سرعة سقوط الجسم تعتمد على كتلته .. و في الحقيقة فرضية غاليلو صحيحة فيزيائياً لكن في شروط خاصة ، لأن من يتحكم بتسارع سقوط الأجسام في الجوّ هو مقاومة

الهواء لها و التي تتأثر بكتلة الأجسام ، لكننا إن أسقطنا ريشة و مرساة في حيز من الخلاء فسيصلان إلى القاع بنفس التوقيت !! ..



و ما نريد إيصاله من هذه التجربة أن الناس جميعهم قادرون على إنجاز نفس الأمور إن جمعتهم الظروف ذاتها بدون عوائق متفاوتة فيما بينهم، بمعنى أن العقبات و الصعوبات في الحياة هي ما يؤدي إلى نتائج مختلفة في الإنجاز .. أي أن الحياة القاسية تلعب مع البشر دور الهواء الذي يقاوم اندفاعهم ، و كلما زادت كتلة البشر (إمكانياتهم و قدرة تحملهم و عزيمتهم و إصرارهم) زاد تسارعهم و تذليلهم لهذه المقاومة كي يبلغوا الأرض (أهدافهم) بزمن أسرع و بطريقة أسهل ، و لولا صعوبات الحياة هذه لبلغ الإنسان ذو الإمكانيات المتواضعة و الذي لا يبذل أي جهد أو لا يمتلك أي تجارب (الريشة) هدفه بنفس سرعة و سهولة بلوغ الإنسان المعاني و الخبير (المرساة) لنفس الأهداف .. و بالعودة إلى مستهل حديثنا يمكن عندها لجميع البشر رفع الأثقال الضخمة مهما كانت قوة عضلاتهم أو ضخامتها ، لكن بالطبع الحياة لا تسير وفق هذه

المعادلة ، بل تزرع العقبات في طريق جميع البشر كي يصل إلى هداياها فقط الإنسان المثابر الذي يواجه الصعوبات و يقفز فوق العوائق بتطوير نفسه ، فينال بذلك كل إنسان نتيجة تعبته و جهده .. و خلاصة لهذه النقطة .. كتلتك (إمكانياتك و تجاربك) هي فقط من يحدد سهولة بلوغك لأهدافك عندما تندفع نحوها في الحياة .. فمقاومة الهواء : (صعوبات الحياة) موجودة دائماً و ثابتة بين الجميع دون استثناء ، فالحياة ليست حيزاً من خلاء !!

✽ العمل وحده يذل الصعاب :

أياً كان توجهك في الحياة ، عالم أو رياضي أو فنان أو حرفي أو غيره .. فإن استمرارك بالعمل و تطوير الذات يحسّن من جودة إنجازك بالتدريج حتى يصل بك أخيراً بعد سنوات من الإصرار و التجارب و الخبرات إلى مرحلة يغدو معها إنجازك لأمر هاماً عليك مستحيلة بالنسبة لغيرك بل تصل إلى درجة الإعجاز أمراً هيناً عليك ، فتحصد أفضل النتائج بسهولة و يسر ، فهل سبب ذلك هو أن ما تقوم به أصبح يسيراً و سهلاً .. إطلاقاً ، بل أنت أصبحت متمرساً به بفضل سنوات من الممارسة و المثابرة و تطوير الذات .. و كمثال على ذلك نجد لاعب البلياردو المحترف الفلبيني إيفرين مانالانج رايز و الملقب بالساحر يقوم بإدخال الكرات بمنتهى السهولة و من زوايا غاية في الصعوبة بل يتفنن بوضع عقبات أمامه من باب التحدي و يتجاوزها بامتياز ، في حين نجد عامة الناس يعجزون عن إمساك العصا و ضرب الكرة بشكل صحيح و لو كانت قريبة من الحفرة !

✽ دروس الحياة في العمل و اللهو :

في الحقيقة الحياة تعجّ بالأمثلة البليغة عن موضوعنا كنوع من الدروس لنا بحدّ ذاتها كي نفهم فلسفتها في التعامل معنا أكثر ، و

نكتفي بمثالين منها من باب التوضيح يشملان جانبي الحياة (العمل و اللهو) :

● **الامتحان** : لعل أبسط مثال عن كلامنا السابق هو مثال التلميذ المجتهد الذي يكرس كامل وقته خلال العام للدراسة فيفهم المنهاج جيداً و يصبح متمرساً بمواده المتنوعة بحيث يصل إلى درجة يصبح فيها الامتحان بالنسبة له مجرد نزهة و تسلية ، فيحقق درجات عالية بسهولة ، فهل الامتحان أصبح أسهل بشكل مجرد ؟

بالطبع لا !! و إن أردت معرفة الحقيقة اسأل التلميذ الكسول الذي لم يتعب عن صعوبة الامتحان و ستعرف الحقيقة العارية كما هي !! و هكذا هي الحياة لا تعطي أكلها إلا لمن يجتهد فيها و يبذل الغالي و الثمين في سبيل تحقيق أهدافه حتى يصل إلى مرحلة يرى فيها صعوباتها و تحدياتها غاية في السهولة ..

● **ألعاب الفيديو** : أغلبنا سحر في طفولته بألعاب الفيديو الممتعة ، و لعلنا نتذكر تجربتنا الأولى مع كل لعبة جديدة عندما نجد كل شيء صعباً و مبهماً ، و لا ندري من أين نبدأ أو كيف ننجز المراحل المتدرجة للعبة .. لكننا نتذكر بكل تأكيد أيضاً أننا نصل بعد وقت طويل من تكرار المحاولات و اكتشاف أسرار الألعاب إلى مرحلة نختم بها اللعبة كما يقال ، و تصبح بالنسبة لنا أمراً هيناً و يسيراً ننجزه بمنتهى البساطة ، فهل اللعبة أصبحت أسهل ؟

أبدأ بل أنت أصبحت متمرساً بها بفضل ساعات من التركيز و تكرار المحاولة ، فلا شيء يأتي بالمجان.. هذه هي الحياة باختصار يا صديق الحرف ، مجرد لعبة عسيرة و معقدة قد تجد صعوبة في فهمها و اكتشاف طريقة التعامل معها بادئ الأمر مع ارتقائك الدرجات الأولى من سلم العمر ، لكنك مع التكرار و المواظبة ستكتسب الخبرة و تجد الطريق لإنجاز أهدافك بسهولة فيها ، و هذا

لا يعني أن اللعبة أصبحت اسهل ، إطلاقاً بل أنت أصبحت أكثر خبرة و قدرة على التحمل ، أي ببساطة الحياة قاسية لكن عادلة و منحتك أخيراً ثمرتك وقتك و جهدك بأن أصبحت أسهل في عينيك و أنت على الدرجات الأخيرة من السلم !!

في التراث الشعبي تشيع عبارة (الحياة صعبة أول 70 سنة فقط) من باب الدعابة ، و الحقيقة أن عدد السنوات التي ستغدو بعدها حياتك أسهل يعتمد على جهدك و اجتهادك و تحصيلك للمعارف و الخبرات لا غير أو كما يقال في التراث أيضاً (عليك أن تضع 9 كي تحصل 10)..

❖ وجهة نظر الدين في ذلك:

يقول نبي الرحمة محمد :

(لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون)

و الإنفاق مما نحبّ مادياً أو معنوياً يعني التغلب على مقاومة الظروف لنا في إنجازنا ، لا إنجاز أمورنا ببسر و سهولة دون عناء ، فكما قلنا الحياة لا تمنح البشر شيئاً بالمجان بل عليهم أن يخطفوا لقمتهم من فم السبع كما يقال !!

و نجد أيضاً قول البارئ في توصيف هذه الفلسفة :

(و لا يلقاها إلا الذين صبروا * و لا يلقاها إلا كلّ ذي حظّ عظيم)

فبلوغ الأهداف الكبيرة و تحصيل النعم العظيمة يتطلب بالضرورة جهداً عظيماً و صبراً هائلاً يوازيها ..

و في هذا السياق نجد الكاتب الإيرلندي سي إس لويس يقول

(المصاعب غالباً ما تعدّ الناس العاديين لمصير غير عادي)

فراحتك في المستقبل أو ما يدعوه البعض (سهولة الحياة) يعتمد

على جهدك و تحملك للصعاب اليوم كي تتسلح بذخيرة كافية تذلل بها عوائق الحياة غداً .. بمعنى أنّ صعاب الغد ستتكسر على صخرة صعاب الأمس التي تشكل درعاً يحميك منها ، كما قال الشاعر العبقري المتنبي :

رمانى الدهر بالأرزاءِ حتّى
فؤادي في غشاءٍ من نبالٍ
فصرتُ إذا أصابتنى سهامٌ
تكسرتِ النّصالُ على النّصالِ

و هذا باختصار هو التعبير الحرفي لمقولة (الحياة أصبحت أسهل) أي أن مصائبها الجديدة لم تعد تؤثر فيك بسبب مناعتك التي اكتسبتها من خبرتك في التعامل مع المصائب الكثيرة السابقة ، و كما يقول المتنبي أيضاً :

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله
لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر
و بنفس السياق و المعنى يقول مجدداً :
تريدين لقيان المعالي رخيصةً
و لا بدّ دون الشهد من إبر النحل

و خلاصة لكل النقاط السابقة ، إنّ كل شيء في الحياة نسبي بما فيها صعوبة الحياة نفسها ، فالإنسان المكافح سيبذل مرحلة يرى فيها الحياة سهلة و هينة ، أما الإنسان الذي لا يزال على شاطئ الحياة و لم يبحر بعيداً بعد فسيهاب المحيط و يخاف تعقيد الحياة و متاهة أحداثها و تقلباتها .. و عليك عزيزي القارئ الشاب أن تشمّر عن ساعدك استعداداً لعراك الحياة فأنت مقبل على حرب ضروس حقيقية معها لن تنجو منها إلا بالصبر و التحمل و المثابرة و

النهوض مجدداً بعد كل فشل و إخفاق دون استسلام ، فإما أن تكسرك الحياة فتنتهي صريعاً في ساحة المعركة معها أو تكسرهما أنت فتصبح كاللعبه بين يديك تتحكم بها كما تشاء بعد أن تحكمت بك هي كما تشاء في مقبل العمر ..

في صفحات التاريخ قصص كثيرة ملهمة لعظماء شقوا دربهم في جبل الحياة متراً يتلو الآخر حتى خرجوا إلى الجانب الآخر منه فلانت الحياة لهم و أصبحت أسهل في عيونهم ، و من أبرز هذه القصص هي قصة الرئيس الأمريكي أبرهام لينكولن الذي يعتبر أحد أهم رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية بفضل إنجازاته الكبيرة و على رأسها بالطبع إنهاء العبودية في البلاد ، لكن في الحقيقة وصول لينكولن إلى هذه المرحلة تلا مسبة طويلة من الإخفاقات و الانتكاسات من قبيل :

- **1832** : فقد وظيفته
- **1832** : هُزم في انتخابات الهيئة التشريعية
- **1833** : فشل في العمل
- **1834** : انتخب عضواً في الهيئة التشريعية
- **1835** : ماتت المرأة التي أحبها
- **1836** : أصيب بانهيار عصبي
- **1838** : فشل كمتحدث
- **1843** : رُفِض للترشح للكونغرس
- **1848** : خسر إعادة الترشيح
- **1849** : رُفِض كإداري عقارات
- **1854** : هُزم في انتخابات مجلس الشيوخ

● **1856:** هُزم في الترشيح لمنصب نائب الرئيس

● **1858:** هُزم مرة أخرى في انتخابات مجلس الشيوخ

● **1860:** انتخب لمنصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية

فحياة هذا الرئيس تعبير حرفي لصعود قمة الهرم طبقة طبقة بدءاً من القاعدة و معاركة الحياة لسنين طوال حتى تحقيق الأهداف المنشودة .. لتنتهي حياته عام **1865** بطريقة تتماهى مع مسبة الصعاب هذه و ذلك باغتياله ..

عندما يريد رامي السهام أن يطلق سهماً من كنانته نحو هدفه فعلى السهم أن يتحدى مقاومة الهواء له ، لذا يعتمد الرامي إلى إرجاع السهم في القوس إلى أقصى درجة قبل أن يطلقه كي يخزن الطاقة الكافية التي تخوّله بلوغ الهدف .. و إمكانياتك في الحياة و تجاربك و دروس السماء لك هي ما يحدد درجة رجوع السهم إلى الخلف و بالتالي قوة انطلاقه إلى الأمام و إصابة هدفه بسهولة و دقة بالمحصلة !!

في ختام مقاربتنا لسرنا الجديد (كرتا غاليلو) ، من الأنسب ربما ألا نقول:

= لقد ابتسم الحظ لي أخيراً و باتت الحياة أسهل للعيش.

بل أن نقول :

= الحياة قاسية ، و ستبقى إلى الأبد قاسية ، و عندما تجدها فجأة قد أصبحت أسهل فتأكد أنّ ذلك ليس حظاً بحتاً و لا تغييراً في طبيعة الحياة و قسوتها ، بل أنت من أصبح أقوى و ذا قدرة أكبر على تحمل الصعاب بفضل مسبة طويلة من التجارب و العقبات و الدروس ، أي أن سهولة الحياة أخيراً هي مكافأتك على جهدك

المنصرم لسنوات لا غير ..

عندما تكبر فراخ النسور كفاية في العشّ فإنّ الأبوين يتوقفان هنا عن إطعامها بل يغيران سياسة التعامل معها إلى دفعها خارج العش من أعلى القمم كي تسقط سقوطاً حراً ككرتي غاليلو في الهواء ..

فإنّ أرادت الفراخ أن تنجو و تستحق متابعة الحياة فعليها أن تكون قوية و تقاوم مقاومة الهواء بجناحيها فتتعلّم الطيران و الاعتماد على نفسها .. و هذه فلسفة السماء مع عيالها البشر ، ترميهم في وجه صعوباتها كي تعلمهم فنّ القوة و الاعتماد على النفس ..

الارتواء من البحر

= هل سمعت بصفقة المليونير عمران الكبيرة منذ أيام يا حامد .. ؟

= بالطبع .. فليرزقه الله من نعيمه أكثر و أكثر ..

= أليس الأحرى بك أن تقول : فليرزقني الله مثله ؟!

= أنا مقتنع و راضٍ بحياتي يا ياسر .. المال متاهة لا أريد دخولها .. و أفضل الاهتمام بمكتبتي و تدليل كتبي بقراءتها بشغف بدلاً من الاهتمام بالنقود التي لا تغير من نظرتي للحياة قيد أنملة ..

= ما هذا الكلام الفارغ ؟! إن امتلكت المال امتلكت كل شيء في الحياة .. من جهتي أتمنى أن أملك كل العالم ، بل أن ألمس أي شيء فيتحول إلى ذهب ..

ابتسم حامد بدهشة ..

= أنت تذكرني بأمنيتك هذه بالأسطورة الإغريقية للملك ميداس ..

= و ما قصة هذا الملك أيها المثقف ؟

تجاهل حامد استخفاف صديقه بثقافته و قناعاته و اختار الرد عليه عبر الثقافة نفسها ليفاجئه بقصة لم يكن يتوقعها ..

= قصة الملك ميداس مفعمة بالعبر ، فقد كان ملكاً ثرياً جداً ، لديه ذهب أكثر من أي ملك آخر في العالم .. كما كان له أيضاً ابنة جميلة و لطيفة تدعى ماريجولد ، لكنها لم تكن بالنسبة له أغلى من ذهبه الأصفر اللامع كحال كل شيء آخر ، فقد كان يتمنى الحصول على المزيد منه باستمرار ليزيد ثروته و رصيده ، فقد كان ذلك مصدر السعادة الوحيد له ، بل كان مقتنعا بأنه الشيء الوحيد المهم في الحياة.. ذات يوم و بينما كان الملك غارقاً في حساب أمواله كعادته ، ظهرت أمامه جنية الأمانى فعرضت عليه أن تمنحه أمنية واحدة ،

فقط .. فلم يتردد الملك ميداس للحظة و تمنى بدون تفكير أن يتحول كل شيء يلمسه إلى ذهب كما تمنيت أنت بنفسك منذ قليل يا صديقي..

= و ماذا حدث بعدها ؟!

= استهجنت الجنية طلبه و حذرتة من أن ذلك لن يسعده بل سيكون وبالاً عليه، لكن الملك لم يأبه لكلامها فوعدته بتنفيذ أمنيته من صباح اليوم التالي .. استيقظ الملك ميداس في الصباح متلهفاً للتحقق مما إذا كان وعد الجنية صادقا ، فلمس سريره و بالفعل تحول السرير إلى ذهب خالص ، ثم لمس الكرسي والطاولة ، فتحولا بدورهما إلى ذهب .. لم تتسع الدنيا لسعادة ذلك الملك فقد أيقن حسب ظنه أنه امتلك كل شيء لا محالة .. لكن في وقت لاحق من ذلك اليوم ، و بعد أن عطش الملك و جاع ، حاول أن يشرب الماء ويأكل طعامه ، لكن ما إن لامست شفتاه الماء حتى تحوّل إلى ذهب فلم يستطع أن يشرب ..

كذلك تحوّل الخبز أيضاً إلى ذهب في يديه فلم يتمكن من أكله .. في هذه الأثناء ظهرت ابنته ماريجولد تركض في الحديقة نحوه ثم احتضنته لكنها تحولت على الفور إلى تمثال ذهبي بدورها ..

غرق الملك ميداس بالرعب مدركاً خطورة ما فعله وعواقب أمنيته الوخيمة .. كل السعادة التي شعر بها عندما تلقى هديته لأول مرة ذهبت الآن .. فهو يملك كل ذهب العالم حرفياً لكنه خسر كل شيء آخر و أدرك أن اسم الذهب يليق به بالفعل فقد ذهب معه كل شيء جميل في حياته ..

دعا الجنية وتوسل إليها أن تسترد أمنيتها و تعيد كل شيء إلى حاله .. فسألته الجنية إن كان لا يزال يعتقد أن الذهب هو أعظم شيء في العالم ، فنفي الملك و أطرق رأسه باكياً وقد تعلم الدرس .. و عندما اقتنعت الجنية بصدقه، طلبت منه أن يذهب إلى النبع في الحديقة، ويملاً إبريقاً بالماء ، ثم يرش كل ما لمسه بالماء .. اندفع ميداس إلى النبع مغموراً بالأمل ، فملاً الإبريق ثم توجه إلى ابنته أولاً و رشها

بالماء .. وعلى الفور ، عادت إلى طبيعتها ، و أعطت والدها حضناً و قبلة .. رشّ الملك بعدها الطعام الذهبي ثم جلس مع ابنته لتناولها و قد أصبح أكثر تقديرًا لقيمة الطعام و الشراب و وجود ابنته في حياته .. مؤمناً بأن هنالك في هذه الحياة ما هو أهم بكثير من الذهب و المال ، لكنّ

الإنسان لا يدرك هذه الحقيقة حتى يفقد تلك الأشياء في حياته .. و أخشى يا صديقي أن تصل إلى يوم تضع في متاهة المال كحال صديقنا ميداس .. لذا أنصحك كصديق بالاعتناء و الرضا بقسمة الله لك ، و تقدير نعم الله الأخرى المجانية في حياتك ..

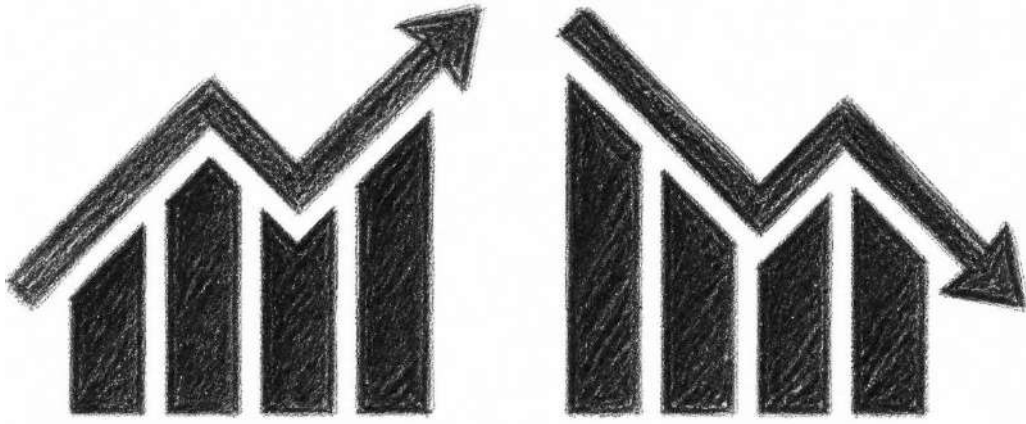
أطرق ياسر رأسه خجلاً بعد أن أبهرته هذه القصة العميقة للغاية على بساطتها ..

لا شك أنّ كثيراً منا إن لم يمرّ بهذه الحالة التي مرّ بها الملك ميداس في مرحلة ما من حياته ، فقد التقى بالفعل بأناس مروا بها و اختبروها .. عندما يتحول الإنسان الى مجرد آلة بنكية تكثر المال و تزيد الأرصدة حتى تتلاشى روحه رويداً رويداً في فضاء الأحلام و طول العمر و يتبخر عقله تدريجياً ليخطفه الموت على غفلة تاركاً كل شيء مادي جمعه الى سواه و دون أن يترك أي أثر عطر لنفسه بالإيمان و الثقافة أو في الآخرين بالإحسان ، و بدأ تتجمع أجزاء سرنا الجديد : (الارتواء من البحر) لينبثق معه السؤال الجوهرى التالي :

(هل حقاً زادت ثروة الإنسان زادت رفاهية وسعادته بتناسب طردي لا ينتهي ؟ مما يبرر طلب المزيد بشكل متواصل دون ارتواء أو شبع)

في الحقيقة الجواب المبسط و الوجيز عليه مبدئياً هو :

(المال في حياة الإنسان كنسبة السكر في دماغه ، فالسكر ضروري جداً لعمل الجسم و الدماغ كمصدر أساسي للطاقة و كلما استهلكه الإنسان أكثر زادت نسبته تدريجياً في دمه و الجسم يستفيد منه حتى يصل الى مرحلة يبدأ عندها طرحه في البول هدرًا دون فائدة ، كجرس إنذار يحذرك بأنه بات خطراً محدقاً بك و بأن الداء السكري مترصد على عتبة الباب ..



كذلك المال تفيدك زيادته حتى درجة محددة ليبدأ بعدها بالضياح هدرًا على ما هو غير مفيد أو قيم أو يزيد سعادتك و رفاهيتك .. و يدق جرس الإنذار بأنك أصبحت مدمناً على تحصيله على حساب حاجاتك الأخرى الروحية و العقلية إذ يستهلك جمع المال كامل وقتك و ينتشر في روحك كسرطان أو تصحّر فيجففها دون أن يترك لك مساحة زمنية كافية للاهتمام بسواه من قضايا الحياة العميقة كالثقافة و الإيمان و الإحسان)

و سنعمل الآن على تفسير هذا الجواب بتفصيل أكثر و على نحو كافٍ ، و ذلك بمقاربة هذا السرّ من 3 محاور هامة للغاية :

مفهوم الشراء الوهمي :

نستهلّ هذا المحور بقصة أخرى لكنها حقيقية هذه المّرة من صفحات التاريخ تعبق بالعبر و الحكمة ، تتناول أحد أكبر و أشهر أثرياء

العصر الحديث و هو ماير أمشيل روتشيلد الجد الأكبر لعائلة روتشيلد اليهودية أغنى عائلة في العالم و التي تتحكم بمصير الأرض كما يعتقد كثيرون ، و الذي كانت نهايته عبرة لكل شجع للمال يثمنه أكثر من الأمور المعنوية الهامة الأخرى في الحياة ، إنّ حكايته المثيرة و الغريبة للغاية هي و بشكل مختصر على النحو التالي :

{ كان ماير روتشيلد مولعا بثروته بشكل مرضي و يتلذذ بالنظر إليها لساعات طوال يوميا ، فبنى له قصراً كبيراً يحتوي خزنة سرية ضخمة جداً لا يعلم مكانها أحد على الإطلاق ، جمع فيها مجوهراته من ياقوت ، ذهب ، زمرد و لؤلؤ .. وكان من شدة عشقه للمال لا يسعد بتناول طعامه إلا و حوله مقتنياته ، كما كان يقضي في خزنته أياماً في خزنته لا يفعل فيها أي شيء مفيد لعقله أو روحه أو للآخرين على حد سواء ثم يعود الى أهله دون أن يدرك سره أحد .. وفي أحد الأيام ذهب ماير ولم يعد أبداً ، فبحثت عنه عائلته لأيام في كل مكان ، لكن باءت كل محاولاتهم بالفشل حتى يئسوا و نسوا أمره تماماً كما لو أنه مات بالفعل ، فورث ذووه ثروته و أمالكه و كان القصر من نصيب أحدهم ، بعد عدة سنوات هدم صاحب القصر الجديد البناء لإعادة هيكلته على ذوقه فعثر مصادفةً على الخزنة الضخمة ، و عندما هدمها بدورها صدم بمفاجأة كوقع الصاعقة عقدت لسانه من شدة الدهشة و باتت حديث الناس لعقود بعدها ، حيث وجد الهيكل العظمي لوالده و من حوله ثروته الطائلة و قد كتب بدمائه على الأشياء من حوله عبارة تلخص كل شيء :

((أغنى أغنياء العالم يموت جائعاً و عطشاً))

ما حدث في الحقيقة هو أن الخزنة كانت تغلق من جانب واحد فقط ، و في ذلك اليوم دخل ماير خزنته وأغلقها ، لكنه نسي مفتاحها في الخارج، وبعد أن فرغ من طعامه وشرابه وهم بالخروج، انتبه إلى أنّ المفتاح بقي في الجهة الثانية من الباب فشلت المفاجأة و أدرك أن هلاكه بات على العتبات فأخذ يطرق الباب و يصرخ بأعلى صوته

دون أن يسمعه أحد .. و بعد أن يؤس من النجاة جرح نفسه وكتب
بدمائه عبارته الشهيرة على ما حوله من مقتنيات لتكون عبرة لمن
يعتبر ..

فقد مات وسط ثروته الضخمة بعد أن استهلك عمره و تفكيره في
جمعها دون أن تفيد به شيء ، و لا شك أنه في لحظاته الأخيرة كان
مستعداً لمقايضتها كلها بكسرة خبز و رشفة ماء!! دون أن يسعفه
الوقت لبناء ثروة ثقافية في عقله أو جمع مجوهرات روحانية في قلبه
فمات مفلساً و فقيراً من ذلك كله {

من وحي هذه القصة المعبرة للغاية ننتقل إلى مفهومنا الهدف و هو
(**الثراء الوهمي**) الذي يجيبنا ببالغة عن سؤالنا الأساسي السابق،
و يمكن تلخيصه بكلمات مقتضبة كما يلي :

(كلما غرفت من المال أكثر زاد انفاقك أكثر و

(**المحصلة النهائية واحدة**)

و لتفسير هذه الكلام أكثر سنقارن مجموعة من جوانب الحياة ما بين
الأثرياء و الناس العاديين بطريقة كفيلة بإيضاح الصورة تماماً :

✽ **بيوت الأغنياء الواسعة و الفخمة و علاوةً على ثمنها الباهظ**
للاغنية فإنها تصرف على الأثاث الكثير وعلى التجهيز و الزخرفة و
الكهرباء و المياه أكثر بكثير من المنازل العادية من جهة ، كما أن
الأثرياء لن يستخدموا سوى غرف قليلة منها بحجم منزل عادي
في حياتهم اليومية من ناحية أخرى ، أي بالمحصلة مصروف أكبر
بكثير بنفس جوهر المعيشة تقريباً مع الناس العاديين ..

✽ **يميل الأثرياء إلى تناول طعامهم في المطاعم الفخمة و تجربة**
وجبات جديدة بتكاليف باهظة أو توظيف طهاة خاصين برواتب هائلة
، مما يقتضي بالضرورة مصروفاً أكثر بكثير مما يستهلكه الناس
العاديون ، رغم أن نهاية الطعام و الشراب واحدة أيا كانت

(المجارير) بل في كثير من الأحيان يكون طعام الناس العاديين صحياً أكثر .. و بالتالي فالمترفون لا يخسرون نقوداً أكثر على طعامهم فحسب ، بل و سنين أكثر من عمرهم جرّاء ذلك ..

✽ السيارات و الطائرات و اليخوت الفخمة و الكثيرة باهظة الثمن التي يتباهى بها الأثرياء تحتاج وقود أكثر و مصاريف صيانة أكبر لكنها بالمحصلة توصلك الى مكانك كأى مركبة متواضعة أخرى .. و أغلبها سيركن دون استخدام أو باستخدام محدود للغاية ..

✽ المدارس الخاصة لأبناء الأثرياء تتطلب رسوماً ضخمة جداً بدون نتيجة مقابلة مناسبة عند كثيرين ، فأبناؤهم لا ينجحون فيها في حالات كثيرة كونهم مدللين و قد أفسدتهم ثروة الآباء مع قناعتهم التامة و اطمئنأنهم أن الرصيد البنكي ينتظرهم عندما يكبرون فلا حاجة للتعليم و العمل إلا من رحم ربي ..

✽ المقتنيات الشخصية الفخمة للأثرياء كالمجوهرات و الساعات السويسرية و أحدث الهواتف المحمولة و غيرها لا فائدة حقيقية منها أكثر من غيرها عند الناس العاديين فهي تؤدي نفس جوهر العمل لكن بأثمان باهظة كمال مهذور ..

✽ الاستجمام في الأماكن السياحية يعصر جيوب الأغنياء عسراً للحصول على سعادة مفترضة يمكنهم تحصيل ما هو أكثر منها في سيران عائلي شبه مجاني في الطبيعة دون قيود أو شروط أو زحمة و ضجيج يفسدان المتعة ، دون أن نغفل عن حقيقة أن كثيراً من الأثرياء لا يملكون الوقت الكافي للترفيه بسبب مسؤولياتهم الكبيرة في إدارة أعمالهم و أموالهم .. كما أنهم لا يملكون راحة البال الضرورية للاستمتاع بأوقات الفراغ بسبب تفكيرهم المستمر بأعمالهم و بمنافسيهم و بضرائبهم التي كثيراً ما يتهربون من سدادها

✽ الخدم و المساعدون و الموظفون الخاصون الذين يعينهم الأغنياء برواتب خيالية كضرورة ملحة لإدارة حياتهم المعقدة هم دخل إضافي لا معنى له ، خلقت ظروف استثنائية لا حاجة لها من

قبيل :

- الاهتمام بالمنازل الكبيرة ..
- رعاية الأبناء المدللين الذين يفتقدون الحقاً لمفهوم الاهتمام بالنفس و الاعتماد على القدرات الخاصة ..
- إدارة الشركات الكثيرة لتحصيل أموال إضافية لا مبرر منطقي لها ..
- قيادة مركباتهم الخاصة ..
- الأطباء و المحامون و المحاسبون من الصف الأول الذين يتقاضون منهم رواتب هائلة ..

كلّ ما ذكرناه من جوانب لا يعدو كونه غيضاً من فيض على سبيل المثال لا الحصر و القائمة تطول في شرح كيف أن طبيعة الحياة المترفة للأثرياء تقتضي بالضرورة مصاريف زائدة كبيرة لتحقيق ذات الغايات عند الناس العاديين و ربما بأضرار أكثر و آثار جانبية أخطر .. أي أن ثراءهم في المحصلة مجرد وهم لا أكثر ، إذ أنّه مع ازدياد الثروة يزداد تبذير المال على أمور غير ضرورية متشعبة ..

و بمقارنة بسيطة :

{ من راتبه **1000** دولار و ينفق منها **900** دولار على ضروريات الحياة (الطعام و الشراب و اللباس و الصحة و الفواتير و الوقود و الضرائب) لا يختلف عن شخص راتبه مليون دولار و يصرف منه **900** ألف دولار على ذات الضروريات لكن مع مظاهر زائفة لا طائل منها كتناول الكافيار أو لبس الماركات و أحدث صرخات الموضة و اقتناء أحدث طراز من كل شيء ، ناهيك عن الفواتير الهائلة للبيوت الضخمة الكثيرة و الشركات المتعددة و مصاريف الوقود الكبيرة لمركباته المتنوعة الكثيرة و الضرائب

المتناسبة طرداً مع الثروة و رواتب الخدم و المساعدين .. إضافةً إلى مصاريف جانبية لا معنى لها من باب ما يدعوهُ الأثرياء : (الرفاهية) .. و التي وصلت ببعض الأثرياء إلى تصميم مرحاض من الذهب مثلاً {

و هذا يعيدنا إلى مثال نسبة سكر الدم في مستهلّ المغالطة و كيف أنه بعد مستوى معين تبدأ الكلى بطرحه هدرًا ، و هذا حال أموال الأغنياء تماماً ، فبعد مستوى حياة معينة تبدأ بعثرة النقود على أمور إضافية غير ضرورية و دافعها الوحيد التباهي بثرواتهم أمام المجتمع ، لكنّ محصلة السعادة في الحالتين واحدة إن لم تمل الكفة لمصلحة الناس العاديين ، فالمال يستعبد الأغنياء و وقتهم و تفكيرهم ، كما يفقدون أغلى المشاعر البشرية (الحرية) .. فيصابون بحالة إدمان حقيقي للحفاظ عليها وهاجس مخيف لزيادة ثروتهم ، على نحو يستعمر حياتهم بالكامل و ينتهي بهم الحال إلى ترك عبادة الله الذي بيده مقاليد الأمور و عبادة المال كصنم حقيقي ..

الارتواء من ماء البحر :

من أراد أن يكتفي في الحياة فبعض المال كفاية و من لم يكتفِ بالقليل لن تشبعه ثروات العالم مجتمعةً .. كما أبدع الشاعر الفذ أبو فراس الحمداني في توصيفه بأبيات ذهبية :

إنّ الغنيّ هو الغنيّ بنفسه

و لو أنه عاري المناكب حافي

ما كل ما فوق البسيطة كافيا

و إذا قنعت فبعض شيء كافى

و لا تشبيه أدق لحالة الإنسان الجشع النهم لجمع المال وطلب المزيد باستمرار من العطشان الذي يشرب من مياه البحر المالحة ، فكلما شرب أكثر زاد عطشه أكثر .. أما مياه الآخرة { الإيمان و الثقافة و

الأخلاق { فينبوع بارد يثلج الصدور و يروي قليله للأبد .. فالماديات زائلة بزوالك أما الأمور المعنوية السامية فترافقك بعد موتك .. لذا نرى الإنجيل العظيم يحثّ البشر على الارتواء من ذلك النبع العذب فيقول :

(لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسدها السوس و الصدأ ، و حيث ينقب السارقون و يسرقون ، بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسدها سوس و لا صدأ و لا سارقون ينقبون و يسرقون)

و لهذا السبب نجد أن أكبر فلاسفة و عظماء التاريخ أوصوا البشر بتفضيل الأمور المعنوية من علم و ثقافة و إحسان و غيرها على ماديات الحياة الجافة التي تنهش في الأرواح كالتصحر فنجد مقولة الإمام علي بن أبي طالب البليغة..

(العلم يحرسك و أنت تحرس المال)

فالثقافة و المعرفة سفينة نجاة لك في عقبات الحياة و تقلباتها ، أما المال فهو كالشيطان يقودك إلى الهاوية ثم يتبرأ منك و يدّعي أن لا علاقة له بما أصابك لتغرق وحيدا ، و العالم بمعرفته الواسعة لا يفلس و إن أفلس ينهض مجدداً ، أما العقول الفارغة من أي شيء عدا المال ، فإذا أفلست انتهت بلا رجعة .. فالعلم أثقل في ميزان الحياة من المال بكثير ..

أمثلة عن أثرياء لم تنفعهم أموال العالم :

في صفحات التاريخ أمثلة كثيرة عن بشر خالفوا هذه الدروس و الوصايا فخسروا الدنيا و أرواحهم على حد سواء نذكر منهم :

✽ **قارون الفرعوني** الذي يضرب به المثل في الثراء في المثل الشعبي ، فقد خسف الله الأرض به و بثروته و لم يتمكن الباحثون حتى اليوم من معرفة مستقرّها الأخير ..

✽ أرسطو أوناسيس اليوناني أغنى رجل في العالم في العصر الحديث و حكايته الشهيرة عندما أنهكه المرض في آخر أيامه فأجرى معه صحفي مقابلة سألته في نهايتها عن أمنيته الأخيرة في حياته فأجابه :

(أمنيتي أن أعثر على طبيب يأخذ كل ثروتي و يعيد لي صحتي)

فكم نملك في حياتنا من ثروات مجانية لا نقدرها حق قدرها من عائلة و صحة و ثقافة؟! و ثروات العالم مجتمعة لا تعادلها في كفة الميزان ..

✽ عدنان خاشقجي الذي بنى امبراطورية من الثراء و المال تخالها لا تنضب ، فاغتر و بطر و طغى و تجبر حتى انتهى به المطاف مفلساً لا يمتلك أجرة تذكرة يعود بها إلى وطنه ..

✽ ماير أمشيل روتشيلد : الذي تحدثنا عليه منذ قليل و الذي لم تفده كل ثروته عندما حان أجله فمات جائعاً عطشاً ..

و يبقى الكنز الأكبر بحق كما قيل في التراث هو القناعة و الرضا بقسمة الله (الكنز الذي لا يصدأ و لا يفنى على امتداد العمر بل يزداد لمعانه عاماً بعد عام) ..

في ختام مقاربتنا لسرنا الجديد (الارتواء من البحر) ، من الأنسب ربما ألا نقول :

= أريد أن أحصل على كل شيء مادي في حياتي ، و سأترك تحصيل العلم و الثقافة و الإيمان إلى سنّي المتقدم و أتفرغ لها بعد تحقيق طموحي المادي ذاك ..

بل أن نقول :

= المال و لا شك ضرورة ملحة في الحياة و لكن إلى حد معين إن تجاوزناه و قعنا في الثنائي المحظور :

① الإنفاق الزائد و ضياع الثروة هدرًا بمحصلة صفر..

② استهلاك التفكير و الوقت بالكامل لجمع المال و المحافظة عليه و إعمار المنازل الضخمة و الشركات الكثيرة دون أن نجد الفرصة لإعمار الإيمان في قلوبنا أو الثقافة في عقولنا أو الإحسان في نفوس المحتاجين .. ليأتينا الموت على غفلة فنخرج من هذه الحياة صفر اليدين حرفياً من الناحية المادية و المعنوية ..

و خير ختام لهذا السرّ هو المثل الألماني البسيط العميق التالي الذي لم أجد أبلغ منه في تلخيص كل ما سبق :

{ القميص الأخير ليس به جيوب }



و ليس هذا القميص سوى (الكفن) الذي سترته من دنياك أي أنّ الميت يرحل دون أن يأخذ معه أي شيء مادي من حياته ، فالأحرى بنا أن نملأ جيوب قلوبنا بالإيمان و جيوب أدمغتنا بالعلم و جيوب المحتاجين بالإحسان في حياتنا فذاك زادنا الوحيد في دار البقاء في الحياة الآخرة ..

لماذا يتزوج البشر؟!

لماذا يشدُّ الإنسانُ رحاله نحو مرفأ الزواج؟

سؤالٌ كلاسيكيٌّ عتيق، وُلد مع الأنفاس الأولى لأبي البشر "آدم" حين استوحش في جنته فأنسَّته "حواء"، وظلَّ هذا التساؤل يتردد في ردهات التاريخ، وتتعدد إجاباته بتعدد الثقافات وتباين الحضارات. ولعلَّ الإجابة الأكثر رواجاً بين العامة هي تلك التي تحصر هذا الرباط المقدس في إطار "العلاقة الحميمة" فحسب.. فهل كان هذا الطرح يوماً كافياً لتفسير هذا الاندماج الروحي العميق؟ أم أننا بصدد "مغالطة" كبرى تحجب خلفها أسراراً وجودية لم تُكشف بعد؟



في رحلتنا القادمة، سنبحرُ معاً لسبر أغوار هذا الميثاق، مقتحمين حصونه عبر ثلاثة محاور تفيض بالحكمة والمعرفة:

تشريح الرباط في مختبر العلم: لنبصر كيف يقرأ العقل لغة الاستقرار.

الزواج في محراب الدين: حيث تكتسي العلاقة ثوب القداسة.
الرؤية العلوية (في عيون السماء): لفهم الغاية الكونية من اجتماع روحيين.

فهيا بنا، يا رفيق الحرف، ن عقد قران "المغالطة" على "البراهين"،
في حفلٍ فكريّ تكون أنت فيه "إشبين" الحقيقة، لنبارك ميلاد الفهم
الجديد والجميل لهذا السر الأزلي.

الزواج من وجهة نظر علمية :

في مختبر الحياة، لا يخطو الإنسان نحو عتبة الزواج عبثاً، بل
تدفعه أشواقٌ واحتياجاتٌ تتراوحُ بين نداءِ القلبِ وصرامةِ البقاء.
فمن وجهة نظر العلم، ينعقدُ هذا الرباطُ استجابةً لدوافعٍ جوهريّة،
لعلّ أبرزها:

- مغناطيسية الأرواح: تلك الرغبة الجامحة في الالتصاقِ بذاك
الذي نحب، وتحويلِ اللحظاتِ العابرةِ إلى إقامةٍ دائمةٍ في
كنفٍ من اختاره الفؤاد.
- نداءُ الغريزة: تلبيةُ التوقِ الفطريِّ للعلاقةِ الحميميةِ في إطارٍ
يمنحها القداسةَ والاستقرارَ، ويقي الروحَ من تشتتِ النزوات.
- هندسةُ التوازن: البحثُ عن "مرسى" نفسيّ؛ حيثُ يجدُ المرءُ
صَدرًا يتسعُ لهُمومه، وأُذنًا تُنصتُ لبوحه، فتكتملُ في
حضرتهِ أركانُ السكينةِ ويستقرُّ بناءُ الوعي.
- خلودُ الجينات: تلك المهمةُ الكونيةُ لتمريرِ الحياةِ عبر الأبناء،
وضمنِ بقاءِ الأثرِ وامتدادِ السلالةِ في كتابِ الوجود.
- مشاطرةُ العبء: تحويلُ مسيرةِ الحياةِ من "كفاحٍ منفردٍ" إلى
"شراكةٍ متينةٍ"؛ حيثُ يتكاتفُ الزوجانِ في حَمْلِ أثقالِ العيش،
فتغدو المسؤولياتُ—من سعيٍ ورعايةٍ وتدبيرٍ—أخفَّ وطأةً

- حين تتقاسمها الأيدي.
- **حصاؤ السنين:** تأمين ملاذ آمن للشيخوخة؛ حيث تغدو العائلة هي العكاز الذي يتكئ عليه المرء حين يدركه الوهن، والقلوب التي ترعاه حين يرحل عنه بريق الشباب.

إنها أسباب تفيض بالمنطق، وتتشابك فيها خيوط البيولوجيا مع نسيج المشاعر، لترسم لوحة متكاملة تشرح لماذا يظل الزواج—رغم كل التحديات—الملاذ الأول والأنبيل لرحلة الإنسان على الأرض.

الزواج من وجهة نظر الدين :

تجمع الأديان السماوية، في سعيها لتهديب الروح، على أن الزواج ليس مجرد خيار اجتماعي، بل هو ضرورة وجودية وبناء لكيان العائلة المقدسة. ولعل الإسلام كان الأكثر إلحاحاً وحفاوة بهذا الرباط؛ إذ لم يره مجرد عقد مدني، بل جعله "آية" من آيات الله الكبرى، حيث يقول الباري في محكم تنزيله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

في هذا النص الإلهي، نجد "فلسفة السكّن" التي تتجاوز ضجيج الشهوات إلى سكون الأرواح، وتزرع "المودة والرحمة" كقيم علوية تفيض على العلاقة الإنسانية. ويأتي قول نبي الرحمة: «لَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ» ليقطع الطريق على الانعزال، معتبراً الزواج "نصف الدين".

وهنا نقف أمام حقيقة مهيبّة وخطيرة: كيف يمكن لهذا الرباط أن يعادل في كفة الميزان كل الفرائض والنسك والأركان الأخرى مجتمعة؟ وكيف يستقيم أن نسوي بين فعل تمليه الغريزة وبين أعلى مراتب الروحانيات؟

إنّ هذا السؤال الجوهرى يمثل "المفصل" الذي ستتكشف عنده المغالطة الكبرى؛ إذ إنّ الزواج في جوهره ليس إشباعاً لجسد، بل

هو "معراج" للنفس وتدريب شاق على نبل الأخلاق. وهذا التساؤل هو ما ينقلنا مباشرة إلى الزاوية الأعمق والأهم في رحلتنا الاستكشافية.

الزواج في عيون السماء :

في محراب الحقيقة، ينجلي لنا أن تركيز السماء على رباط الزواج ليس قيداً، بل هو تدبير علوي يصب في مصلحة الإنسان؛ ليرتقي بسعادته ويصقل نسخة منه تليق بجوار الخالق. وتتجلى هذه الرؤية من خلال ثلاثة أركان جوهرية:

- **استعادة قلب الطفل:** تمنحنا السماء بالزواج أثمناً ما في الوجود، وهو السعادة التي لا تنبغ إلا من "قلب طفل". فلكي تحيا بحق، عليك أن تكون سعيداً، ولا سعادة بلا حب، والزواج هو الضمانة لتدفق الحب من نهريْن: الشريك والأبناء. هنا تبرزُ حكمة "نصف الدين"؛ فالمرأة بموهبتها السحرية تعيد إليك براءة الطفولة، ثم يأتي الأبناء والأحفاد ليجبروك على محاكاتهم في لهوهم ونقائهم. إنها حلقة مفرغة من النور، تجعلك تغادر الدنيا بنقاء الثلج الذي أتيت به، محتفظاً بقلب لم تدنسه رتابة الأيام. ولأن "السعادة" هي الغاية، فقد أباح الله الطلاق؛ فكل رباط لا يزهر سعادة هو شتلة خالفت مراد غارسها.

- **فهم المحبة الإلهية:** يهمس لنا نبي الرحمة بأن «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله». ولا يمكن لقلبك أن يستوعب كيف تنظر السماء إليك، وكيف تختار لك الأفضل، إلا حين تذوق طعم الأبوة أو الأمومة. عندها فقط، وعبر "الحب غير المشروط" والتفاني والقلق على فلذة كبدك، ستدرك معنى العناية الإلهية؛ ستفهم لماذا يُعطي الله ويمنع، ولماذا يحمينا حتى من أنفسنا، لتتحول علاقتك بالخالق من "عبادة خوف" إلى "عبادة حب وفهم".

- سمو الحب على الغريزة: يضع الزواج الإنسان في "ميدان مجاهدة" دائم، حيث تتصارع الغريزة الفطرية مع الحب السامي. والنجاح في هذا الميثاق يكمن في جعل الحب هو القائد؛ أن تُوطّر الغريزة بإطار المودة، وتُوجّه بنور الإخلاص. بهذا الانتصار، يُولد الإنسان في قلبه ولادة حقيقية، مترفعاً عن رغبات الطين ليعيش في رحاب الروح، محولاً علاقته الجسدية إلى صلاة تسمو به نحو مراقي الكمال.



خلاصة القول، إن الزواج ليس مجرد عقد اجتماعي أو استجابة لنداء الغريزة، بل هو ملاذٌ إلهي صُمم لصيانة نقاء الروح البشرية وترقيتها. فمن خلال هذا الرباط المقدس، يستعيد الإنسان قلب الطفل الكامن فيه، مستمداً وقوده من الحب غير المشروط للشريك والأبناء،

ليعود إلى خالقه بذات الصفاء الذي ولد به. إنه يمثل "نصف الدين" لأنه المختبر الروحي الذي يشهد انتصار الحب على الغريزة، ويعيد صياغة الأنا لنتعلم من خلال تفانيينا لأسرنا كيف نُبصر رحمة الله بنا وعنايته بعباده. إن الزواج في جوهره هو رحلة ارتقاء متبادل، تروض الوحش في أعماقنا وتصلق أرواحنا، لتجعل منا كائنات تليق بجنان الخلد حيث الحب هو الغاية والوسيلة.

لا شبيه لك

تخيل معي، يا رفيقَ الحرف، كوكباً يضجُّ بنسخٍ مكررة، حيثُ الوجوهُ
مرايا لبعضها، والنفوسُ أصداً لذاتِ الصوت. تخيلُ لو أنَّ البشرَ
قُدّوا من قالبٍ واحد، كأعوادِ ثقابٍ في علبةٍ كبريتِ صماء، متشابهين
في الشكْلِ والمبتدأ والمنتهى.. كيف سيكونُ طعمُ الحياةِ حينها؟ وما
قيمةُ عودٍ واحدٍ إذا ما انكسر أو انطفأ، طالما أنَّ الزحامَ يغصُّ بمن
يحملون ذاتَ الملامح والخصائص؟ بلا شك، ستفقّد الحياةُ بريقها،
وسيغدو الموتُ حدثاً عابراً لا يحدثُ خدشاً في جدارِ الوجود، فما
حاجةُ البشريةِ لغائبٍ يملأُ فراغه آلافُ البدلاءِ النسخ؟



إنَّ التَّميِّز هو الذي يخطُّ اسمك بمدادِ الضياءِ على خارطةِ الوجود،
وهو الذي يجعلُ غيابك ثلماً لا يُسدُّ فراغها، وجرحاً في قلبِ الروايةِ
لا يندمل. فالحياةُ ليست مجرد كتاب، بل هي ملحمةٌ كبرى كلُّ
شخصها أبطال، وما يمنحهم "أدوار البطولة" هو ذلك التباينُ
الساحرُ في نبراتِ أرواحهم. ولأنَّ السَّماءَ تدركُ قداسةَ التنوع، فقد

صبغت الأرض بألوان الاختلاف؛ فوزعت الأعراق والأديان والجغرافيا والمواهب كقطع "فسيفساء" لا تكتمل اللوحة إلا بتباينها.

أنت لم تأت هنا صدفةً، بل جئت بتوقيع خاص؛ في بقعة جغرافية اختارتك، وباسم سيحمل عبيرك، وعائلة تكون مهد حكايتك. حتى تلك "الإعاقة" التي قد تظنها عبئاً أو انكساراً، ليست في جوهرها إلا ميزة فريدة تدفع بك للتخليق خارج سرب التشابه الرتيب، نحو فضاء الاختلاف الرحب. قد يمرُّ العمرُ وأنت تعاتبُ القدرَ على نقصٍ في جسدك، لتكتشف في لحظة تجلٍّ أنَّ هذا النقص كان هو "الدرعُ الخفي" الذي حماك من كوارثٍ مُميتة، أو كان الهبة العظمى التي منحتك بصيرةً عجزَ عنها المبصرون.

تأمل في حال أولئك الذين نعموا على إعاقاتهم، ظانين أنَّ السماء قد نسيتهم، حتى انفرط عقد الأمن واشتعلت الحروب في أوطانهم؛ فكانت تلك "الإعاقة" هي طوق النجاة الذي جنبهم ويلات القتال والرحيل المرّ، بينما غاب الأصحاء في غياهب الردى أو التشريد. لقد بقوا هم، ليتابعوا نسجَ خيوط الحياة، شاهدين على أنَّ ما ظنّوه حرماناً كان في حقيقته ملاذاً.

إنَّ اختلافك هو "بصمتك الوجودية" التي تمنحك مكاناً تحت الشمس؛ فإما أن تكون "أنت" بكلِّ تفاصيلك المتفردة، أو أن تذوب في زحام النسخ، فيكون وجودك وغيابك سيّان، كأثرٍ قدّم على رملٍ تذرّوه الرياح.

في بلاد الشمس المشرقة (اليابان) ، تنبت فلسفة تُدعى "وابي سابي"، وهي فنُّ رؤية الجمال الكامن في قلب العيوب، وتقديس عدم الكمال كجزءٍ أصيل من حكاية الوجود. في هذا المنظور، لا يعني "الضرر" قبحاً أو تلفاً، بل هو "ندبة تميز" تحكي قصة صمود الشيء، والاختلاف الذي يمنحه هويةً لا تتكرر. إنها دعوة سماوية، يا صديقي، لتبني مشكلاتك وأوجاعك - أياً كانت - برضا وفخر؛

فهي التي تصقلُ اختلافك المحبب للقلوب، وتجعل منك بصمةً نادرة في عالمٍ يلهث خلف الكمال الزائف.

تأمل معي تلك الومضة في حكاية "نيمو" في فلم الأنيميشن الشهير؛ حين أبى والده أن يرى في زعنفته المشوهة عجزاً، بل أطلق عليها اسم "زعنفة الحظ"؛ محولاً بذلك العيب الظاهري إلى تميمة تميز تجلب المحبة وتصنع بطلاً لا يشبه الآخرين. إنها ذات الفلسفة التي يهمس بها الكون من حولنا في مملكتي النبات والحيوان؛ فكل كائنٍ "نقصٌ" هو في جوهره سرٌّ بقاءه وفائدته. فلولا أشواك الصبار الموحشة لما صمد في هجير الصحراء، ولولا رائحة البصل النفاذة لما اكتملت لذة الطعام، ولولا ضخامة البطيخ لما احتفظ ببرودته تحت لهيب الشمس.

إن سمَّ الأفعى، وافتراس التمساح، وحتى نعيب الغراب المزعج؛ كلها "عيوبٌ" ضرورية لتكتمل سمفونية الحياة وتتنوع فصولها. لولا هذه الاختلافات التي نسميها عيوباً، لكانت الطبيعة نسخةً واحدة مكررة ورتيبة، تفتقر إلى الإثارة وتجفو عنها المتعة.

خلاصة القول: لا توارِ نقصك خجلاً، ولا تستتر خلف قناع الكمال، فربما كان هذا "العيب" هو أجمل مزاياك التي لا تبصرها الآن، ولا تدري؛ لعله الدرع الخفي الذي يذودُ عنك شراً قادماً، أو المفتاح الذي سيفتح لك أبواب خيرٍ لم تكن في حسابك. إن جراحك وتصدعاتك هي الثغرات التي يمرُّ منها النور إلى روحك.

في محرابِ قصص الأنبياء، تتبدى لنا حكمة السماء في أبهى صورها؛ فلو كانت تلك السيرُ نُسخاً مكررةً لضاعَ بريقها في لُجة التشابه، لكنَّ الخالقَ أرادَ لكل نبيٍّ "بصمةً وجوديةً" فريدة، تجعلُ من ذكره آيةً لا تُنسى. فمن "تفاحة" آدم التي افتتحت رحلة الإنسان، إلى "سفينة" نوح التي شقَّت عباب الطوفان، وصولاً إلى "ناقة" صالح، و"هيكل" سليمان، و"صليب" يسوع.. نجدُ أنَّ التميزَ كان هو "الهبة العظمى" التي مُنحت لكلٍ منهم.

إنَّ تلك الابتلاءات والآلام - من ظلم إخوة يوسف ومكائد الكهنة، إلى صَبْر أيوب الأسطوري على النوائب - لم تكن مجرد أوجاع، بل كانت هي "النَّسج الفريد" الذي غزل هويتهم التاريخية. لولا تلك المحن الخاصة لما كانت لهم تلك البصمة التي لا تُمحى؛ فالاختلاف هنا كان هو الثمن الضروري للخلود والتميز.

وهذا الناموس الإلهي يمتدُّ بظلاله ليشمل جغرافيا الحضارات وتاريخ الإمبراطوريات؛ فلا نجد دولةً أو أمةً عبّرت سجلَّ الزمان تشبه غيرها. فكلَّ حضارةٍ "توقيّعها الخاص" في معمارها، وعاداتها، وإنجازاتها، وثرواتها، وحتى في طبيعة صراعاتها. إنَّ تميزَ المواقع الجغرافية وتعاقبِ الحقب الزمنية ليس إلا تجلياً لرغبة السماء في أن يكون الوجود "لوحةً فسيفسائية" مذهشة، حيث لا يمكن لأيِّ لونٍ أن يحلَّ محلَّ الآخر، وحيث يظلُّ الاختلاف هو السرَّ الكامن وراء جمال العالم وبقائه.

تخيل معي، يا رفيقَ الفكر، لو أنَّ البشرَ قد انضوا جميعاً تحت لواء مهنةٍ واحدة؛ لو أصبحوا جميعاً أطباءً مثلاً، كيف سيكون وجهُ الحياة حينها؟ مَنْ سيجوبُ طرقات المدينة ليطهرها من العبث؟ ومَنْ سيقفُ خلف رفوف المتاجر، أو يزرع الأرض لتجودَ بخبزنا اليومي؟ مَنْ سيقتنصُّ أسرار الكون في المختبرات، أو يبتكر لنا أدوات تروّض قسوة العيش؟ بلا شك، ستصاب عجلة الوجود بالشلل، وستذوي الحياة في ركود الرتابة. إنَّ تميزَ البشر ليس ترفاً، بل هو "شرطُ التكامل" الأعظم؛ فنحن نختلف لنكتمل، ونتباين لنسدَّ ثغرات بعضنا البعض.

لا فضلَ لمهنةٍ على أخرى، ولا رفعةً لإنسانٍ فوق آخر؛ فنحن في ميزان الحاجة سواء، وفي محراب التميز أفراد. تأمل في "أصابع اليد"؛ إنها تختلف طولاً وشكلاً، لكنَّ في هذا التباين تكمنُ المعجزة. فلدينا الإبهام الرصين الذي يعيننا على الإمساك بمقاليد الأشياء ويكتب علامة الإعجاب، والسبابة التي تشيرُ نحو الحقائق، والوسطى

الشامخة، والبنصر الذي يحمل ميثاق الزواج المقدس، ووصولاً إلى الخنصر الصغير الذي يحفظ عهد الأصدقاء.

لو قُذَّت هذه الأصابع من قالب واحد، لما استطاعت اليد أن تمسك بقلم أو تغزل ثوباً. إنّ البشر من حيث "القيمة" سواسية كأَسنان المشط، لكنهم من حيث "الوظيفة" متفردون كأصابع اليد؛ لكلٍ منهم مداره ومهمته التي لا يقوم بها غيره.

انظر إلى جسدك أنت؛ فهو أعظم درس في فلسفة التكامل. لكل عضو فيه لغته الخاصة وكيانه الفريد؛ فالقلب لا يرى، والعين لا تتبص، والرئة لا تهضم، لكنها جميعاً تنصهر في بوتقة واحدة لتصنع معجزة الحياة. إنّ اختلاف هذه الأعضاء ليس تنافساً، بل هو تكاتف صامت من أجل بقائك. هكذا هي البشرية؛ فسيفسأ ملونة من المواهب والمهن، لا يكتمل جمالها ولا تستقيم حركتها إلا حين يدرك كل منا أنّ تميزه هو قطعه الضرورية في أحجية الكون الكبرى.

في الختام :

إنّ اختلافك الذي تراه نقصاً، هو في حقيقة الأمر "الإحداثية" الوحيدة التي تضعك على خارطة الوجود؛ فلو لا هذا التباين لكنت هباءً منثوراً في زحام النسخ. آمن يقيناً أنّ ما تظنه عجزاً قد يكون هو "الدرع الخفي" الذي يذود عنك كوارث الغد، أو "المغناطيس" الذي سيجلب لك عطايا لم تخطر على قلب بشر. فالاختلاف ليس خروجاً عن الصف، بل هو الجسر الذي نعبر فوقه لنكتمل؛ فنحن لا نخدم الحياة بتشابهنّا، بل بتكامل جراحاتنا ومواهبنا ليعين بعضنا بعضاً.

تأمل في ملكوت الأشجار؛ فبينما تتسابق الأشجار المثمرة لتزهر في ترف الربيع ودلاله، تبرز شجرة الأكيدينيا المتفردة، لتكسر نواميس الرتبة وتعلن ميلاد زهرها في وحشة الخريف. إنّ تمردّها على "العادات والتقاليد" الكونية لا يعني شذوذاً أو قبحاً، بل يجعل منها آية في الفرادة؛ فهي التي تمنحنا ثمارها الدافئة في شتاء باردٍ بخلت فيه

كلُّ الأشجار الأخرى بجودها.

لذا، اجعل من اختلافك "أكيدينيا" الروح؛ فما تراه نقصاً فيك هو ميزة لا يملك الآخرون ثمنها، وقوة تعجزُ القوالبُ الجاهزة عن احتوائها. أنت لستَ نسخةً مشوهة من أحد، بل أنت "أصلٌ" فريد، خُلق بذكاءٍ إلهي ليزهرَ في الوقت الذي يراه الخالقُ مناسباً، وبصورةٍ تجعلُ من وجودك ضرورةً لا غنى عنها في سمفونية الكون الكبرى.

و أوحينا إليك

= أين هو أخوكم الصغير يا أولاد ؟

نظر الصبي **5** سنوات و الفتاة **8** سنوات إلى بعضهما بقلق ثم نطقت الفتاة بصوت مرتجف :

= لا نعرف أمه .. كنا نلعب لعبة الاختباء في الساحة أمام المنزل ثم لم نره مجدداً فظننا انه صعد إلى المنزل الأم مرتاعة ..

= ماذا تقولين ؟ هو لم يعد إلى المنزل !!..

شرعت الأم بجزع تبحث في غرف المنزل دون جدوى ، ثم سارعت بالنزول إلى ساحة الحي و بحثت في كل مكان دون أي أثر لابنها الصغير **3** سنوات ... خطر لها أن يكون قد صعد إلى سطح المبنى و انقبض قلبها من مجرد فكرة أن يكون قد سقط منه فهرعت تصعد سلالم المبنى ثلاثة درجات معاً و الأدرينالين في ذروته حتى بلغت السطح لكن لا أثر هناك أيضاً لابنها .. نظرت للأسفل و بحثت في حدائق البيوت الأرضية عن أي أثر له دون نتيجة .. فعادت إلى منزلها و اتصلت بزوجها الذي عاد من عمله على الفور و تم تعبئة جميع أطفال الحي للبحث عن الابن الصغير في كل مكان عله اختبأ في لعبة الاختباء بعيداً في الأحياء المجاورة فتاه عن المنزل.. لكن كأن الابن الصغير تبخر بلا أثر .. لم يبقَ هنالك من تفسير لغيابه سوى احتمال أن يكون خطف .. فقرروا إبلاغ الشرطة .. لكن قبل أن يتوجه الأب إليهم .. و بينما كانت الأم الجزعة تقطع صالة المنزل بجنون جيئةً و ذهاباً وقع بصرها على درج المكتبة السفلي ذي البابين.. و دون تفسير واضح شعرت بصوت يهمس في أذنها بأن

ابنها بالداخل رغم أنّ وجوده هناك أمر غريب و غير منطقي
أبداً !!



لكنها كالغريق الذي يتعلق بقشة هرعت إلى الدرج و فتحت بابه لتجد
ابنها بالفعل غافياً هناك و قد ازرقّ وجهه من قلة الأوكسجين .. و
لو تأخرت قليلاً أكثر لاختنق بلا شك .. فما حدث في الواقع أن الطفل
الذي جهل أين يختبئ في اللعبة صعد إلى منزله و اختبأ في درج
المكتبة كونه المكان الوحيد الذي يعرفه لكنه غفا من التعب .. و
بغضّ النظر عن تسمية ما جرى معه و مع أمه كوشي أو إلهام أو
حدس ، فالأكيد أنه لولا هذه الظاهرة الغريبة لفقدت الأم ابنها إلى
الأبد ..

هذه ليست قصة مختلفة أبداً .. بل حادثة جرت في منزلنا في طفولتي
و كنت انا الابن المفقود .. و لطالما أثرت هذه الحادثة في وجداني
و دفعتني للتفكير الحثيث ، هل هذه الحوادث التي تجري معنا

اعتباطية ، أم أنّ للسماء كلام آخر ، بمعنى أنها هي من أوحى لأمي أن تبحث عني في ذاك المكان الذي يستحيل أن أختبئ فيه و لا تفسير منطقي لقيامي بذلك و أنا على بعد دقائق من الاختناق و الموت .. و يمكنك يا صديق الفكر ان تدرك ببساطة أنّ الصوت الذي أوحى لأمي أن تبحث عني هناك هو إلهام رباني لا غير ، إذ لا تفسير آخر له أبداً ، مما يرسم ملامح سرنا الجديد : (و أوحينا إليك) و سؤاله الجوهرى التالي :

((هل الوحي هو حصري لأنبياء الله و رسله عبر ملائكته ؟ أم أنّ الوحي ظاهرة تحكم حيوات البشر جميعا عبر طرائق مختلفة ؟))

إنّ الجواب المبدئي الوحيد هو كالتالى :

((الوحي بلا شك هو لجميع البشر ، بل إنه العامل الأهم الذي يسير حياتنا بالاتجاه الذي يرغبه الله لنا))

كيف ذلك ؟ هذا ما سنحاول تحليله بدقة أكثر خلال الصفحات التالية عبر 4 محاور هامة :

تعريف الوحي ..

الوحي هو ظاهرة تنجز بطرائق متنوعة لكنها بالمحصلة تدفعنا للقيام بعمل قد يكون غير منطقي أو حتى ينطوي على مخاطرة لنا في بعض الأحيان .. لكننا ننصاع له صاغرين دون سبب أو تفسير واضح و كأننا نستشعر بالفعل بأنّ السماء تخاطبنا من خلاله .. و دائماً ما تكون لاستجابتنا له تأثيرات هامة على حياتنا سلباً أو إيجاباً من منظورنا القاصر على أقل تقدير ، و إن كنت على يقين بأنها تأثيرات إيجابية على الدوام و لو تبين لنا العكس بسبب النتائج الأولية التي لا تنسجم مع مصالحنا الآنية أو رغباتنا الداخلية النزقة ..

دور الوحي في حياتنا ..

يمكننا تلخيص هذا الدور بجملة مقتضبة جوهرية :

(الوحي هو ناظم خطانا في الحياة)

أي كجهاز التحكم بالتلفاز الذي تنتقل به من محطة إلى أخرى ، فالله بالوحي ينقلنا عبر محطات حياتنا واحدة تلو الأخرى ..

و إن عاد أي منا إلى المفاصل الهامة في حياته التي شكلت هيئة مستقبله و ملامحه من وظيفة ، زواج ، تكوين عائلة ، سفر و غيرها .. لتبين له ببساطة أنه عند كل مفصل منها صادفته حادثة غريبة دفعته لاتخاذ قراره النهائي الحاسم الذي غير مستقبله جذرياً .. فنقلته من مكان لآخر أو من وظيفة لأخرى أو من شخص لآخر و هكذا .. و هذه الحادثة قد تأتي بصور عدة مما ينقلنا إلى المحور الثالث و الأهم في حديثنا .

طرائق السماء في الوحي إلينا و مخاطبتنا ..

طرائق متنوعة تدفعنا لفعل ما تريده السماء منا و يصب في مصلحتنا بشكل أو بآخر كما أوّمن و هذه الوسائل هي :

○ **الملائكة :** و هي طريقة الله في مخاطبة رسله و أنبيائه و قد خصهم بمفردهم بها ، و يتكفل بهذه المهمة ملاك الوحي جبرائيل الذي ذكر في جميع الكتب السماوية بالاسم ذاته ..

○ **الإشارات :** و هي مجال واسع من الحوادث التي يمكن تفسيرها بطرق معينة لدفعنا للقيام بأفعال محددة .. كحال الممثل الذي تقدم لاختبار من أجل بطولة فلم يلعب فيه دور رجل إطفاء .. فاحترق منزل في حيه و ملأ رجال الإطفاء المكان فاعتبر ذلك إشارة إلى أنه سيحظى بالدور الذي سيغير مسيرته المهنية ، و بالفعل حصل على

الدور لاحقاً و أدّاه بمنتهى الإتقان فأصبح مشهوراً ..

و يروى عن الجاحظ قصة طريفة حدثت معه عندما غادر منزله في زيارة لصديق فرأى في طريقه مجموعة أطفال يلهون ببذور التمر و قد شكلوا منها كلمة (لا) ففسر الجاحظ ذلك بأنها تشير لجملته : (لا تمر) و اعتبرها إشارة من السماء كي لا يتابع طريقه لأنّ مكروهاً سيصيبه و بالفعل قفل عائداً إلى منزله !

و في تجربة شخصية حدثت معي في امتحان الشهادة الإعدادية فقد اتصل بي صديق في الليلة السابقة لامتحان مادة العلوم الطبيعية و استشارني بخصوص أهم صور الكتاب التي قد يرد سؤال عن مسمياتها كون وقته لم يسعفه لمراجعتها ، فأخبرته ان ينتظر قليلاً ثم جلبت كتاب مادة العلوم و دعوت له أن توفقه السماء ثم فتحت الكتاب بشكل عشوائي لتظهر لي صفحتان و فيهما صورة وحيدة للجهاز البولي علماً أنّ الكتاب يحتوي ما يفوق **100** صورة ، فأخبرته أن يدرس هذه الصورة جيداً .. و في صبيحة يوم الامتحان التالي تم توزيع أوراق الأسئلة علينا لأجد فيها صورة الجهاز البولي بالفعل ! فهل هذه صدفة أم شكل من أشكال الوحي ؟

○ **الأحلام** : فكثير منا بلا شك راودته أحلام معينة دفعته لاقتناص فرص معينة أو تجنب كوارث قادمة محدقة ، و قد سمعت ذات مرة قصة حقيقية عن شخص رأى في حلمه بأنه سيسافر في وسيلة نقل ستعرض لحادث فأجلّ سفره رغم حجوزاته و ضرورته، و بالفعل تعرض باص النقل الذي كان سيقله لحادث سير عنيف ذهب ضحيته العشرات لكنه نجا ..

○ **الأشخاص** : فكثيراً ما نلتقي بأشخاص في الوقت المناسب فيغيرون حياتنا جذرياً .. كالعاطل عن العمل الذي يلتقي صدفة بشخص غريب في موقف ما و يصبحان صديقين فيكتشف العاطل أن هذا الشخص يملك عملاً بوظيفة شاغرة ملائمة تماماً له .. أو

كلقائنا بشريك حياتنا الذي نهيم في حبه مباشرة ثم نتزوجه و نتابع
درب الحياة سوياً و نكون عائلة .. و غيرها من الأمثلة التي لا حصر
لها ..

○ **كتاب تقرأه أو قصة تسمعها :** و في الحالتين نسمع فكرة ما قد
تقلب حياتنا رأساً على عقب و تدفعنا للإحجام عن عادات سيئة
نمارسها أو نقدم على فعل إيجابي يغير حياتنا نحو الأفضل ..

○ **الأفكار الطارئة (الحدس) :** و خير مثال على هذه النقطة هي
تجربتي الشخصية التي رويتها في مطلع المغالطة عندما قام حدس
أمي الغريب بدفعها للبحث عني في درج المكتبة .. كذلك حال الأفكار
التي راودت العلماء و الفنانين فقادتهم إلى أهم اختراعات البشرية و
اكتشافاتها أو زودت العالم بتحف فنية أو أدبية غيرت حيوات كثيرين
.. و في القرآن إشارة إلى هذه النقطة في الآية التي تقول :

(و أوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في
اليم و لا تخافي و لا تحزني إنا رادوه إليك و جاعلوه من
المرسلين)

و هي إشارة صريحة إلى أن حدس أم النبي موسى كان عبارة عن
وحي بحد ذاته كما أكد الخالق رغم أنها ليست بنبي أو رسول .. و
قد شاهدت ذات مرة فيديو يتحدث عن جريمة ذهب ضحيتها عائلة
بأكملها من قبل سارق مجرم لكن نجت منها إحدى فتيات العائلة
عندما راودها إحساس غريب أن تبیت عند صديقتها في تلك الليلة
ففعلت و نجت بذلك من الموت !!

○ **الحوادث :** فعلّ حادثة بسيطة في حياتنا توحى لنا بأفكار عظيمة
قد تغير حياتنا و ربما حياة البشرية برمتها ، كحال تفاحة العالم اسحق
نيوتن التي قادتته إلى اكتشاف قانون الجاذبية أو صابونة العالم
أرخميدس التي قادتته إلى قانونه الشهير أو الحروق التي سببها
الراديوم للزوجين ماري و بيير كوري فأوحت لهما بأنه عنصر ذو

خصائص مشعة و غيرها..

○ **الرؤيا (الاستبصار)** : و هي قدرة أشخاص معينين على استقراء المستقبل المبهم كهبة ربّانية ، و التاريخ يعج بهؤلاء كحال العراف الفرنسي الشهير نوستراداموس في العصور الوسطى .. أو عرافة دلفي و العراف تيريسياس عند الإغريق أو العرافة البلغارية العمياء بابا فانغا في العصر الحديث .. و غيرهم كثيرون .. دون الإغفال عن حقيقة وجود مدعين كثر كمشعوذين يستغلون البشر من أجل المال مقابل أكاذيب و آمال زائفة يقومون بتأليفها بخصوص حياتهم الشخصية و المهنية ..

○ **الرؤيا المسبقة (ديجافو)** : و هي ظاهرة تشيع عند بعض البشر عندما يشعر الإنسان بأن ما يمرّ به قد سبق له و اختبره من قبل بالفعل على نحو غير مفسر ، مما يدفعه لرد فعل يمكنه من اقتناص فرصة أو تجنب خطر محقق كونه يستشعر إلام ستؤول الأحداث كونه اختبرها من قبل بطريقة مبهمة ..

○ **طرق غريبة أخرى لا تفسير لها** : و ضمن هذه الفئة أورد قصة غريبة للغاية نشرتها المجلة الطبية البريطانية عام **1997** حول امرأة ذكرت لهم أنها سمعت صوتين يطلبان منها مراجعة عنوان معين في لندن، وبأن تذهب إليه بشكل فوري كونها تعاني من ورم دماغي، وقامت المرأة التي لم تكن تعاني من أي ألم بالذهاب إلى ذلك العنوان من باب الفضول لتصل في النهاية إلى مستشفى للمسح الدماغي في لندن، وعند قيام المرأة بالفحوصات تبين وجود ورم دماغي لديها بالفعل

باشترت القيام بجلسات العلاج الفوري والمكثف، وبعد فترة سمعت مرة أخرى نفس الصوتين يخبراها بأنها تعافت من الورم وقاما بشكرها لتصديقهما، وبالفعل أجرت المرأة الفحوصات وتبين شفائها من الورم بشكل فعلي .. فهل هنالك تفسير آخر لهذه الأصوات سوى كونها شكلاً من أشكال الوحي بدورها .. !!

و كما ترى يا صديقي فإن جميع هذه الطرائق هي وسائل حقيقية تخاطبنا السماء من خلالها كوحى بدون ملائكة على نحو يرسم درب حياتنا و يحدد مصيرنا المستقبلي ..

و للسماء أساليب خفية كثيرة أخرى لتحقيق غاياتها بين البشر..

التفسير العلمي للوحي..

في الحقيقة العلم يقف عاجزاً مكتوف اليدين أمام قدرات البشر المبهمة على الإحساس بقرب حدوث أمور معينة أو غرابة الإشارات و الحوادث التي تصادفهم و ترتبط ارتباطاً غريباً بأحداث قادمة تليها ، لكن لديّ رأي شخصي متواضع يقول بأنّ هذه الأحاسيس الغامضة التي تراودنا على حين غرة فتلهمنا على القيام بأفعال معينة ليست سوى ذبذبات صادرة عن مصدر خارجي في الكون أو خارجه فتستقبلها مستقبلات نوعية خاصة بتكوين دماغ كل إنسان كحلم أو رؤيا أو فكرة أو صوت و نترجمها فعلياً على أرض الواقع..

كما حدث مع السيدة ذات الورم الدماغي مثلاً ، تماماً كآلية عمل جهاز الراوتر أو كما تلتقط الصحون إشارات القنوات التلفزيونية .. و ربما كانت الملائكة نفسها مجرد مجسمات هولوغرامية ضوئية تتجسد أمام الأنبياء و تتحدث معهم وفق برمجتها المسبقة .. وهذا مجرد رأي للطرح أيضاً..

قبل أن نختم حديثنا عن الوحي ، أتمنى يا صديقي أن تتأمل قليلاً في القصة العجيبة التالية عن (وحي الله) للبشر و تأثيره الخطير و القوي على مصيرنا:

{ كان الرئيس الأمريكي السابق تيودور روزفلت يخوض السباق الرئاسي في عام **1912** عن الحزب التقدمي ، عندما بدأ جون شرانك و هو مالك إحدى الحانات بمطاردته بعد أن راوده حلم غريب

صرّح به لاحقاً بالقول : (لقد رأيت في أحد أحلامي أنّ الرئيس ويليام ماكينلي نهض من كفنه وأشار إلى رجل يرتدي ملابس راهب عرفت أنه ثيودور روزفلت ، و قال الرئيس المتوفي ، هذا هو الرجل الذي اغتالني ، اثاروا لي) ، و هذا أول وحي في قصتنا سيدفع المدعو جون إلى محاولة اغتيال الرئيس روزفلت .. أما الوحي الثاني في قصتنا هو أنّ روزفلت كان قد أعدّ في يوم محاولة اغتياله خطاباً مطوّلاً من **50** صفحة ليخاطب به الجماهير ، و رغم أن مساعده عرض عليه وضعها في ظرف أو حقيبة فإنّ روزفلت أصرّ بوحى داخلي على وضعها مطوية في جيب سترته ..

و في مستهلّ خطابه تسلل جون شرانك بين الحشود و أطلق عليه الرصاص من مسدس نحو قلبه مباشرةً فسقط روزفلت على الأرض و قد ظنه الجميع قد فارق الحياة .. لكنّ المذهل في القصة أنّ الرصاصة اخترقت خطابه الطويل المطويّ حتى استقرت في جدار الصدر دون أن تخترقه نحو القلب بفضل صفحات الخطاب الموجودة فوق القلب تماماً و التي امتصّت اندفاع الرصاصة ..

نهض روزفلت بمساعدة رجاله و قال للجمهور: (أصدقائي، أودّ أن أطلب منكم الهدوء بقدر الإمكان ، إنني لا أدري إذا كنتم تستوعبون أنني تعرضت لإطلاق النار، لكن الأمر يحتاج لأكثر من ذلك من أجل قتل الثور القوي ، و لحسن الحظ ، كنت أحمل خطابي الطويل في جيب سترتي ، وهو في الغالب أنقذني من الموت و منع مرور الرصاصة إلى قلبي ، الرصاصة داخل جسمي الآن، لذا فلن أستطيع أن ألقى خطاباً طويلاً كما كنت مقرراً، لكنني سأبذل قصارى جهدي لأنهييه..) و بالفعل أنهى خطابه الذي أعده بينما لا تزال الرصاصة بين ضلوعه !! }

و كما ترى يا صديق الحرف فإن حلم جون أوحى إليه بمحاولة الاغتيال و حدس روزفلت أوحى إليه بوضع خطابه مكان اختراق الرصاصة لجسده بالضبط فنجا من موت محقق .. !!!

في ختام مقاربتنا لسرنا الجديد (و أوحينا إليك) من الأنسب ربما
ألا نقول :

= الوحي ظاهرة مقتصرة على الأنبياء و الرسل فقط و تتم عبر
الملائكة حصراً ..

بل أن نقول :

= الوحي لجميع البشر بشهادة القرآن في قوله تعالى :

((وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً))

أي أن الخالق يخاطب الجميع وحياً .. فهل هنالك أوضح من
ذلك ؟

كما أن الوحي يتم بطرائق متنوعة و لغاية واحدة و هي ضبط حياة
البشر و سير الأمور فيرسم طريقنا و ملامح مستقبلنا بحكمة إلهية
نبيلة تصبّ في مصلحتنا على الدوام ..

لا تستهن يا صديقي بأي إشارة تأتيك في حياتك على أي صورة ..
شخص ، كتاب ، إحساس ، حلم ، حادثة ... واعلم أن السماء بذاتها
تخاطبك من وراء حجاب عبر ذبذبات كي تدلك إلى ما هو أفضل لك
.. لذا حاكم بعقلك هذه الإشارات كي تستنبط منها الحقيقة و تترجم
كلام السماء إلى فكرة واضحة لتقوم بردّ فعل عليها يغيّر حياتك ..

قال تعالى في الذكر الحكيم :

(و أوحى ربك إلى النحل)

فإن كان الخالق يوحى لهذه الكائنات بما ينبغي عليها القيام به فما
قولك بأهم خلقه و غايته من الدنيا :

(الإنسان)

ألا يوحى له أيضاً ما ينبغي عليه فعله عبر طرق كثيرة كالتى ذكرناها
في هذا السرّ الجديد !!؟

هل الله موجود؟!

في إحدى البارات الحديثة وسط عاصمة ساحل العاج أبيدجان جلس شاب في أواخر الأربعينيات من العمر أشقر الشعر و قد غطى الشيب صدغيه قليلاً كتصحرٍ مأكّرٍ ينهش في الغابات تدريجياً ليترجم قسوة الحياة عليه ، معالمة حادة و جادة كنصل سيف ويليام والاس و هو يقود حرب اسكتلندا ضد إنجلترا ، لكنك إن أمعنت النظر أكثر ، رأيت أنها تخفي خلفها ملامح ودودة في الأساس لكن الزمن مرّ من هناك فترك بصماته عليها .. على البار أمامه انتصب كأس مشروب روحي لا ينسجم أبداً مع قناعاته التي تشكك كثيراً بوجود الروح ، في حين أخذ الرجل من مكانه يتأمل طاولات البار المبعثرة و يحدق في ملامح كل شخص عليها .. إن وراء كل وجه منهم حكايته الخاصة ، و لو قدر لأفريد هتشوك بنفسه أن يعرفها لما صدق حيثياتها .. فالواقع على الدوام أغرب من الخيال..

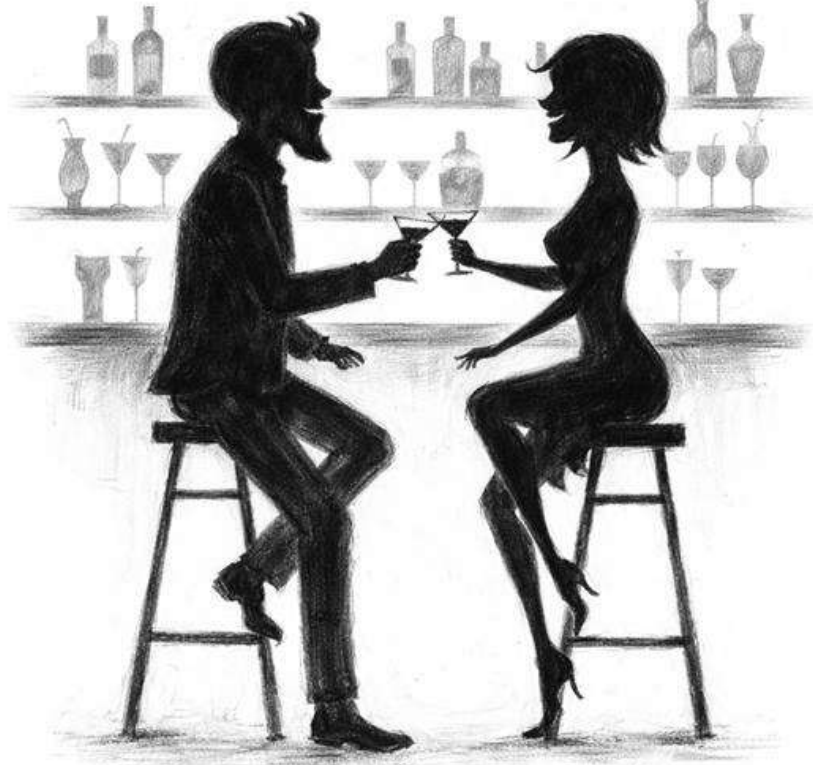
أمسك هاتفه الخلوي و فتحه ليقراً تعليق قناة (متعة العلم) على مداخلته على الفيديو الأخير فيها الذي يتناول معرفة السيد المسيح بعلوم الفيزياء و تحليل معجزاته من خلالها كالسير على الماء أو إحياء الميت، قناة الشاب تحمل اسم الكمنجة الكونية .. و كان تعليقه على ذلك الفيديو :

(هنالك مبدأ فيزيائي آخر يدعى مبدأ الشك أو عدم اليقين لهايزن بيرغ الذي يقول بأن كل ما ذكرته هذه القناة المحترمة يحتمل الصواب و الخطأ .. فلا شيء مؤكد في هذا الكون.. ربما لم يكن المسيح موجوداً أو أنه لم يكن نبياً أو أنه ادعى النبوة .. حتى الله نفسه الذي أرسله ربما ليس موجوداً بالأساس ، فهل لديكم دليل مادي محسوس على وجود هذا الإله بحسب قوانين و دراسات الفيزياء التي تتحدثون عنها و تزعمون أن المسيح كان على دراية بها ؟!!..)

أما رد قناة (متعة العلم) على تعليقه فكان غريباً ..

(شكراً على مداخلتك أخي أو أختي .. وجهة نظر جميلة سأرد عليها بالفيزياء نفسها .. الفيزياء تؤمن بأن إثبات وجود أي شيء يكون بإحدى طريقتين .. إما أن تراه بعينك و إما أن ترى آثاره التي لم تخلق من العدم بحسب قانون السببية .. فمثلاً الإلكترون مثبت أنه موجود فيزيائياً رغم أن أحداً لم يره ، و لكن بحسب كثير من التجارب كتجربة الأشعة المهبطية اكتشف العلماء آثاره فعرفوا أنه موجود حتماً ، و الله كالإلكترون تماماً لا نراه لكن آثاره في كل شيء من حولنا .. و من يريد التغاضي و التعامي عن هذه الآثار .. فهو حرّ بالطبع و لكنه يخالف علم الفيزياء نفسه الذي يتحدث بمنطقه !!..)

ابتسم بدهشة .. أحسنت اللعب يا صديقي ! قال لنفسه ثم فكر قليلاً بكيفية الرد .. لكن في تلك اللحظة دخلت البار فتاة في الثلاثينيات ، سمراء جذابة بملابس مثيرة كحمامة ملونة مغناج تمشي الهوينى على الأرض متجهة مباشرة نحوه ثم حطت على كرسي بجانبه بحكم أنه الكرسي الوحيد الشاغر .. طلبت كأس مشروب بدورها ..



بحكم طبيعة البارات و تجاوز كرسيهما .. فلم يكن هنالك مناص من أن يدور بينهما حديث ما..

التفتت الشابة إليه و ابتسمت بدهشة ، ما الذي يفعله هذا الأجنبي الاشقر في بار مخصص للأفارقة؟! .. ابتسم لها بالمقابل و هو يرمق الصليب الذهبي المعلق على رقبتها مع مجسم المسيح عليه .. وضع هاتفه جانباً و خاطبها :

= كأس مشروب في نهاية يوم طويل لا مثيل له .. يذهب جميع الهموم..

= بالفعل .. تنسى اللحظات العصيبة التي مررت بها نهاراً ..

= بيتر إيفانز ..

= من أوروبا ؟

= والدي أوروبي .. أما والدتي فمن هنا ..

= وشم ستيفين هوكينغ بكرسيه الشهير على ساعدك يخبرني بأنك عاشق للعلوم ..

= نظرة ثاقبة .. أنا أستاذ في الفيزياء و الرياضيات ..

= تشرفت بمعرفتك .. أنا كريستينا براون .. عارضة أزياء..

ابتسم ..

= هذا واضح و جليّ من جمالك الساحر .. و أناقتك المذهلة .. إن المسيح محظوظ بالوجود على عنق حسناء مثلك .. أنا على بعد خطوة واحدة من العودة لحضور قداس الأحد مجدداً .. فهذا الجمال الساحر لا بدّ أنه من صنع إله..

قابله بابتسامة مجاملة ..

= أشكرك .. أنت شخص ملحد إذاً ..

= ليس بالضبط .. أنا أتبع الفلسفة اللا أدريّة..

= لا أدريّة !

= أجل .. فلسفة تعتمد على كلمتي لا أدري في الإجابة
على كافة التساؤلات التي لم يثبتها العلم بعد .. و منها وجود الإله
من عدمه .. فنحن لا نستطيع إثبات ذلك
علمياً .. كما أننا بنفس الوقت لا نستطيع نفيه أيضاً .. أنت متدينة
على ما يبدو ؟

= بلى .. ربما ليس هنالك دليل محسوس على وجود خالق للكون ،
لكن هنالك آثار تدل على وجوده بلا شك ، و منها حوادث عديدة
جرت معي في حياتي ..

= لكل شيء تفسير علمي في هذا الكون .. لكننا نعزي كل شيء
نعجز عن تفسيره إلى قوة غيبية .. و كما يقال :

(الإله حاجة و ضرورة .. لو لم يوجد .. لخلقناه بأنفسنا)

= وجهة نظر .. لكن من وحي عملك كأستاذ فيزياء .. هنالك مقولة
قرأتها ذات مرة على موقع التواصل الاجتماعي و أعجبت بها فعلاً
ذات صلة بنقاشنا هذا ، و رغم جهلي الكامل بالفيزياء لكنني فهمت
المغزى الرئيسي منها..

= أثرت فضولي .. علام تنصّ ؟

= تقول على ما أذكر :

(الله مثل الإلكترون تماماً .. لا يمكننا رؤيته .. لكننا نرى

آثاره بشكل واضح)

= صحيح ، عبارة شهيرة في أوساط الفيزياء .. و هي غريبة و
معبرة بالفعل .. و الغريب أكثر أنها ثاني مرة أسمعها هذا اليوم و
كأنها إشارة إلى شيء ما !!! على كل حال بسبب هذا المنطق الجميل
الذي تحدثت عنه .. فأنا لست شخصاً ملحداً بالكامل .. بل لا أدري
فحسب ، و يمكنني القول أنّ المسيح على رقبتك أزاحني كالإلكترون

من مدار بعيد عن نواة الإيمان إلى مدار أقرب إليها محرراً طاقة هائلة في داخلي ، كما يفعل الإلكترون بالفعل عندما يقترب من النواة..

كانت كريستينا قد أنهت المشروب أمامها فنهضت مبتسمة و قد فهمت ما يرمي إليه ..

= جميل .. وفر هذه الطاقة للأيام الصعبة ، فالدنيا تتغير في غمضة عين .. الآن اعذرني عليّ المغادرة فقد تأخر الوقت و مررت هنا لأجل المشروب فقط .. سررت بالتعرف عليك و بالحديث معك..

= مشاعر متبادلة ، رافقتك السلامة .. فليحرسك أبونا الذي في السموات..

ابتسمت كريستينا و اتجهت نحو الباب حتى خرجت و ابتلعها الظالم كأنها كانت طيفاً عابراً أو حلماً ..

هز الأستاذ بيتر رأسه بدهشة ثم طلب كأس مشروب آخر.. لقد أثارت كريستينا صراعاً داخلياً قديماً في أعماقه بين حقيقة وجود الإله من عدمه..

هل الإله موجود بالفعل ؟

سؤال طرحه مليارات من البشر عبر الزمن خلال فترات مختلفة من حياتهم و شكل صراعاً داخلياً هائلاً في ذواتهم .. و لا شك أن تكرار هذا السؤال باستمرار له ما يبرره على أرض الواقع ، فالجواب عليه مصيري و سيغير قناعات الإنسان جذرياً ، لأنّ الفارق هائل بين أن يكون مصيره إلى العدم بعد موته أو أن يكون مصيره الخلود بعده ، كما أنّ ذلك سيحدد طبيعة حياته المستقبلية و طريقة تعامله مع البشر الآخرين و الظروف و الحياة ككل من حوله .. و هذا السؤال الغامض الذي دار و يدور كزوبعة في عقول المليارات هو عمود الخيمة في سرنا الجديد الذي يعتبر أحد أهم الأسرار في الحياة (أثر الإلكترون)

لينبتق معه سؤال محوري ثانٍ :

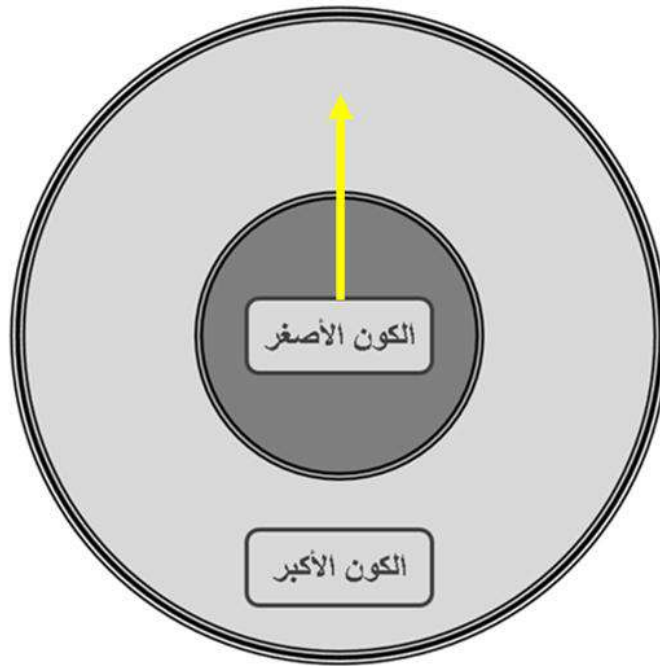
(هل إلحاد بعض البشر و إنكارهم لوجود خالق للكون منطقيّ و مبرر ، أم أنه مغالطة جديدة غيرها من مغالطات الحياة ؟)

للإجابة على هذا السؤال بشكل مناسب و وافٍ سنقوم بمقاربتة عبر زاويتين :

- ذرائع الملحد في إنكاره وجود الله ..

- دلائل وجود الله ..

فهيا بنا يا صديق الحرف نسافر معاً خلال سرنا الحساس و الهام هذا في مغامرة شيقة نشق فيها الفضاء الكوني لنصل إلى حدود الكون و نكتشف هل هذا الكون بلا حدود أي لا خالق له؟! أم أن له حدوداً بالفعل يمكننا تجاوزها لنبلغ العالم الآخر أو الكون الأكبر ليكون الله حقيقة ثابتة لا شك فيها!؟..



❖ ذرائع الملحد في إنكاره وجود الله :

يصنف الملحدون بشكل عام إلى نوعين :

● الملحد الموجب : يستعين بنظريات علمية و فلسفية لإثبات عدم وجود الله ..

● **الملحد السالب :** يكتفي فقط بعدم الإيمان بوجود الله نظراً لعدم قناعته بالأدلة التي يقدمها المؤمنون بوجوده أو بطبيعة الأديان ..
و بناء على هذا التصنيف يمكننا تقسيم ذرائع الملحدين إلى نوعين بدورها :

● **ذرائع علمية تقدس المادة وتؤمن بأزلية الكون وبتطور**

الإنسان من خلية وحيدة : و الحقيقية الغريبة و المثيرة هنا أنّ جميع هذه الذرائع لا تتناقض إطلاقاً مع وجود الله ، فالله :

✽ جعل العلم و بالتالي المادة مقدّسين و أمرنا باتباع قوانينهما لتفسير ظواهر الحياة من حولنا ، فالله خلق الكون وفق قوانين علمية تجري بثبات مستمرّ و الدين ينبغي ألا يتعارض مع العلم كما أكد الخالق ..
و لا ننسَ مقولة نبي الرحمة محمد الشهيرة و التي تختصر كل شيء عندما سأله أحد الناس : (هل أترك ناقتي و أتوكل) ، فأجابه : (اعقلها و توكل) أي اربطها و اتبع قوانين العلم ثم توكل على الله
✽ يصف نفسه في الأديان بأنه أزلي فيقول عن نفسه بأنه (الأول بلا بداية) فلماذا يسهل علينا الإيمان ببساطة بأنّ الكون أزلي بلا بداية و يصعب علينا الإيمان بأن خالق الكون أزلي بحد ذاته كهذا الكون بالضبط !؟

✽ لم ينفِ تطور الإنسان ، فالتطور البشري لا يتعارض مع فكرة الخلق ، بل قد يكون وسيلة إلهية لتكوين الإنسان و لا ننسَ أن الإنسان يتكون حرفياً من خلية وحيدة في البدء (البويضة الملقحة) و يمر خلال تطوره كجنين بمراحل يكون فيها قببج الشكل و ناقص التكوين حتى يكتمل نموه تماماً و يولد أخيراً كطفل جميل محبوب للقلوب ،
أوليس هذا هو جوهر عملية التطور ؟! و بجميع الأحوال ما يهمّ فعلياً أنّ النتيجة النهائية للإنسان سواء خُلق دفعة واحدة أو عبر عملية تطورية هي كونه (في أحسن تقويم) و لا يمكن إطلاقاً للصدفة و العمليات العشوائية أن تنتج هذا المخلوق الفريد كمعجزة ربانية حقيقية بحد ذاته ..

● ذريعة عدم الاقتناع بمضمون الأديان : لاشك أن الاختلافات

الجوهرية في بعض النقاط بين الأديان و التشويه الذي طال نقاطاً أخرى كثيرة عبر الزمن على يد الحكام و كهنة الدين ، خلقت بذرة شك كبيرة في نفوس بعض البشر تجاه هذه الأديان ، لكن هذا لا يبرر الإلحاد أبداً ، فلا يمكننا أن نغفل عن 4 حقائق هامة في هذا الصدد :

⊙ تلاعب البشر بالأديان بعد موت الأنبياء كما قلنا و سوء فهم الدين يفسّر ان الجانب المظلم للأديان ، و القصور هنا هو قصور بشري و ليس سماوي ..

⊙ للأديان وجه جميل آخر لا يمكن نسفه و تجاهله ، يبني الإنسان و المجتمع و ينظم شؤون الحياة في كافة النواحي و يربط وجودنا بغاية ذات معنى بعد الموت ..

⊙ الأهم من ذلك كله أن الإيمان و التدين ليسا وجهين لعملة

واحدة .. فإن أنت لم تعجب بمضمون الأديان فذلك لا يعني أن الله غير موجود بل هذه مغالطة كبيرة بحد ذاتها .. فيمكنك أن تكون مؤمناً بوجود خالق و غير متدين مثلاً !!

⊙ لا ننسَ بأن الله رحيم و ديمقراطي مع عباده فلا يجبرهم على الإيمان بالقوة و التهديد كما يصور بعض كهنة الدين ، بل ترك للبشر حرية المعتقد ، بل حتى حرية عدم الإيمان بوجوده فقال بكل وضوح :

(من شاء فليؤمن ، و من شاء فليكفر)

فالله واثق من (إبداع و إتقان خلقه) و من (عظمة العقل الذي منحه للبشر) و هذان العاملان كفيلاّن عبر التفاعل مع بعضهما بالوصول بالإنسان إلى معرفة خالقه و المسألة مسألة وقت و اختبارات مع بعض المعجزات و الحوادث غير المفسرة لا أكثر و التي تنتهي بالإنسان إلى الإيمان بوجود قوة غيبية خلقت الكون و تسير أحداثه كما خلقتة كإنسان و تسير حياته الشخصية بنفس الوقت

.. دون أن نغفل أهم حقيقة في الحياة بأن غاية الله ليست إقناع البشر بوجوده فهو أجلّ و أكبر و أعلى من ذلك ، بل بناء الإنسان و إعداده كي يصبح مؤهلاً للحياة في دار البقاء بعد القيامة

و في الحقيقة و كختام لهذه النقطة ، ما من إنسان ينكر وجود الله بسبب أدلة منطقية دامغة يقدّمها بل أغلب حججه و ذرائعه لا تتناقض مع وجود الله بالأساس (من قوانين العلم التي تحكم الكون إلى التطور إلى التشكيك بالأديان) ، بل إلحاده قائم على خلفية :

⊙ ظروف صعبة عاشها في طفولته أو في حياته اللاحقة بسبب مدّعي التدين فنفروه من الدين ..

⊙ ظروف حياتية قاهرة مرّ بها فنقم على السماء و بالتالي رفض وجود الله ببساطة .. هكذا بلا دليل و لا دراسة على الإطلاق ..

⊙ ظروف نفسية معينة تدفعه للتميز و الاختلاف عن محيطه ، أي يدعو للإلحاد من باب **خالف تُعرف** ، لا لأسباب منطقية و هذا البند نجده بكثرة عند المراهقين..

أي أن الإلحاد بالمحصلة موضوع نفسي وجداني بحث في أغلب الحالات أو بتعبير آخر هو عتاب من الإنسان لخالقه على ظروف معينة قاسية عاشها لجهله بحكمة الخالق و غاياته النبيلة التي تقف خلف كل شيء ..

✽ **دلائل وجود الله :**

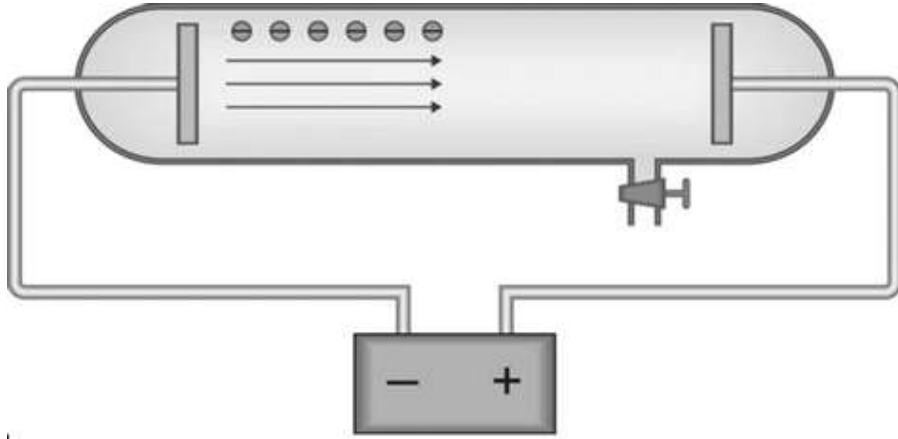
في الحقيقة كل شيء في هذا الكون المعجز ينطق باسم خالقه و يوحدّه ، لكن قبل الحديث عن هذه الدلائل الكثيرة لا بد من التطرق إلى مفهوم هام للغاية و هو :

(**أثر الله**)

فبالعودة إلى بداية حديثنا عن أثر الالكترتون سنشرح باختصار تجربة

علمية بسيطة و هي تجربة الأشعة المهبطية لغاية لاحقة بعد قليل :

(هي تجربة كهربائية قديمة أجراها الفيزيائي الإنجليزي وليام كروكس باستخدام أنبوب مُفرّغ جزئياً من الهواء – أنبوب كروكس – وضع فيه قطبين كهربائيين معدنيين على الطرفين كمهبط (كمسدس مطلق للإلكترونات) و مصعد (لوحة مطلية بالفوسفور) ، وعندما قام بتوصيل تيار عالي التوتر متردد بين القطبين ، لاحظ تألق لوحة المصعد الفوسفورية فأدرك أنّ ذلك بسبب انطلاق الأشعة المهبطية (الإلكترونات) من المهبط و اصطدامها بلوحة المصعد، و كان هذا دليلاً علمياً كافياً على وجود الإلكترونات بالفعل) ..



فالعلماء لم يروا الإلكترونات حرفياً ، لكنهم آمنوا بيقين أنها موجودة لأنهم رأوا آثارها المتألقة .. وهذا بالضبط ما يفعله الله مع خلقه ، لا يراه البشر فعلياً ، لكن ذلك لا يعني أنه غير موجود ، بل إن البشر يرون آثاره في كل حنايا هذا الكون ، و من هذه الآثار الواضحة (لكل من يستعمل عقله) و على سبيل المثال لا الحصر :

● الإبداع في خلق الكون : سواءً من حيث :

① تنوع مخلوقاته من أحياء (إنسان و حيوان و نبات و كائنات دقيقة) أو جماد (فضاء بأجرامه ، جيولوجيا بعناصرها ..) ..

② تنظيم سير شؤون الخلق بإتقان و وفق قوانين علمية مادية ثابتة تحكم كل شيء بدقة لا توصف ..

③ تكامل هذه المخلوقات في وجودها و تفاعلها مع بعضها..

و هذا البند واسع للغاية و لا تكفيه موسوعات لا نهاية لها للإحاطة بعظمة الخلق المبهرة المتجلية في كل تفصيل من تفاصيل هذا الكون

● الأحداث الخارقة للطبيعة (المعجزات) : و التي يدعوها

البعض جهلاً (صدفة) و التي تعجز جميع قوانين البشر عن تفسيرها ليبقى وجود الله وحيداً في الميدان كمفسر حقيقي لا شريك له لها ، و لا أشك عزيزي القارئ بأنك بنفسك تعرضت في حياتك لهذا النوع من الأحداث الذي جعلك تستشعر أنامل الخالق و هي تحيكها .. و بالطبع لا ننس هنا عشرات المعجزات للأنبياء التي كسرت كل قوانين العلم كإثبات لوجود إله مسيطر على هذه القوانين و متحكم بها كما يشاء كمشي يسوع فوق الماء مثلاً ..

● جسد الإنسان المعجز : بتنوع و تعقيد و تكامل أجهزته و

أعضائه و بنيته الجزيئية ليجعل منه الله كياناً قادراً على الوجود و الاستمرار و الاكتشاف و الاختراع و التطور و التفاعل مع غيره و بناء حضارات و فك طلاسم العلوم و الكون ، و بالطبع يتربع على عرش هذا الجسد (العقل البشري) كلغز حقيقي لا نعرف شيئاً عنه حتى اليوم يختزل الكون برمته بين تلافيفه ..

و المفارقة العجيبة في الموضوع أن الإنسان يرى صنعه لروبوت إنجازاً إعجازياً لا يمكن أن يتم لوحده دون صانع (الإنسان) في حين يرى الجسد البشري المعجزة الحقيقية أمراً عادياً صنعة الصدفة و التطور العشوائي و لا يحتاج لصانع (الله) ، فلماذا هذا التناقض في الطبيعة البشرية و الظالم للسماء !!؟

● حقل الألغام : فالحياة أشبه بالسير في حقل ألغام بتنوع و غزارة

المخاطر المحدقة بالإنسان فيه من قبيل :

● الأمراض و الأوبئة ..

● الموت ..

● الكوارث الطبيعية كالزلازل ، البراكين و الأعاصير

● الحروب بمختلف دوافعها ، سياسية ، دينية ، توسعية ، نهب ثروات ..

● الأزمات البيئية كالتصحّر ، ثقب الأوزون و التلوث..

● الأزمات الاقتصادية ..

● أذى البشر لبعضهم كالسرقة ، الاحتيال ، الاعتداء بأنواعه ، تشويه السمعة ، المكائد ..

● الخسارة بأنواعها ، خسارة وظيفتنا أو دمار منزلنا أو فقد من نحب

و رغم كل هذه الألغام نرى البشر يعيشون و يعمرّون و يقضون الأوقات السعيدة ، يحبون و يكوّنون عوائل و أصدقاء و يتفاعلون مع بعضهم ، يتعلمون و يكتشفون و يخترعون ، و تكون لديهم مواهب و وظائف و هوايات متناسبة مع كل منهم ، و لولا وجود خالق متحكم بالكون لما حدث كل ذلك ، و لرأينا الألغام تنفجر بالبشر تباعاً في كل لحظة فيموتون مبكراً و يقضون حياتهم في خوف و قلق و رعب لا يوصف ، لتكون الحياة عبارة عن فوضى و جحيم حقيقيين ..

● **معرفة الغيب :** كما أخبر الأنبياء أقوامهم عن أمور مستقبلية

حدثت بالفعل ، و لا تفسير لذلك سوى تواصلهم الفعلي مع قوة غيبية خالقة للكون و عارفة بالغيب و أسرار المستقبل ، من قبيل :

● إخبار النبي نوح قومه بقدوم الطوفان ..

● إخبار النبي صالح قومه ثمود بعواقب عقر الناقة ..

● إخبار السيد المسيح لتلميذه بطرس بأنه سينكره ثلاث مرات قبل صياح الديك في ليلة اعتقاله ..

● إخبار الرسول محمد لبعض صحابته بمصيرهم كقوله لأبي ذر الغفاري : (تعيش وحيداً و تموت وحيداً و تبعث وحيداً) و هذا ما آلت إليه أموره بالفعل ..

● علامات قيام الساعة الصغرى والكبرى ، و التي بدأت بالتحقق
تباعاً بالفعل ..

و غيرها من المعجزات ..

● **الغاية من الخلق** : فهذه الغاية التي شرحها الله لنا عبر أنبيائه
مقنعة و منطقية و نبيلة لأبعد الحدود ، بأن تكون الحياة الدنيا مرحلة
وسيلة قبل الحياة الآخرة في دار البقاء (الجنان) حيث نتعلم في
هذه المرحلة :

● **تقدير قيمة النعمة لنصونها في الآخرة** : عبر فلسفة الإشباع و
بداية الضياع ..

● **تقدير قيمة الأخلاق** : كالشيء الوحيد الذي لا يمنحك إياه الله من
خارجك بل تمنحه لنفسك من داخلك و يساعدك الله على ذلك عبر
إعداد تجارب جاهزة و خاصة بكل إنسان حسب موقعه في الحياة ،
لنكتشف في النهاية أن الخلق هو سرّ الخلق .. و بأن الله لن يطالبنا
في الآخرة سوى بالتحلي بمكارم الأخلاق ..

لا تجزع من شكك و لا تخجل من إحادك ، فالإلحاد التام يسبق
الإيمان التام بدرجة .. و بتفاعل الكون العظيم بخلقه مع عقل الإنسان
العظيم بتكوينه ستتسطر أعظم ملاحم الإيمان في حياة كل إنسان
بعثه الله إلى هذه الدنيا ، فالله لم يخلقك جزافاً و لن يتخلى عنك يقيناً
، بل سيطرق بابك في اللحظة المناسبة ذات يوم من حياتك عندما
تغدو جاهزاً لذلك ..

في ختام مقاربتنا لسرنا الجديد (أثر الالكترون) من الأنسب ربما ألا
نقول :

= أنا لا أؤمن بالله لأنني لا أراه ..

بل أن نقول :

= الله لم يُرَ بل بالعقل عُرف .. و آثار الله في هذا الكون كآثار الأشعة المهبطية التي أثبتت وجود الالكترونات دون أن نراها ، تجعلنا نؤمن يقيناً بوجود إله لم نره ..

و ألا نقول :

= أنا أرفض وجود الله ، لأن بعض المتدينين و رجال الدين نقروني من السماء ..

بل أن نقول :

= الإيمان شيء و الأديان و التدين شيء آخر فلا يجب أن نخلط بينهما ..

و ألا نقول :

= أنا ملحد لأنني أؤمن بالعلم و قوانينه ..

بل أن نقول :

= العلم لا يعني عدم وجود الله ، بل إنّ الله خلق الكون وفق قوانين علمية مادية ثابتة هو وحده قادر على كسرها بالمعجزات كما فعل في مناسبات كثيرة ..

في النهاية كل شيء من حولنا في هذا الكون ينطق بوجود خالق له و عظمة خلقه هذا و إتقان تكوينه لكل شيء ، فإن كنت عزيزي القارئ تشكك بوجود الله فلا بأس عليك ، الله بنفسه أتاح لك هذا و شرّعه .. **فالشك هو الرحم الذي يولد منه اليقين ..** و تذكر أن نبي الله موسى و هو يخاطب الله حرفياً على قمة الجبل و قد بلغ من العمر الكثير ، طلب من الله آية كي يؤمن بوجوده، فسأله الخالق : **(ألم تؤمن بعد يا موسى ؟)** ، فرد عليه موسى : **(بلى ، لكن ليطمئن قلبي) ..**

فكيف بإنسان لم يطرق الله أبوابه بعد و لم يرَ من عظمة الخالق و رحمته ما يشبع يقينه و يطفئ حيرته ، لا بأس يا صديقي فذات يوم سيطرق الله بابك كغيرك و في التوقيت المناسب ، لتصعد بنفسك

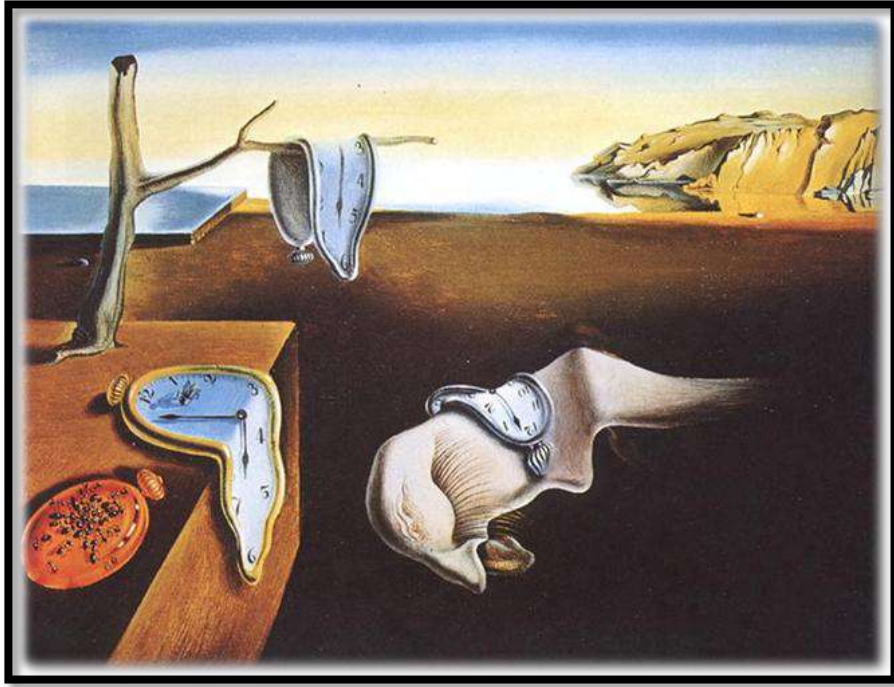
إلى قمة جبل الإيمان فيخاطبك الله و يقول لك : (آمنت يا بني ؟)
فيكون جوابك :

(بلى و اطمأن قلبي ..)

اللاوعي

وقف الشاب أمام إحدى لوحات الفنان الإسباني الشهير سلفادور دالي يتأملها بعمق ثم التفت إلى مرشد الجولة و سأله بدهشة ..

= سيدي ، ما المبهر بهذه اللوحة ؟ لا أرى سوى أشياء غريبة لا معنى واضح لها أو رابط منطقي بينها ؟ أين هي الطبيعة أو الأجساد البشرية التي تضج بالحياة كحال بقية اللوحات في المعرض .. إنها أشكال عبثية عشوائية بلا هدف أو غاية ؟



ابتسم المرشد بلطف :

= محق .. لكن هذا النوع من الفن يدعى بالفن السريالي و هو ليس فناً واقعياً يجسد الأمور كما هي من حولنا ..

= و كيف يجسدها إذن ؟!

= لفهم الفن السريالي علينا فهم العقل الباطن أو اللاواعي أولاً .. فهذا الفن هو تجسيد لما يجول في هذا العقل تماماً على شكل لوحات

فنية أو موسيقى أو حتى شعر .. و العقل الباطن بالأساس ضبابي بالنسبة لنا و مبهم لذا تكون نتيجة ترجمته إلى أعمال فنية ضبابية و مبهمة بدورها ..

= فهمت ، لكن ما الفائدة من هذا الفن أساساً إن كان بالأساس مجرد أعمال غير واضحة ..؟!!

= لأن الفنانين و بشراً كثيرين يؤمنون بأن اللاوعي هو المحرك الأساسي لأفعالنا و إن كنا نجهل الآلية بدقة ، كما يؤمن كثير منهم بأنه صلة الوصل بين العالم المادي و العالم الغيبي الروحاني ..

= لم أفهم !!

= مثلاً تعتبر الأحلام جوهر السريالية و متنفس العقل الباطن عندما يعبر عن نفسه بحرية ، و يؤمن السرياليون بأن الأحلام أيضاً وسيلة السماء لمخاطبتنا بشكل مباشر .. لذا يعتبرون ترجمة الأحلام إلى أعمال فنية كرسالة من السماء تحتاج التفسير و التقصي ..

= و ما الذي يقصده الفنان دالي مثلاً من الساعات الذائبة في هذه اللوحة أمامنا ؟!

= الله أعلم ، لكن بحكم أنني مسلم العقيدة ، فأرى هذه اللوحة تنسجم بقوة مع آية مذهلة من القرآن الكريم ..

= أثرت فضولي ، و علام تنص هذه الآية ؟

= تقول :

(و إن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون)

و كما تلاحظ ، هذه الآية تشير بشكل صريح إلى أن الوقت في العالم الآخر أبطأ بكثير من الوقت في عالمنا الأرضي ، و بإسقاط هذه الآية على لوحة سلفادور دالي التي تجسد كما يبدو عالماً غريباً على البشر يمر الوقت فيه ببطء .. فيمكننا القول بأن دالي رأى في أحلام

اليقظة أو الأحلام الحقيقية ما يشبه جنان الله و ترجمها إلى لوحته
هذه بطريقته الخاصة .. طبعاً هذا افتراضي الشخصي لا أكثر ..

= و هو افتراض مناسب بشكل مثالي .. لا أنكر ..

= هل فهمت الآن سرّ شعبية الفن السريالي ؟

= بالطبع .. إنه الفسحة التي يعبر فيها اللاوعي عن نفسه بحرية
كرسائل سماوية لنا ..

= بالضبط .. أحسنت التلخيص و التشبيه ..

= لكن ما درجة سيطرة اللاوعي على وعينا سيدي ؟

= سيطرة أكبر و أخطر مما يعتقد كثير من البشر ، لكن المكان هنا
غير مناسب للحديث فهو موضوع شائك و مطول ..

= أتحب أن نلتقي في أحد المقاهي مساءً كي نتابع هذا النقاش مع
فنجان قهوة .. فلطالما أثار موضوع اللاوعي اهتمامي و فضولي و
يبدو أنك تملك معلومات قيمة و مثيرة عنه ..

= و شيقة أيضاً .. لا مانع من اللقاء أبداً ، يناسبك موعد على الساعة
السابعة في مقهى العرّاب ..

= مناسب تماماً ..

اللاوعي .. العقل الباطن .. اللاشعور ..

مصطلحات كثيرة تدور في فلك مفهوم واحد و هو الخلفية النفسية
للإنسان التي تحرك و عيه كرجل الدمى و بخيوط متينة للغاية لكنها
غير مرئية، فتتحكم بأفكارنا و أقوالنا و أفعالنا و قراراتنا ..

فهل هذه الفرضية حقيقة بالفعل ، أم أنها محض مغالطة ، و إن كانت
صحيحة ، فإلى أي درجة يتحكم اللاوعي بالوعي و يملّي قراراته

عليه ؟!

هذا ما سنحاول معرفته عبر الصفحات التالية كي نرفع النقاب عن عالم اللاوعي الغامض و الساحر .. و لإنجاز ذلك سنقوم بمقاربة مغالطتنا من 6 زوايا هامة و شيقة :

- نظرية جبل الجليد ..
- نظرية الصندوق الأسود ..
- نظرية الدولة العميقة ..
- كيف يعبر اللاوعي عن نفسه ؟ ..
- السريالية ..
- قوة الإيحاء (قانون الجذب) ..

فهيا بنا يا صديق الفكر نمخر عباب محيط اللاوعي .. بحر ظلمات النفس البشرية لتشرق الحقيقة بوعي كامل عليه و نكتشف عالماً جديداً من الحقائق المذهلة .. علنا نقطع الخيوط التي تحرك الدمية.



نظرية جبل الجليد:

هذه النظرية وضعها عالم النفس النمساوي سيجموند فرويد في النصف الأول من القرن 20 و تنص على أن حجم تأثير الوعي و اللاوعي على النفس البشرية هو كجبل الجليد تماماً الذي يظهر جزء يسير منه فقط فوق سطح الماء و يمثل الوعي ، أما القسم الأكبر منه فيكون تحت سطح الماء و يجسد اللاوعي ..



و التحليل النفسي للإنسان يثبت بأن حجم تأثير اللاوعي مهول بالفعل على حياته و إن كنا لا نشعر به بوضوح ، بل إن الغالبية الساحقة من قراراتنا يتخذها العقل الباطن و ليس الوعي ..

نظرية الصندوق الأسود:

تشبه هذه النظرية اللاوعي أو العقل الباطن بالصندوق الأسود للطائرات الذي يحمل تسجيلات لكل ما جرى على سطح الطائرة خلال رحلتها ، كذلك العقل الباطن يحتوي على كل ذكريات الإنسان منذ ولد و كل المعارف و الخبرات التي اكتسبها و كل غرائزه المكبوتة أو مشاعره السلبية التي عانى منها ثم رماها إلى الحديقة الخلفية (اللاوعي) ، و كما أن الصندوق الأسود مفيد في حالات الكوارث الجوية لفهم أسبابها ..

كذلك يأتي التنويم المغناطيسي أو التحليل النفسي بيد خبير مختص كي ينبش صندوق العقل الباطن و يخرج منه أسباب كثير من مخاوفنا أو تصرفاتنا غير المنطقية ، و كمثال معبر للغاية عن هذه الفكرة سنحكي قصة حقيقية عن طبيب عسكري عانى من فوبيا الأماكن المغلقة.. فكان يشعر بفزع شديد عندما يركب القطار، خصوصاً إذا مر من نفق أو توقف في داخله.. أما إذا كان مدعواً إلى حفل أو اجتماع فقد كان يحرص كل الحرص على البقاء قرب الباب، استعداداً للمغادرة في أي لحظة، ناهيك بأنه كان مهتماً بقراءة قصص المحبوسين وقصص الذين يدفنون أحياء.. وذات يوم تم استدعاء الطبيب للالتحاق بساحة المعركة بقصد تقديم العلاجات الأساسية لجرحى الحرب.. وبمجرد وصوله وجد الجنود مكდسين في الخندق، فبدأت مخاوفه من المكان المغلق، ومما عقد الأمر أكثر أنه أعطي فأساً لكي ينقذ نفسه في حال ردم عليه الخندق، مما زاد من قلقه، ولم يعد يحتمل الوضع إلى درجة أنه أصيب بشلل تام نقل على إثره إلى المستشفى، ليتبين أن شلله ليس عضوياً بل نفسياً .. وخضع لعلاج عند محلل نفسي لمدة طويلة.. وتمكن الطبيب من جعله يتذكر مجموعة من الأحداث المنسية، اعتماداً على التنويم المغناطيسي ، وتفكيك بعض الأحلام التي كان يرويها له أثناء العلاج ، وفي النهاية، وبعد طول عناء من الطبيب والمريض نفسه، تم التوصل

إلى الحدث الأساسي الذي يقف خلف مخاوفه كلها ، فكان على الشكل التالي :

(كان هنالك في بلد المريض متجر لشيخ عجوز يبيع فيه الأغراض القديمة والمستعملة ، وكان الأطفال ، بمن فيهم الطبيب المريض ، يأخذون إليه كل شيء قديم حصلوا عليه مقابل دراهم معدودة تمكنهم من شراء الحلوى .. وقد تذكر الطبيب بالتتويم المغناطيسي أنه حين كان في الرابعة من عمره ذهب إلى المتجر لبيع بعض الأغراض ، وعندما همّ بالعودة وجد باب الممر المؤدي إلى بيته مغلقاً .. التفت إلى الجهة الأخرى فرأى كلباً ينبح عليه بوحشية .. و قد تفاجأ الطبيب من تذكر ذلك فقد نسيه بالكامل .. ومع استمرار العلاج ، حلم بأنه حصل على منحة للدراسة في اسكوتلندا .. وعندما استيقظ تذكر اسماً اسكوتلندياً وهو اسم صاحب ذلك المتجر .. وبهذا يكون الطبيب قد استعاد الحدث المؤلم بجميع تفاصيله ، و بالمحصلة تمكن من الشفاء من فوبيا الأماكن المغلقة)

و كما نلاحظ يا صديقي مشكلة نفسية تسببت في عرقلة الحياة الطبيعية لإنسان كان سببها الأساسي حادثة في العقل الباطن تعود لسنوات الطفولة الأولى ، مما يوضح أكثر تأثير هذا العقل على حياة البشر ..

نظرية الدولة العميقة :

الدولة العميقة مصطلح سياسي يقصد به وجود قوى عسكرية و سياسية خفية داخل الدولة ذات نفوذ كبير و تعمل في الظل لفرض توجه سياسي معين دون أن يشعر المواطنون بأي شيء ، و يشار إليها أيضاً بالدولة داخل الدولة .. و هذا المصطلح ينطبق تماماً على مفهوم العقل الباطن ، فالوعي هو الدولة ، و اللاوعي هو الدولة العميقة التي ترسم شكل الدولة الخارجي .. أما عناصر الدولة العميقة فهي كما أسلفنا منذ قليل :

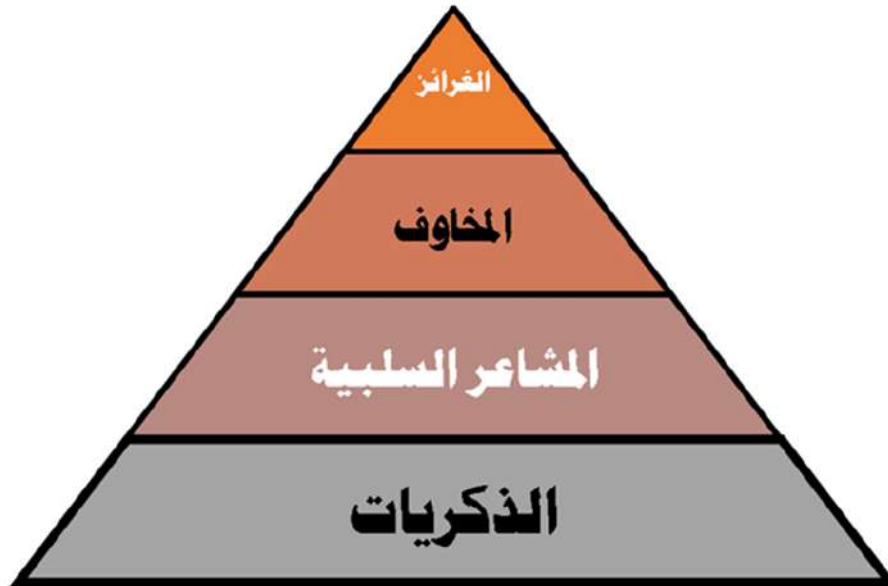
● الغرائز المكبوتة ..

● المخاوف ..

● المشاعر السلبية ..

● الذكريات ..

و هذا الرباعي هو من يحرك الوعي بخيوط غير مرئية و يضع لمساته الأخيرة على قراراتنا النهائية في حياتنا اليومية ..و تعتبر الغرائز هي الجنرال الذي يقود الدولة العميقة (العقل الباطن) كلها



كيف يعبر اللاوعي عن نفسه ؟:

في الحقيقة اللاوعي يعبر عن مكنوناته بطرائق شتى و لعلّ أهمها :
✳️ **الأحلام :** و هي الطريقة الأشيع و الأوسع و تشمل أحلام اليقظة و أحلام النوم و في كلتي الحالتين ينفك لجام العقل الباطن ليعدو بحرية و يعبر عن نفسه كما يحلو له دون عوائق أو محظورات ..

✳️ **الزلات و الهفوات :** سواء اللفظية منها أو الجسدية ، فكثيراً ما يقول المرء كلمات غريبة في موقف ما يكشف كثيراً من أسرارهِ القابعة في لاوعيه ، و هذا هو التعبير الحرفي لمقولة :

(المرء مخبوء تحت لسانه)

✽ **الأفكار الطارئة :** التي يشبهها الناس بالمصباح الذي يضيء فوق رؤوسنا .. فما هذه الأفكار الطارئة سوى نتيجة نهائية لعملية معالجة مزمنة و طويلة للبيانات في عقلنا الباطن حتى توصل بنهايتها إلى الحل أو الفكرة الجديدة الخلاقة ، و في قصص العابرة خير دليل على هذه النقطة عندما استيقظوا ذات يوم من نومهم مذهولين و قد توصلوا لحل مسائل أو معضلات شائكة يفكرون بها منذ سنوات ،حتى تمكن أخيراً العقل الباطن في نومهم أن يحلها ..

✽ **الخيال :** فخيال الإنسان هو الحقل الذي يعدو فيه لاوعيه على هواه فيزور أماكن أو يلتقي أشخاص أو يقوم بأشياء كثيرة يحرمها الوعي في الحالة الطبيعية.

✽ **التنويم المغناطيسي :** و الذي شكل ثورة طبية في علم النفس ، عندما نحل لجام العقل الباطن و نسمح للاوعي بالتعبير عن نفسه بحرية كاملة ، كما لو كنا في جلسة استحضار أرواح ، لكننا هنا في جلسة استحضار بيانات الصندوق الأسود في أعماقنا بكل ما يحمله من ذكريات و مخاوف و غرائز مكبوتة .

السريالية :

هي نوع من الفنون يعتبر سفير العقل الباطن إلى الوجود الظاهر، إذ يقوم بتجسيد أفكارنا اللاوعية (التي نصح على تماس معها عبر الأحلام أو الزلات أو الأفكار الطارئة أو الخيال...) بطريقة فنية كلوحة أو قصيدة أو مقطوعة موسيقية أو منحوتة أو أي عمل فني آخر ليحتفظ بهذه التجارب اللاشعورية كتذكارات عابرة للأجيال ، و كثيراً ما تبوح هذه الأعمال الفنية مع مرور الوقت بأسرار كبيرة و مذهلة ، كإكتشاف جديد يفسر مضمون لوحة ما أو اختراع تم ذكره في قصيدة قديمة و هكذا .. و قد اشتهر فنانون كثر بنمطهم السريالي و يعتبر عرابهم بلا منازع هو الرسام الإسباني الشهير سلفادور دالي

الذي أتينا على ذكره في مستهلّ حديثنا، و قد وصفه نقاد كثر بالفنان المجنون ، كون أغلب لوحاته تجسد أشياء غامضة و غريبة لا معنى واضح لها في واقعنا الملموس ..

و كما يقال بين العبقرية و الجنون شعرة ، و هذه الشعرة ببساطة هي التي تربط الوعي العاقل باللاوعي المجنون ، لذا يقال عن أي شخص تأتيه حالة وجدانية ينجز بها عمل فني مميز بأن شيطان العبقرية لبسه ، و هذا صحيح علمياً بالفعل ، إذ أن هذه اللحظة هي اللحظة التي يسلم فيها الوعي زمام القيادة لللاوعي ليعبر عن نفسه كما يريد ، حتى أن كلمة عبقرية في اللغة العربية يعود أصلها إلى مكان في شبه الجزيرة العربية يدعى عبقر و تقول الأسطورة أنها أرض سكنها الجن ، و كأن الإنسان العبقرى يسيطر جني بالفعل على عقله فيمنح اللاوعي الحرية كي يبدع على هواه !!

قوة الإيحاء (قانون الجذب) :

كما سبق و ناقشنا فإن مخزون عقلنا الباطن هو ما يحدد قراراتنا و أفعالنا و بالتالي نجاحاتنا بشكل عام مستقبلاً ، فإن كان هذا المخزون سلبياً كانت النتائج سلبية ، و إن كان إيجابياً كانت إيجابية ، و هذا ببساطة هو مفهوم قانون الجذب ، أي أنك كما توحى لنفسك أن تكون ستكون ، و هذا يؤكد بدوره قوة تأثير الإطار الذاتي للمرء على نفسه ضمن حدود المعقول و تشجيع ذاته في تحقيق النجاحات ، كما يفسر تأثير الدعاء مثلاً على قدرنا المستقبلي .. لذا احرص عزيزي القارئ على ضخ كل ما هو إيجابي إلى عقلك الباطن ، لأن ذلك بنفسه هو من سيتخذ قراراتك المستقبلية ، فإما أن تكون سلبية و انهزامية أو إيجابية و حماسية ..

في ختام مقاربتنا لسرنا الجديد ، من الأنسب ربما ألا نقول:

= أنا مسيطر على حياتي و قراراتي بكامل وعيي ..

بل أن نقول :

= تأثير اللاوعي على وعينا يشبه بنية جبل الجاليد حيث يشكل الجزء البارز فوق الماء منه (الوعي) نسبة صغيرة فقط .. كذلك الحال يمكن تشبيه تأثير اللاوعي بالكون من حولنا .. فالنسبة الساحقة من الكون هو مادة مظلمة غير مرئية و مجهولة التكوين (العقل الباطن) في حين تشكل المجرات (الوعي) نسبة صغيرة من الكون .. لكن التأثير الأكبر هو للمادة المظلمة التي تحافظ على النسيج الكوني متماسكاً .. و بالتالي العقل الباطن هو المؤثر الأكبر على قراراتنا اليومية من أبسطها إلى المصيرية منها ، و لكل قرار منها أسباب عميقة تتنوع بين الغريزة و المخاوف و المشاعر السلبية و الذكريات و الخبرات ، و يقوم اللاوعي بمعالجة كل ذلك ليخرج بنتيجة معينة تدفعنا إلى اتخاذ قرار بعينه دون سواه ..

يقول شاعرنا السوري الكبير نزار قباني :

ذروة العقل يا حبيبي الجنون

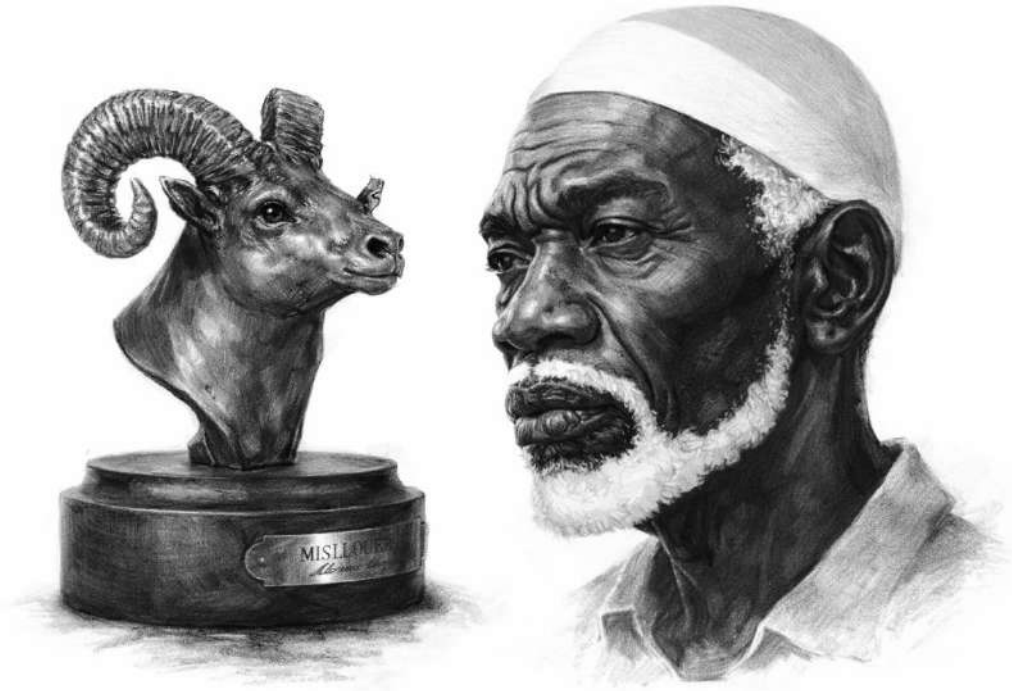
و مما سبق و ناقشناه ، فهذا الكلام منطقي علمياً للغاية فالجنون هو حالة اتحاد الوعي باللاوعي و هو ذروة العقل بلا أدنى شك عندما نفهم الخلفية النفسية التي تؤثر على قراراتنا ، مما يمكننا من التحكم بها و توجيهها كما نريد بدلاً من توجيهها هي كما تشاء ..

في داخلك إله نائم

- = ما الذي تقرأه على هاتفك يا صديقي ؟
- = مقال غريب للغاية عن إحدى شخصيات التاريخ المميزة و التي يجهلها أغلب الناس ..
- = أثرت فضولي بحق .. من هي هذه الشخصية ؟!
- = إنه ألونزو كليمونز ..
- = و ما المميز في هذا الرجل ؟!
- = يمكنه أن ينحت لك تمثالاً لأي شيء بدقة عالية ..
- = و ما الغريب في ذلك ؟ مئات البشر حول العالم يفعلون ذلك ..
- = أعلم ، لكن الغريب يكمن في قصته ..
- = أنت تعرف كيف تستفز عقلي لمعرفة المزيد .. زدني بالمعلومات.
- = ولد ألونزو في أمريكا عام **1958** ، كانت طفولته عادية كبقية الأطفال حتى أتى يوم غير حياته جذرياً ، حيث سقط من ارتفاع كبير إلى الأرض و أصيب بأذية دماغية شديدة ، جعلت ذكائه لاحقاً بمقياس **IQ** لا يتجاوز **40** و تطوره الذهني ثبت عند عمر **6** سنوات ، فتأخر تطوره لدرجة عجز عن ربط حذائه بنفسه ..
- = و بعد ؟!
- = بعد فترة قصيرة من الحادث ظهرت عند الطفل ألونزو موهبة جديدة من العدم ، و هي قدرته على نحت أي شيء تريده بدقة مذهلة ، و الأغرب أنه يقوم بفعل ذلك بمجرد أن ينظر إلى المجسم المطلوب لثوانٍ فقط حيث يحفظ دماغه أدق التفاصيل مباشرة .. و لديه اليوم إرث هائل من المنحوتات المذهلة و لا يزال على قيد الحياة كي يذهلنا أكثر ..

= مدهش !! من أين أتت هذه الموهبة ؟ تقول أنه لم يكن يملكها قبل الحادث ، و الحادث أتلّف دماغه ، فمن أين أتت بحق السماء ؟!

= يقول المقال أن هذه الحالة تدعى متلازمة الموهوب (سافانت) و تصيب أطفال التوحد أو من تعرض لأذية دماغية شديدة ، حيث تدخل مناطق جديدة من الدماغ في الخدمة ، أو تتطور مناطق سابقة في عملها بشكل كبير كما حدث مع صديقنا ألونزو بالضبط.



= سبحانه الله .. لكن أتعرف ما هو الشيء الأكثر إذهالاً في القصة كلها ؟

= ماذا ؟!

= بنية الدماغ البشري و وظائفه ، يبدو أن البشر لا يزالون يجهلون الكثير عنها حتى اليوم ..

= محق تماماً !!

يدّعي البعض أن البشر اكتشفوا بنية الدماغ البشري و وظائفه بالكامل ، مما يدفعهم للقول بجزم أن فكرة استخدام البشر لنسبة 5 % فقط من عقولهم هي محض خرافة .. فهل هذا الكلام صحيح

بالفعل ؟ .. هذا ما سنحاول أنا و أنت يا صديق الفكر أن نكتشفه
خلال الصفحات التالية كي نجيب على السؤال الجوهرى التالي :
(هل الإنسان بالفعل يستعمل فقط 5 % من إمكانياته العقلية في
أحسن أحواله كحال العباقرة ؟! أم أنه يستخدمها كلها ؟! أم
أنه يستخدم أقل من هذه النسبة بكثير ؟!)
و سننجز ذلك عبر مقارنة سرنا الجديد من زاويتين هامتين للغاية :

✧ نظرية تدرج القدرة :

و هي نظرية بسيطة للغاية ، لا شك أنك لاحظتها بنفسك في حياتك
اليومية عزيزي القارئ .. تخيل أنك تملك مذياعاً صغيراً تستمتع
بأنغام الموسيقى عليه ، لكنك تتذمر من أن صوته ضعيف و تقتنع
بأن هذا العيب هو في تصميمه ، و في ذات يوم تكتشف بالصدفة
زرراً مخفياً في الجهاز و عندما تضغط عليه يبدأ الصوت بالارتفاع
تدرجياً لتُحل مشكلتك كلياً و تدرك أن العيب كان فيك و ليس في
المذياع ..



هذا هو بالضبط جوهر نظرية تدرّج القدرة .. هنالك أزرار لكل شيء
في الحياة ، عندما تضغط عليها تزداد قدرة الشيء تدرجياً ، من
الصوت إلى سطوع الشاشة أو صنوبر المياه أو دواصة البنزين في
السيارة أو حرارة الفرن الكهربائي أو سرعة دوران المروحة و
غيرها .. هكذا تتدرج القدرة في كل شيء ، لكن هل

ينطبق ذلك على الدماغ بدوره ، أي هل يمكن زيادة القدرات العقلية
تدرجياً بالفعل ، أم أن الإنسان كما يقول البعض يستعمل 100 %
من عقله ؟!

للإجابة على هذا السؤال ننتقل إلى المحور الثاني في مغالطتنا ..

✽ براهين على قدرات الدماغ الكامنة :

لماذا هنالك بشر موهوبون للغاية في بعض المجالات دون غيرهم من حساب أو رسم أو عزف أو تعلم لغات و غيرها .. ؟

أغلب الناس سيجيبون على هذا السؤال بالقول (لأن بعض مراكز الدماغ لديهم أكثر تطوراً من غيرهم بالأساس) .. فهل هذا الجواب صحيح ؟

في الحقيقة ، لا ..

و كي نبرهن على ذلك سنلجأ إلى متلازمة سافانت التي تحدثنا عنها في مستهل حديثنا مجدداً ، ففي هذه المتلازمة يكون الشخص قبل الحادث الذي يتعرض له معدوم الموهبة تماماً ، لتظهر موهبة منقطع النظير لديه بعد الحادث مباشرة .. ما معنى ذلك ؟

ببساطة هذا يؤكد بشكل حاسم لا غبار عليه أن الدماغ البشري - أي دماغ بشري - يحمل في طياته كل شيء ممكن على شكل طاقات كامنة بحاجة لفتيل إشعال كي تتفجر تدريجياً و الحادث يتكفل بهذه المهمة ، بمعنى أن العلماء حتى يومنا هذا يجهلون تماماً إمكانيات الدماغ البشري و كيف يحرضون مراكزه المختلفة كي تعبر عن نفسها بصورة متدرجة صعوداً ، و هذا يقودنا إلى حقيقة أخرى مذهلة بأن الإنسان العادي لا يستعمل من إمكانيات دماغه سوى **0.0000000000000001 %** و ربما أقل ، بل إن القول أن عباقرة التاريخ يستعملون **5 %** منها هو باطل بحد ذاته ، فهم يستعملون بعض هذا الإمكانيات أكثر من غيرهم لا غير .. و الحقيقة الأكثر إذهالاً هنا أنّ عبارة (دماغ العباقرة) مميز ، هي عبارة خاطئة ، و الصحيح أن نقول (الدماغ) بتركيبه مميز ، بل إنّ كلّ إنسان يحمل فوق جسده في صندوق جمجمته كنزاً مجانياً لا يقدر بثمن ألا و هو الدماغ ، الكنز القادر حرفياً على كلّ شيء ، لكننا لا نمتلك مفتاح الصندوق حتى هذه اللحظة .. و الشيء المفاصل في الحكاية أنه مفتاح مفقود و ليس غير موجود ، بمعنى أننا سنعثر عليه لا محالة

في قادم الأيام و السنين كما عثرنا على مفاتيح صناديق غامضة غيره من قبل ..

من المهم و الجميل الآن أن نقارب مفهوم الطاقات الكامنة و التوحد العبقري و متلازمة سافانت من زوايا أخرى عبر مجموعة من الأمثلة :

① **هرمونات الشدة** : قد ترى الإنسان أمامك منهكاً من التعب و يشكو من قلة الطاقة متيقناً بأن قدراته في الحضيض و بطاريته منتهية الشحن ، لكنّ زلزالاً بسيطاً في مدينته سيجعله أسرع من العداء الجمايكي بولت نفسه في النزول من منزله إلى الشارع فمن أين أتت هذه الطاقة كلها ، من العدم؟! بالطبع لا فالطاقة لا تفنى و لا تخلق من العدم ، بل هي طاقات كانت كامنة و نائمة في أعماقه تنتظر فتيل إشعال كي تتفجر بضخّ فيضان من هرمونات الشدة كالأدرينالين و الكورتيزول الكفيلة برفع مستويات القدرة لديه إلى الذروة !! و هذا يكافئ الطاقات الكامنة في دماغك ، تحتاج لدفعة قوية فقط كي تستيقظ و تجري ..

② **بناء العضلات و بناء الدماغ** : بناء الأجسام في GYM لا يختلف عن بناء الدماغ ، فعندما يركز الشخص النحيل على عضلاته فيرفع الأثقال بطريقة صحيحة يومياً ستتضخم هذه العضلات تدريجياً ، و هذا ما نجده عند مرضى التوحد ، فهم بانغلاقهم على ذواتهم و عدم تواصلهم مع المحيط من حولهم ، فإنهم يلتفتون إلى هذه الإمكانيات و يمسحون الغبار عنها ثم يطورونها تدريجياً بالتدريب المزمّن على مدار الساعة ثانياً بثانية ، دون أن ينتبه المحيط لذلك ، حتى يبدعوا في مجالات معينة ، بمعنى آخر الإنسان العادي بضغوط حياته و تشعب تفكيره و الإكثار من الكلام و اللغو يتجاهل هذه الإمكانيات فيبدد قدراته عشوائياً هنا و هناك على أمور فارغة .. و هذا ما يفسر مثلاً ميل الأذكىاء ذوي نسبة IQ عالية إلى العزلة عن المجتمع ، ببساطة هم يريدون التركيز على قدراتهم لتطويرها بالتدريج فيرفعوا أثقالهم العقلية، لقد وجدوا زراً مزياعهم الخاص

أخيراً و يريدون رفع صوته على عكس بقية البشر المتذمرين من
ضعف الصوت !!

③ **ارتقاء الهرم العقلي** : عندما تكون واقفاً في مدخل برج شاهق
الارتفاع، لنقل مثلاً (برج إيفل) ، فإنك سترى فقط الساحة أمامه ،
لكنك كلما تدرجت بالصعود طابقاً تلو الآخر ستبدأ برؤية تفاصيل
جديدة حتى تصل قمة البرج فتري مدينة باريس بكاملها منبسطة أمام
عينيك برموزها و معالمها ..

و هذا هو حال الإنسان عندما يتدرج في اكتشاف إمكانياته العقلية ،
كلما ارتقى درجة جديدة سيرى خفايا جديدة من أعماقه و من الكون
من حوله .. و عندما يصل قمة الهرم العقلي سيتوحد حينئذ مع الذات
الإلهية (العقل المطلق) الذي يعرف كل تفصيل من الكون بدقة لا
متناهية ، سيصبح الإنسان عندئذ متوحداً مصاباً بمتلازمة سافات
في كافة أقاليم العلوم و الحياة قاطبة .



④ البذرة و البويضة الملقة : فهذه بالنسبة لنا أشياء صغيرة بلا قيمة ، لكنها تحمل في جيناتها أشجاراً باسقة أو إنساناً كاملاً .. و للدماغ جيناته الخاصة التي تعبر عن نفسها في ظروف محددة فقط (توحد أو حادث أو تدريب عقلي مزمّن و مستمر) كما البذرة تماماً ، لتنبثق منها شجرة باسقة من الإمكانيات العقلية المذهلة ، و كما تمكن العلم من دراسة الخريطة الجينية للإنسان على نحوٍ كبير و بات قادراً على التلاعب بها لاجتراح المعجزات حرقياً ، سيأتي يوم يكتشف فيه الخريطة الجينية للدماغ أيضاً أي إمكانياته المحفوظة في حالة سبات و طريقة إيقاظها ، و عندها سنرى بأمر العين كما هائلاً من المعجزات الجديدة يتحقق عندما تتطور بذرة الدماغ التي نجهل إمكانياتها الهائلة الكامنة في قلبها ضمن جيناتها إلى شجرة من الإمكانيات !!

⑤ الإنسان و الحاسوب : عندما تعطي طفلاً ما حاسوباً فإنه سيتجاهله أو سيقوم بالنقر العشوائي على أزراره أو يرفع الشاشة و يغلقها ، أو حتى يضرب الحاسوب بالأرض أو بأشياء أخرى .. و عندما يكبر قليلاً سيستخدم هذا الحاسوب للعب بألعاب الفيديو .. و عندما يكبر أكثر سيستخدمه للدراسة أو مشاهدة الأفلام ، و عندما يكبر أكثر سيستخدمه في عمله، و إن تخصص الإنسان في دراسة الحاسوب أكثر سيتمكن من استعماله في البرمجة ، بل ستُفتح أمامه دنيا كاملة من الإمكانيات .. و على مر السنوات التي كبر بها الطفل كان الحاسوب هو نفسه بإمكانياته التي لم تتغير ، و المشكلة كانت في الإنسان لا غير ، فقد تعامل مع الحاسوب بحسب إمكانياته هو و توجهاته هو ، و هذا بالضبط هو حال الدماغ البشري ، يحتوي كل شيء حرقياً ، لكن الإنسان يستخدم منه ما يريده فقط ، أو ينحصر استخدامه بما يعرفه أو يتمكن من استخدامه من إمكانيات الدماغ ، و مع تخصص العلماء أكثر بدراسة العقل أو ما يطيب لي تسميته (تهكير الدماغ) ستُفتح أمامهم مستقبلاً عوالم لا تنتهي من القدرات ..!! أما اليوم فلا يزال البشر أطفالاً يكبسون أزرار الدماغ بشكل عشوائي ..

⑥ **الانفجار العظيم** : و هذا هو المثال الأعظم لفكرة الطاقة الكامنة ، فالكون الشاسع الذي نعيش فيه برمته، بأجرامه كلها بما فيها كوكب الأرض و ما عليه كان ذات لحظة قبيل الانفجار العظيم مجرد نقطة صغيرة مفرطة الكثافة تحمل في **DNA** خاصتها شكل الكون المستقبلي و تطوره التدريجي صعوداً مليون سنة تلو مليون سنة حتى نهاية الكون و انكماشه ليعود إلى هذه النقطة مجدداً في نهاية المطاف .. و هذا هو بالضبط حال الدماغ البشري ، بحاجة لانفجار كبير كاكشاف علمي مبهر يوضح طريقة تفعيل مراكزه ليتسع أمامنا كون من الإمكانيات العقلية المذهلة..

في صفحات التاريخ أمثلة كثيرة عن أشخاص محظوظين بإصابتهم بمتلازمة سافانت في مختلف نواحي الحياة كأينشتاين و أديسون و غراهام بيل و فان غوخ و بيتهوفن و دافنشي و بيل غيتس و إيلون ماسك و صاحب الذاكرة الفولاذية كيم بيك وغيرهم كثير.. و قد تم إنتاج فلم عن قصة حياة كيم بيك حمل عنوان (رجل المطر) يتناول متلازمة سافانت بطريقة درامية جميلة .. و كما ترى بنفسك عزيزي القارئ من هذه الأسماء ، فإنّ هذه المتلازمة هي التي طورت العالم و العلم و وصلت بالبشرية إلى ما هي عليه اليوم ، إنها باختصار متلازمة تطور البشرية حرفياً ..

في ختام مقاربتنا بسرنا الجديد (في داخلك إله نائم) من الأنسب ربما ألا نقول :

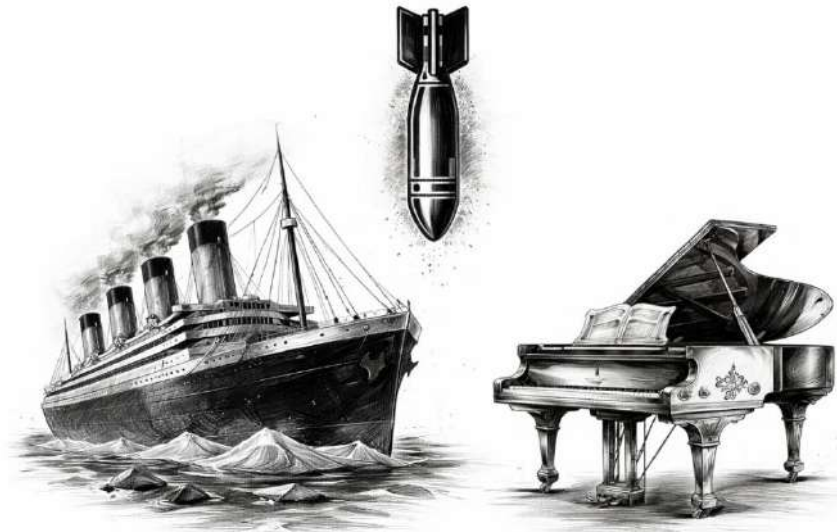
= استعمال العباقرة لنسبة 5 % من إمكانياتهم العقلية هو معلومة خاطئة ، فالإنسان يستخدم 100% منها ..

بل أن نقول :

= هذه الفكرة خاطئة بالفعل ، لأن العباقرة يستخدمون أقل من هذه النسبة بكثير .. و الإمكانيات العقلية النائمة في دماغ الإنسان لا يمكن

الإحاطة بها .. و تنتظر قبلة الأمير الوسيم كي تستيقظ ، و قد يأتي هذا الأمير على هيئة حادث مثلاً كمتلازمة سافانت أو عالم جديد مبدع يرفع النقاب عن آلية تفعيل مراكز الدماغ و رفع قدراته العقلية تصاعدياً (يكتشف زر المذيع أخيراً) و لا أشك للحظة أن هذا العالم سيكون محظوظاً بدوره بالإصابة بمتلازمة سافانت كغيره ، لا ندري ، لننتظر و نرى !!

الأشخاص الذين منحتهم الحياة هبة التوحد يعشقون الروتين و يغضبون بشراسة إن حاول أحد العبث بروتينهم اليومي أو أي شيء يشوش هدوء عقولهم خلال تدريباتهم العقلية اليومية المزمنة و المستمرة ، كما يعشقون الانعزال عن الناس كي يلتفتوا فقط إلى موهبتهم الخاصة التي منحتهم إياها السماء و ينشغلون بها عن كل شيء من حولهم بما في ذلك الحياة نفسها ، و هذا ما جسده المشهد الختامي من فلم أسطورة 1900 الشهير ..



عندما يتم إسقاط قنبلة على السفينة التي شهدت أحداث الفلم ، و بينما تشق القنبلة طريقها في السماء نحو الأسفل ، نجد بطل الفلم المصاب بالتوحد مع موهبته الفريدة بالعزف على البيانو ، جالساً مع صديقه البيانو يعزف آخر سمفونياته ..

فقد اعتاد بطل الفلم روتين الحياة على السفينة منذ طفولته حيث نشأ عليها ، و بات غير قادر على تغييره أبداً ، لذا فضّل الرحيل مع نمط

حياته هذا (العيش على السفينة + العزف على البيانو) لآخر لحظة
على الحفاظ على حياته ذاتها ، كما هي سمات المتوحد بالضبط ..
لتنفجر السفينة في ختام الفلم و يرحل معها البطل مع موسيقاه ..

ابتسم ولو كنت حزينا

= وقف السائح في متحف اللوفر مطولاً أمام لوحة الموناليزا و هو يفكر بينه و بين نفسه : ما هو الشيء المميز في هذه اللوحة حتى يعتبرها البشر أشهر لوحة في التاريخ؟! إنها مجرد لوحة لفتاة عادية الجمال !!



و لدهشته جاءه الجواب من المرشد السياحي خلفه ..
= الموناليزا ، اللوحة الغامضة التي حيرت الملايين ..

التفت إليه و ابتسم ..

= محق سيدي .. ما سرّ هذه اللوحة بالفعل ؟!

= إنها ابتسامة الموناليزا يا صديقي ..

= ابتسامتها ! ما خطبها ؟!

= ألا تلاحظ أنها تتأرجح بين الجدية و الدبلوماسية و اللطافة .. و بين الحزن و الفرح .. بل يقال أن السرّ الأكبر فيها أنك لا تلاحظها بشكل واضح إلا إذا ركزت نظرك على تفاصيل أخرى في اللوحة

= لم أفهم يا سيدي !!

= إنّ العين البشرية تستخدم نوعين من النقاط الصور البصرية، وهما **النظر المباشر والنظر غير المباشر**، و طريقة النظر المباشر ممتازة في النقاط التفاصيل، لكنها غير صالحة للتقاط درجات الظل والمساحات المتدرجة للألوان كتلك المستخدمة في لوحة الموناليزا و التي تجعل ابتسامتها أوضح عندما تنظر إليها بشكل غير مباشر.. و البعض يقول أنّ سرّ ابتسامتها الغامضة هذه أنها كانت مصابة بمرض معين كداء باركنسون أو قصور الغدة الدرقية ، و الأهم من ذلك كله أننا نجهل أيضاً سبب ابتسامتها من الأساس .. !!

= ربما ألقى عليها دافنشي دعابة ..

= ربما .. و ربما هي ابتسامة دافنشي الغامضة نفسه أمام الجمهور المتفرجين على لوحته .. فيشاع عن هذه اللوحة أن دافنشي رسم فيها نفسه على هيئة أنثى .. في حين يؤكد الآخرون على أنها شخصية حقيقية تدعى **ليزا جيرارديني** ..

= مذهل !!

= أجل .. بجميع الأحوال فابتسامة الموناليزا تدفع الجميع للابتسام و التفاؤل و هذا بحد ذاته جانب من جوانب أسطورتها و سبب من

أسباب شهرتها .. فالابتسامة هي أقوى سلاح عرفتة البشرية على
مر العصور .. وفوائدها لا تعد و لا تحصى كما تعلم سيدي ..

= بلا شك !!

يقول نبي الرحمة محمد :

(تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ)

فما هو سر الابتسامة الغامض الذي يرفعها إلى هذه المستويات
العظيمة ..؟!

هذا السر هو ببساطة موضوع حديثنا التالي و الذي يصحبه سؤال
جوهري هام للغاية :

(الصعاب و المنغصات تحيط بحياتنا اليومية من كل حدبٍ و
صوب ، فهل هذا يبرر لنا عبوسنا و تجهمنا في وجه الآخرين ،
أم أنّ هذه الفكرة مجرد مغالطة شائعة لا أكثر)

إنّ الجواب المبدئي الوجيز على هذا السؤال هو من وحي مقولة نبي
الرحمة :

(للابتسامة فوائد جمة تحظر عليك العبوس ، لذا لا تحرم نفسك و
الآخرين منها)

ما هي هذه الفوائد العظيمة للابتسامة ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه
عبر عدة زوايا شيقة :

✽ **الابتسامة مجانية و بأقل طاقة ممكنة:** تخيل يا صديقي أنك

تملك خزائن الأرض كلها ثم يطلب منك إنسان محتاج بعض المال
كي يسد رمقه فتمتنع عن فعل ذلك ، هذا هو بالضبط ما تفعله عندما

تقابل الآخرين فتعبس و تتجهم في وجوههم ، فأنت تملك ثروة من الفوائد في ابتسامتك و تحجم عن منح بعضها للآخرين رغم أن الابتسامة مجانية و لا تكلفك شيئاً !!



بل إنَّ عدد العضلات التي يستخدمها الإنسان في التجهُّم أكبر بكثير من العضلات التي يستخدمها للابتسام ، أي أنك بعبوسك ستستنزف طاقتك حرفياً .. فابتسم للآخرين لأن ابتسامتك تساوي ثروة حقيقية !!

✽ **الابتسامة مدخل إلى السلام** : تقول الأم تيريزا العظيمة :

(السلام يبدأ بابتسامة)

و هذا ينطبق على تحية الآخرين و أيضاً على إنهاء الحروب و الخصام و إحلال السلام مكانها .. فالابتسامة الحقيقية دليل على النية الخيرة و صدق المشاعر .. لذا يقال عن الشخص المبتسم بأنه لطيف و مسالم ، و عن الشخص المتجهِّم و العبوس بأنه عدواني يقاتل نفسه قبل الآخرين !

✽ **الابتسامة جاذبية و كاريزما وثقة**: فالابتسامة بلا شك تمنحك

سحراً خاصاً و كاريزماً تقربك من قلوب الآخرين كما أنها دليل على ثقة عارمة في داخلك ، و لا عجب أن يقول لي ميلدون:

(الناس لا ينظرون لملابسك ما دمت تملك ابتسامة كبيرة)
و أن يقول تشارلز غوردي أيضاً :

(الابتسامة هي أرخص طريقة لتغيير مظهرك)

كذلك نجد مارتن تشارنين يقول :

(لن تكون في أفضل هدام حتى تبسم)

و كل هذه الأقوال تصب في محرق واحد و هو أن الابتسامة تتفوق على أي شيء آخر في مظهرك بدءاً من شكلك انتهاءً بملابسك فتمنحك جاذبية و قبولاً من قبل الآخرين .. إنها كطوق من المجوهرات تتزين به !

✽ **الابتسامة تزيد فرصك في العمل** : ففي أي مقابلة توظيف ستكون ابتسامتك أهم بطاقة تستعملها للتأثير على صاحب العمل ، لأنها كما ذكرنا آنفاً تعبد طريقك إلى قلبه و تدل على ثقتك بنفسك و بكفاءاتك المهنية ..

✽ **الابتسامة تذيب جليد العلاقات** : يقول فولتير :

(الابتسامة تذيب الجليد و تنشر الارتياح و تبلمس الجراح انها مفتاح العلاقات الإنسانية الصافية)

و هذا صحيح على أرض الواقع ، فغالباً ما نجد طبقة جليدية بين الناس الغرباء تجعل تواصلهم مع بعضها معقداً و عسيراً ، لكن ابتسامة واحدة كفيلة بإذابة تلك الطبقة و تحطيم العقبات بينهم كي يتعرفوا على بعضهم أكثر و تبدأ علاقة اجتماعية و إنسانية بينهم بدلاً من العلاقة الأولية الرسمية و الدبلوماسية !

✽ **الابتسامة ترفع هرمون السعادة :** التجهم و العبوس يرفعان

نسبة هرمون الكورتيزول في الدم ، ذلك الهرمون السام الذي يدمر النفس و الجسد معاً فيرفع الضغط الشرياني و يرمي بظلال الاكتئاب على روحك و يعرضك للسكتات الدماغية و الجلطات القلبية و يجعلك تعاني من نوبات تشنج الكولون المؤلمة و غيرها من الأمراض ، أما الابتسامة الصافية فترفع هرمون السعادة (السيروتونين) في دماغك فيشعرك ذلك بالبهجة و التفاؤل و الإيجابية و ينظم وظائف أجهزة الجسم و يريح النفس و الروح معاً فتعيش حياة سعيدة و صحية ، كما يقول فيليس ديلر:

(الابتسامة هي المنحنى الذي يجعل كل شيء مستقيماً)

✽ **الابتسامة هدية للآخرين ترفع همتهم :**

صدقني عزيزي القارئ أنك تجهل تأثير ابتسامتك السحري في وجه شخص محبط و مكتئب ، فهي كفيلة بتغيير مزاجه و منحه طاقة إيجابية و ثقة هو بأمس الحاجة لها فكما يقال :

(السعادة معدية)

و أيضاً نجد جاكسون براون يقول :

(أعطِ الناس ابتسامة فقد يكون هذا أفضل ما يجده أحدهم طوال يومه)

كذلك يقول الأديب الكبير غابرييل غارسيا ماركيز:

(لا تتوقف عن الابتسام حتى وإن كنت حزينا فلربما فتن أحد بابتسامتك)

✽ **الابتسامة انتصار للخاسرين :** فكما يقال :

(عندما يبتسم المهزوم يفقد المنتصر لذة الانتصار)

كذلك نجد شكسبير يقول :

(عندما يبتسم المسروق فإنه يسرق شيئاً من اللص)

فتخيل قوة الابتسامة الهائلة هذه التي تحيل هزيمتك إلى انتصار
بمنتهى البساطة !!

✽ **الابتسامة إيمان** : يقول البارئ في وصف المؤمنين :

(وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة)

فالمؤمن مبتسم و متفائل على الدوام لأنه واثق من إيمانه من جهة و
من خالقه من جهة أخرى .. و أسهل طريقة للسعادة و الابتسام في
الحياة هو الإيمان عزيزي القارئ و التسليم برضا بقضاء الله و
قدره ، و هذا ما أكد عليه الفيلسوف زينون الرواقي مؤسس الفلسفة
الرواقية بعد تجربته الطويلة في الحياة ..

✽ **الابتسامة لغة عالمية** : قد يختلف البشر حول العالم بلغاتهم

و لهجاتهم و لربما وجدت نفسك غريباً بينهم بجهلك للغتهم ، لكن
الابتسامة السحرية لغة عالمية يفهمها الجميع و توصل مشاعرك إلى
قلوبهم دون أن تنطق بأي كلمة !!

✽ **الابتسامة دواء** : فكما سبق و شرحنا منذ قليل فالابتسامة شفاء

للجسد و النفس و الروح ، ليس ذلك فحسب ، بل أظهرت الدراسات
العلمية بأن الابتسامة منعكس بشري كالتثاؤب تماماً ، فأنت عندما
تجد شخصاً يبتسم ستبتسم بشكل لا إرادي بدورك ، بل أكثر من ذلك
، حتى إن كنت منزعجاً و محبطاً فابتسامتك و إن كانت غير حقيقية
ستحسن مزاجك و تغيير أفكارك السوداوية بشكل انعكاسي و آني
أيضاً !! و الابتسامة تقوي الجهاز المناعي و تحرر الأندروفيينات

التي تقتل الألم و تساعد على الهدوء النفسي و
التركيز و التفكير بحكمة و منطق !!

و بسبب قوة الابتسامة و تأثيرها السحري على البشر و فوائدها الجمة
التي ذكرنا بعضها آنفاً ، نجد أن الكوميديا هي أم الفنون و الأكثر
رواجاً و قابلية من قبل البشر ، و خير دليل على ذلك هو الابتسامة
الساحرة لممثلين كثر و التي لعبت دور جواز سفر لهم إلى قلوبنا
كحال عادل إمام و نضال سيجري و روان أتكينسون (مستر بين)
و تشارلي شابلن و ماتيو بيرري و جيم كيري و غيرهم ..

بل نجد البشر في المواقف الصعبة يميلون إلى إلقاء الدعابات كسلاح
لا يضاهي لتذليل العقبات و تغيير حالة المزاج السوداوية السائدة ..
بل أصبح للنكات شخصياتها الشهيرة كالحماصنة و الصعايدة و أبو
العبد و جحا و غيرهم ☺ ، و اليوم هنالك نواذ خاصة لإلقاء النكات
يرتادها الناس للتفريج عن همومهم و أحزانهم أو ما يعرف
بمصطلح :

STAND UP COMEDY

و بسبب هذا التأثير الإيجابي الساحر للابتسامة نجد بعض الجهات
العالمية تروج لفلسفة الكآبة و الإحباط ، فنجدها مثلاً تروج منذ فترة
من الزمن لفلسفة الإيمو السلبية و هدفها نشر اليأس والحزن
والانطواء في قلوب المراهقين واجبارهم على التقيد بلباس أسود
مليء برموز الشياطين والجماجم وعمل تسريحة بالشعر تظهر عين
واحدة وتخفي الأخرى حتى يصلوا بالمراهقين إلى الميول الانتحارية
، فيشيرون فقط إلى الأجزاء المظلمة السوداوية من الحياة و يعانون
من الاضطرابات النفسية و العزلة .. و بالتالي أنت تدمر المجتمع
بتدمير جيله الصاعد بدون أن تطلق رصاصة واحدة !!

في عام **2013** كتب سفير الصين في أمريكا على حسابه على موقع التواصل الاجتماعي :

(هنالك سفيران للصين في أمريكا ، أنا و الباندا)

و هذا ما يدعى بدبلوماسية الباندا و هي استخدام الصين للباندا الظريفة كهدايا دبلوماسية للدول الأخرى بهدف تقوية العلاقات فيما بينها ، حيث قامت الصين عبر التاريخ بتصدير ابتسامة الباندا لدول العالم كمبادرة سلام و نوع من الترويج لنفسها بأنها دولة مسالمة و لطيفة معتمدة على قوة الابتسامة السحرية التي تحدثنا عنها آنفاً ، لأن الباندا يبتسم دائماً و لا يأبه للخطوب من حوله مهما كثرت .. فقد أهدت امبراطورة الصين وو زيتان زوج من الباندا لليابان في القرن **7** .. ثم أهداها الزعيم ماو تسي تونغ لروسيا و كوريا الشمالية في خمسينيات القرن المنصرم .. و بعدها أهدت الصين للولايات المتحدة الأمريكية زوجاً من الباندا عام **1972** و الذي سبب هناك ما عرف بجنون الباندا !!

لذا تمثل يا صديق الحرف بهذه العادة الجميلة للباندا و ابتسم دائماً في وجه الناس من حولك كي تستفيد أنت و هم من فوائد الابتسامة الهائلة .. و لا تكن كالإيمو متجهماً و عبوساً تنشر الطاقة السلبية في أعماقك و في كل شيء من حولك .. أي اجعل الابتسامة عادة ثابتة في حياتك ..

هنالك دعابة لطيفة في الغرب تقول بأن أطول كلمة في اللغة الإنجليزية هي :

(**SMILES**)

لأن هنالك ميلاً كاملاً (**MILE**) بين أول حرف فيها **S** و آخر حرف منها **S** ، و بالفعل بين طرفي ابتسامتك تقبع قائمة طويلة

للغاية من الفوائد لك و لغيرك فلا تبخل بها على أحد و تصدق بها
على الجميع فهي مجانية بالنهاية !!



في ختام مقاربتنا لسرنا الجديد (ابتسم و لو كنت حزينا) ، من
الأنسب بعد الآن ألا نقول :

= كيف أبتسم و الصعاب و المنغصات من حولي في كل مكان ؟!
بل أن نقول :

= إن كان لي هم عظيم ففوقه ربّ أعظم .. لذا عليّ التفاؤل و الابتسام
على الدوام فللابتسامة مفعول سحري عليّ و على الآخرين ..

يشاع عن الرئيس المصري السابق جمال عبد الناصر أنه كان يطالب
معاونيه بإدخال آخر نكتة دارجة في المجتمع يوميا مع المستندات و
الوثائق الرسمية المهنية ، لأنه كان يؤمن بأن النهار الذي يبدأ
بابتسامة ينتهي بابتسامة أي تتوسع الابتسامة لتشمل ساعات اليوم
كلها .. و هذه العادة عند الرؤساء في الحقيقة أقدم من ذلك بكثير ،
فيشاع عن حاكم مقدونيا فيليبوس الثاني أنه كان يطلب من كاتبه
تدوين نكات نادي الفكاهة ليستمتع بها في ما بعد و هو ما تم بالفعل ،
إلا أن الكتاب فقد في عصور لاحقة .. أما أقدم كتاب للنكت في التاريخ

ما زال موجوداً إلى يومنا هذا فهو كتاب فيلوجيلوس، والذي يتكون من **264** نكتة يونانية قديمة تعود إلى القرن **4** قبل الميلاد ، و من نكات هذا الكتاب الطريفة نذكر اثنتين ، الأولى :

(سأل حلاق زبونه: كيف تريدني أن أحلق لك سيدي ، فرد الزبون: بصمت، و في ذلك إشارة إلى ثروة الحلاقين المزعجة أحياناً للزبائن)

و الأخرى :

(التقى الإمبراطور الروماني بشبيه له في الشارع فسأله: هل كانت والدتك تعمل في القصر يا هذا ؟ فأجابه الشبيه: لا، بل والدي كان يعمل يا أنت !!)

أما من نكات زماننا الراهن فأدعك عزيزي القارئ مع هذا السؤال الذي لا يجيب عليه إلا الأذكياء فقط :

تزوج شخص إيرلندي من فتاة كورية و انتقلت للعيش معه في بلفاست .. في أحد الأيام ذهبت إلى محل اللحوم و الألبان و الأجبان لأنها أرادت أن تشتري أفخذه دجاج للطهي ، لكنها لا تتقن اللغة الإيرلندية بعد ، لذا رفعت ثوبها إلى الأعلى و اشارت للبائع إلى فخذها ففهم أنها تريد شراء أفخذه و باعها ما تريد ..

في اليوم التالي ذهبت لشراء البيض من نفس المتجر فأخذت زوجها معها إلى البائع ، لماذا ؟

▪

▪

▪

▪

لأن زوجها إيرلندي ببساطة فسيشرح للبائع ما تريد يا صاحب الظنّ
العاطل 😊

سراب الشهرة

= لماذا يبدو عليك الانزعاج يا صديقي ؟

= بسبب ابنتي ماريانا ...

= و ما خطبها ؟

= تستهلك جلّ وقتها في متابعة فيديوهات تافهة على مواقع التواصل الاجتماعي لا تفيدها بشيء و لا تغير من وعيها أو ثقافتها ، بل تشغل وقتها و تفكيرها و تركيزها عن الدراسة ..

= أمر مزعج بالفعل ..

= و لا أفهم بالأساس سبب انتشار تلك المواقع و الفيديوهات و شعبيتها .. !!

= يمكنني الإجابة على هذا التساؤل على ما أعتقد ..

= أرجوك أجبني ، علّني أكتشف طريقة كي أغير هذه العادة السامة و المدمرة في حياة ماريانا ..

= لهذه المواقع **3** مزايا تستقطب المراهقين بسهولة يا صديقي ..

= الأولى؟!

= الأولى هي أنها مسلية و مضحكة فتقضي على الملل ، و هو شيء يعاني منه المراهقون بشكل عام بسبب غياب المسؤوليات و قوانين المنزل الصارمة و هموم الدراسة ..

= منطقي للغاية ، و الثاني؟!

= الثاني هو حبّ الشهرة .. فهؤلاء الذين يظهرون في الفيديوهات لديهم ملايين المتابعين ، بمعنى أنهم أصبحوا مشهورين بأيسر طريقة و أسرع وقت ، و بما أن هوس الشهرة يداعب عقول جميع البشر

عامة و المراهقين خاصة ، فإنهم يرون هؤلاء كمثّل أعلى يريدون السير على خطاه .. و بنفس السياق تأتينا الميزة الثالثة و هي أن هذه المواقع تحقق أرباحاً جنونية لأصحابها بأقل جهد ممكن ، و حلم الثراء السريع مشترك بين جميع البشر بكل تأكيد ..

= كلام سليم لا غبار عليه ، و كدليل عليه فابنتي ماريانا بدأت تصرّ على والدتها كي تساعدنا على

تأسيس قناة خاصة بها على مواقع التواصل الاجتماعي لنشر محتوى فارغ مشابه بغية تحقيق الشهرة و الثراء ، إننا أمام معضلة أخلاقية حقيقية ستدمر المجتمعات إن لم يتم وضع حدّ حاسم و حازم لها ..

= بالفعل ، و أنا شخصياً أرى إدمان المراهقين على مشاهدة هذه الفيديوهات لا يقل خطورة عن إدمان المخدرات ، بل إنه أخطر منه كونه منتشر على نطاق أوسع منه بكثير و غير مكلف و بلا رقيب عليه ..

= لم تكن أجيالنا هكذا ، كانت أحلامنا سامية و عميقة ، ما الذي يحدث لهذه الأجيال ..؟!!

= أعتقد أنك مخطئ قليلاً في كلامك هذا يا صديقي ..

=ولماذا؟

= لأن حلم الترفيه و الشهرة و الثراء حلم قديم قدم البشرية و عابر للزمان و المكان و المجتمعات .. لكنّ عولمة الأرض بفضل الإنترنت هو ما جعل هذا الحلم يتفشى كعدوى بين الناس بشكل أوسع = لكنني لا أذكر قيام الناس بأمور تافهة من قبل بغية تحقيق هذا الحلم ..

= هذا مرتبط بتعريفك للمحتوى التافه ..

= أي شيء لا يفيد الناس بشيء ..

= في هذه الحالة التاريخ يعجّ بأشخاص قاموا بأمور
غير مفيدة بل وصل بعضها إلى مرحلة الجنون و
المخاطرة بالحياة بغية الشهرة ..

= أعطني مثالا إن أمكن ..

= بل أمثلة .. مثلاً قيام الساحر المجري هاري هوديني بمحاول
تحرير نفسه من قفص كان مقيداً فيه بسلاسل حديدية بعدما أُلقي في
نهر قبل أكثر من قرن ، فبماذا استفاد العالم من قيامه بذلك ؟
= لا شيء على ما أعتقد ..

= تماماً ، ثم لدينا رجل المخاطرات الأمريكي **إيفل نيفيل** و مغامراته
الكثيرة كالتحليق بدراجته النارية فوق **10** مركبات في العام **1971**
بدون فائدة تذكر أيضاً ، و في العام **1974** مشى الفرنسي **فيليب بوت**
على سلك معدني رفيع بين برجى مركز التجارة العالمي في نيويورك
على ارتفاع **400** متر ، فبماذا استفاد الناس من إنجازه هذا ؟
= لا فائدة واضحة ..

= ربما تسلية وجيزة كحال فيديوهات مواقع التواصل الاجتماعي
الراهنه ، لكن المؤكد أن هاري و **إيفل** و **فيليب** حققوا الشهرة و
الثروة من أفعالهم هذه ، فهم المستفيد الوحيد منها .. مما يؤكد أن
حلم الشهرة ليس أمراً طارئاً على هذا الجيل ..

= لكن لماذا الناس مهووسون بالشهرة لدرجة تدفعهم للقيام بأمور
مجنونة و مهددة لحياتهم ..

= هذا سؤال بالغ الأهمية يا صديقي و يعود إلى كوكبة من الأسباب
.. تعال لأحدثك أكثر عن وهم الشهرة ..

كثيراً ما نشاهد أشخاصاً يظهرّون عراة في فيديوهاتهم أو يهينون أنفسهم بمواقف تهريجية كغمز الوجه في كعكة أو غيرها ، و بلا هدف من ذلك سوى زيادة عدد المتابعين بغية الشهرة .. و السؤال الهام هنا هو :

(هل الشهرة مذهلة لهذه الدرجة التي يتخيلها الناس حتى يقوموا بأمور تافهة أو مهينة أو غريبة أو مجنونة قد تهدد حياتهم بالأساس ؟)

في الحقيقة الجواب على هذا الجواب قد يكون صادمًا لكثيرين :
(ربما كان للشهرة بعض المزايا الجميلة بالفعل ، إلا أنها وهم كبير على أرض الواقع ، وهم لا يكتشفه الإنسان إلا بعد أن يصبح مشهوراً)

ما معنى ذلك ؟ هذا ما سنحاول مقاربته بشكل أعمق و أدق عبر 4 زوايا هامة للغاية :

- أنواع الشهرة ..
- وهم الشهرة ..
- مزايا الشهرة ..
- الوجه القبيح للشهرة ..

فهيا بنا يا صديق الفكر نحلل كل زاوية منها على حدة كي نسقط ورقة التوت عن جسد الشهرة الحسناء التي يقع في غرامها الجميع قبل أن يكتشفوا الحقيقة المخفية بأنها (ماليكان) لا أكثر !!

☆ أنواع الشهرة :

في الواقع للشهرة بالمفهوم الأشمل نوعان رئيسيان يجب التمييز بينهما للأهمية القصوى :

✽ **الشهرة الإيجابية :** و تعني شهرتك بإنجازك لأمر إيجابية تفيد البشر و تحسن حيواتهم ، و غالباً ما تتطلب هذه الشهرة سنوات طوال من الكدّ و العمل لإنجاز شيء قيّم و مفيد للبشرية ، بمعنى أن الإنسان عليه أن يحترق جهداً كي يرى الآخرون نوره لينطبق عليه القول المأثور :

(أشهر من نار على علم)

كشهرة العلماء مثلاً أو الفنانين بمختلف توجهاتهم الذين يتركون أعمالاً هادفة أو صنّاع المحتوى الذين يقدمون محتوى بناء بأي شكل من الأشكال أو الزعماء الذين يبنون الأوطان و غيرهم .. و كما يقول المثل الشعبي التركي :

(لا يحوز المرء الشهرة وهو على سرير من ريش)

و الشهرة الإيجابية غالباً هي من تطلب الإنسان و تسعى إليه و ليس هو من يطلبها ، و هي أمر حميد في الحياة لأنها تؤكد أنك شخص مفيد للآخرين و تؤثر إيجابياً عليهم

✽ **الشهرة السلبية :** و هي شهرة طارئة و سريعة و سهلة التحقيق ناجمة عن الفضائح أو التهريج أو القوة المفرطة أو غيره و لا تقدم أي فائدة للبشر .. و الشهرة بمعناها السطحي أي معرفتك من قبل عدد كبير من الناس أمر تافه و بسيط يمكن لأي إنسان تحقيقه خلال ثوانٍ .. لا تصدقني يا صديقي ؟ انزل الآن إلى الشارع أمام منزلك و قم ببعض الحركات الغريبة المضحكة و سأضمن لك أن يبقى اسمك خالداً في حيّك إلى الأبد ..

هذا هو ثمن الشهرة السلبية البخس يا صديقي ، و هذا ما يعتمد به بعض المغنيين أو الممثلين أو صنّاع المحتوى على مواقع التواصل أو الديكتاتوريين و غيرهم ، القيام بأمر لا أخلاقية أو تافهة تحت البشر على الحديث عنها فيشتهروا ببساطة ، لكن ما صعوبة القيام

بذلك؟! و الشهرة السلبية شيء خطير للغاية يجب على جميع الناس محاربتة لأنه يفسد عقول الأطفال و المراهقين كما حدث مع صديقتنا ماريانا في مقدمة مغالطتنا و يدفعهم إلى سلوك طرق مختصرة و سطحية للشهرة و الثراء لا تبني شخصية أو عقولاً ، فكيف لها أن تبني أوطاناً و تاريخاً بالأساس؟! و كما يقول الأديب الإسباني سرفانتيس :

(الشهرة بلا فائدة لا تساوي شيئاً)

☆ وهم الشهرة :

عندما يكون الإنسان مغموراً لا يعرفه سوى عائلته و معارفه المعدودين ، يبدأ حلم الشهرة يداعب عقله :

(أريد أن أصبح معروفاً من قبل الملايين)

فيبدأ بالتخطيط لتحقيق هذا الهدف الذي ربما يكون بالطريق المنطقي و السليم عبر تحقيق إنجازات إيجابية تفيد الآخرين و تحقق شهرته بنفس الوقت ، أو بالطريق الخاطئ عبر القيام بأفعال غريبة أو مجنونة أو تافهة أو مهينة تجعل الناس يتحدثون عنه بسلبية .. و لاحظ عزيزي القارئ أنه أصبح مشهوراً في الحالتين ، فالشهرة ليست تقييماً لجودة عملك ، بل مجرد فكرة أن تصبح معروفاً من قبل عدد كبير من الناس عكس الغالبية الساحقة من المجتمع ..

تأتي هنا الفكرة الأهم في حديثنا و هي اللحظة التي يصل فيها الإنسان إلى مرحلة الشهرة ، و هنا لابد من التطرق إلى مفارقة غريبة و مهمة تدعى (مفارقة البرسيم) و التي تنصّ على التالي :

(تميل زهرة البرسيم إلى التكون من 3 وريقات ، لكنها أحياناً و على نحو غير اعتيادي تأخذ شكلاً شاذاً من 4 وريقات مما يجعلها مميزة للغاية في الحقل.. تخيل هنا حقلاً يحوي عدداً لا نهائياً من زهور البرسيم الطبيعية و بينها تنتشر نسبة ضئيلة من الزهور

الشاذة ، فهل ستبقى هذه الزهور الشاذة نادرة ؟! بالطبع لا
فباعتبار أن الحقل يحتوي عدداً لا نهائياً من زهور البرسيم فهو
سيحتوي عدداً لا نهائياً من زهوره الشاذة أيضاً في مفارقة
محيّرة !!)



و هنا مربط الفرس في مفهوم الشهرة الوهمية ، فما إن تطأ قدمك
عالم الشهرة و الأضواء ، ستبدأ بملاحظة أن عدد المشاهير في
الكون هائل .. بمعنى أن شهرتك بعد تحققها ستبدأ بالتبدد بين
هذه الأعداد الكبيرة من المشاهير ليفقد تميزك كورقة برسيم رباعية
معناه فتعود و ترى نفسك إنساناً عادياً كغيرك لم يحقق شيئاً جديداً
أو مميزاً ! ليبقى في الميدان نوعية عملك الذي شهرتك لا غير ، فإن
كان إيجابياً و مفيداً للآخرين فستشعر بالوجود و الفاعلية (ليس
بسبب شهرتك بل بسبب فائدتك) ، أما إن كان سلبياً بلا فائدة فستشعر
بنفسك فارغاً و بلا معنى رغم شهرتك الجديدة الحاصلة ، فالشهرة
عزيزي القارئ مجرد وهم لن تفهمه إلا بعد أن تمتلكه ، تماماً
كظاهرة السراب ، لن تعرف أنه وهم غير موجود إلا عندما تبلغه

☆ مزايا الشهرة :

للشهرة بلا شك مجموعة من المزايا و إلا لما كانت هوساً و هاجساً
للجميع لاسيما الشباب منهم كما وصفها الأديب البريطاني لورد

بايرون :

(الشهرة عطش الشباب)

و لعل أهم هذه المزايا :

✧ الشهرة إحساس بالوجود : فالشهرة قد تعوض في كثير من

الأحيان مشاعر النقص عند البعض الذين يرون أنفسهم بلا تأثير على المحيط من حولهم ، فتحقق الشهرة لهم توازناً نفسياً بشعورهم أنهم باتوا يمتلكون هذا التأثير .. و هذا ما يؤكد برينشتاين في أبحاثه حول علم النفس بأن الرغبة في الشهرة التي قد يسعى وراءها بعض الناس هي لإخفاء إحباط أو اضطراب نفسي غير مشخص لديهم ..

و يقول جيفري هانكوك أيضاً و هو أستاذ التواصل بجامعة ستانفورد ، أن تطبيق فيسبوك على سبيل المثال له تأثير إيجابي كبير على تقدير الذات لدى طلاب الجامعات ، لأنه يظهر تفاعل الآخرين مع شخصهم و أفكارهم فيشعرهم ذلك بالوجود و الفاعلية و بشيء من الشهرة ، مما يفسر علمياً سبب تعلق الناس الكبير بهذا التطبيق ..

✧ الشهرة إحساس بالتميز : و هذا البند بسيط للغاية ، فغالبية

الناس في المجتمع مغمورون و قلة مشهورون ، لذلك فالشهرة تمنحنا شعوراً بالتفوق و الأفضلية عليهم لأننا حققنا شيئاً يصعب عليهم تحقيقه ، بغض النظر عن أن الشهرة في أيامنا هذه باتت أسهل بكثير مما مضى ، إذ يكفيك أن تقوم بفضيحة ما كي تشتهر على صفحات الإنترنت !! ..

✧ الشهرة مفتاح لفرص عمل جديدة : فعندما يشتهر الإنسان

يبدأ المنتجون و مديرو الأعمال و المستثمرون بالتواصل معه لإبرام عقود معينة معه أو طلب الترويج لمنتجاتهم بالدعاية مثلاً أو لاحتكار إنجازاته ..

✽ **الشهرة مدخل إلى الثراء :** إنّ العلاقة بين الشهرة و الثراء مثبتة بالإحصائيات و الأرقام .. و خير دليل بسيط على ذلك هو مواقع التواصل الاجتماعي التي تحدثنا عنها في مقدمة المغالطة و التي تحقق أرباحاً جيدة لأصحابها و تزداد الأرباح كلما زادت الشهرة و عدد المتابعين بشكل مطّرد ..

✽ **الشهرة ورقة توت تستر العيوب :** الشهرة تمنح الإنسان

نوعاً من الحصانة .. فالناس تتجنب غالباً لفت النظر إلى عيوب المشاهير كي لا يُفسر كلامهم كنوع من الغيرة من شهرتهم .. و من زاوية أخرى فالناس تنظر إلى المشاهير كأشخاص ناجحين بمعنى أنهم يتمتعون بلا شك بخصال جيدة كانت السبب في شهرتهم ، فيشرعون بعد إيجابياتهم و التغاضي عن سلبياتهم .. كما قال الشاعر الكبير أحمد شوقي :

تغطي الشهرة على العيوب

كالشمس غطى نورها على نارها

☆ **الوجه القبيح للشهرة :**

للشهرة جانب مظلم للغاية لا يعرفه إلا من ولج عالمها ، و هو أشبه بمتاهة حقيقية تنهك النفس و التفكير و تسبب القلق و الأرق ، و كمثال على هذا الجانب نذكر:

✽ **زوال الخصوصية :** و هذا أبشع جانب للشهرة ، حيث تصبح

حياتك الخاصة مستباحة أمام الجميع و تفقد لذة الانفراد بنفسك بهدوء و صفاء .. و توضع حياتك في محرق الإعلام و الصحافة فيتم تناول جوانب شخصية للغاية منها من غير المناسب التطرق إليها .. و جميعنا يعلم تطفل الصحفيين على حياة المشاهير اليومية

(البابارازي) و إعاقتهم لحرياتهم و عفويتهم ، و كأنك تعيش في برنامج واقع مدى الحياة ..

و للأسف فهذا التطفل قد يصل ببعض المشاهير إلى الاكتئاب و ربما الانتحار بل إنه أودى بحياة البعض فعلياً كقصة الأميرة ديانا الشهيرة مثلاً .. لذلك نجد نجم الفورمولا 1 الألماني مايكل شوماخر يقول :

(أطفالي غير معروفين ، و أعتقد أن هذا مهم جداً .. لقد عاشوا حياة طبيعية حتى الآن ، و سوف يستمرون هكذا ، أشعر أنه ينبغي أن تتاح لهم إمكانية عيش حياة حرة دون عبء الشهرة التي صنعتها)

✽ **المحاربة و التشويه بدافع الغيرة :** كما قلنا آنفاً الشهرة حالة يعيشها قلة من الناس ، لذا يثير هذا نحوهم عاصفة من الغيرة من محيطهم العاجز عن تحقيقها .. و جميعنا نعرف التطور الطبيعي لهذه الخصلة السامة :

(حسد ثم غيرة ثم حقد ثم تشويه ثم أذية ثم تلفيق)

و لا تتغلق الدائرة ربما إلا بإيصال المشهور إلى حافة الاكتئاب و الألم و العجز عن الاستمرار أي تحقيق غايات الحاسدين بالنهاية ، لذا إن أردت أن تصبح مشهوراً عزيزي القارئ فعليك أن تكون قوياً و واثقاً من نفسك بما يتناسب مع مستوى الشهرة الذي تطمح له و إلا طحنت بين أنياب الحاسدين ..

✽ **تسليط الضوء على العثرات :** قد تكون جالساً بين أصدقائك في السهرة و تتفوه بكلام غريب أو غير مناسب و ربما غبي فيضحك أصدقاؤك قليلاً و ربما تشاركهم الضحك و تتابعون السهرة ، أما إن كنت مشهوراً و زلّ لسانك بكلام غير ملائم فستضج الصفحات و القنوات و الجرائد بذلك كما لو أنك أول شخص يخطئ في التاريخ

.. لاسيما أنّ مصدر رزق البعض قائم حرفياً على تداول فضائح المشاهير و زلاتهم !!

✽ **الإتجار الديني والسياسي بك :** فبعض الناس الذين يصلون لمستويات عالية من الشهرة يتم الضغط عليهم من جهات دينية أو سياسية للترويج لأفكارهم و إظهارهم بمظهر برّاق أمام المجتمع سواء برضا المشاهير كاستفادة من تلك الجهات أو ضد قناعاتهم خوفاً منهم و من أذاهم المحتمل .. و الدين و السياسة متاهة حقيقية متى دخلها المشاهير ضاعوا في ثقب أسود لا قرار له و المحظوظ من يصادف نادراً ثقباً أبيض يخرج منه .. و لا ننسَ مثلاً قصة الممثلة الشهيرة الحسنة مارلين مونرو التي دخلت بعلاقات مع الرئيس الأمريكي جون كينيدي و شقيقه السيناتور روبرت كينيدي و أودت بحياتها في النهاية كما يزعم كثيرون ..

✽ **فخّ الغرور :** أكبر خطايا الإنسان هي الغرور بلا شك ، فهي أول خطوة لخسارة كل شيء .. و أضواء الشهرة برّاقة تعمي البصر و البصيرة فيتورم الدماغ و يشعر المرء بالفوقية تجاه الناس العاديين و ينسى أنه كان منهم ذات يوم ، و الأهم أنه في الحقيقة لا زال منهم فشهرته كلها مجرد أرقام أكبر أصبحت تعرفه لا أكثر كما تحدثنا آنفاً في بند وهم الشهرة و ورقة البرسيم ، فما الذي تغير في حياته من الأساس بشهرته الوهمية هذه ؟! و أفضل توصيف للشهرة بأنها كأس من النبيذ متى شربه الإنسان سيسكر لا محالة ، و هذه كأس على جميع المشاهير ، و السؤال الأهم هو كم ستستمر فترة السكر هذه قبل أن يصحو المشهور على حقيقة أنه إنسان عادي كغيره لكن يعرفه بشر أكثر لا أكثر !!؟

✽ **الماضي الأسود :** للطائرات صندوق أسود يتم البحث عنه في حوادث التحطم لمعرفة سبب الكارثة باسترجاع آخر ذكريات

الراكبين على متنها .. و للمشهور بدوره صندوق أسود خاص به
و هو ماضيه ، لكن في حالة الشهرة يبدأ الإعلام و الصحافة بنشر
هذا الماضي لاستخراج الصندوق الأسود من فضائح المشاهير قبل
الشهرة أو سلبياتهم أو كلامهم غير المسؤول في ماضيهم و غيره ..
لذا فالمشاهير سيدفعون مباشرة متى بلغوا الشهرة ضريبة هائلة و
هي فتح دفاتر الماضي و التنقيب فيها عن كل شيء أسود و معيب
لفضحه على الملأ ، و ربما يتم استخدامه كورقة ضغط و ابتزاز
عليهم لتحصيل مكاسب مادية أو سياسية أو دينية و غيرها منهم ..
و بعد كل ما ذكر ، إن كنت تحلم يا صديق الفكر بأن تصبح مشهوراً
ذات يوم فتأكد أن خلف مزايا الشهرة الجميلة تقبع قائمة سوداء طويلة
من العيوب القاتلة التي قد تحيل حياتك الهائلة اليوم إلى جحيم حقيقي
بعد شهرتك ، فاحذر جيداً مما تتمناه ، و تذكر دائماً مقولة فولتير
الشهيرة :

(الشهرة حمل ثقيل)

في ختام مقاربتنا لسرنا الجديد (وهم الشهرة) ، من الأنسب ربما
ألا نقول بعد الآن :

= أنا مستعد لفعل المستحيل كي أصبح مشهوراً ، فالشهرة جميلة
للغاية ..

بل أن نقول :

= الشهرة سراب يراه فقط البشر غير المشهورين لكن متى ما تمكن
أحد من بلوغه بأن يصبح مشهوراً فسيكتشف أنه غير موجود ، و
بأنه مشهور كغيره من ملايين المشاهير حول العالم ، و لا تغيير
للشهرة على حياته سوى أنه بات معروفاً من قبل عدد أكبر من البشر
لا غير ، و ربما كانت للشهرة بعض المزايا لكنها تحمل في طياتها

قائمة طويلة من السلبيات التي تعكر صفو الحياة و ربما تؤدي في النهاية بالحياة نفسها ..

تميل الحيوانات المتوحشة المفترسة التي تسكن ظلمات أعماق المحيطات إلى إغراء فرائسها بتعليق ضوء أمام فمها فتتجذب إليه الأسماك الصغيرة بإرادتها ظناً منها بأنه نور ساحر في عتمة الأعماق و ما إن تقترب منه حتى تفتح الأسماك المتوحشة فمها و تبتلعها ، و هذا هو حال أضواء الشهرة يا صديقي ، تغريك و تجذبك إليها و ما إن تطأ قدمك عالمها حتى تتلقفك متهاتها لتضيع في ظلمات سلبياتها .. و الحقيقة المرة المغيبة أنّ عالم الشهرة يقبع فقط في أعماق الحياة المظلمة حيث تحيط بك الوحوش من كل حذب و صوب ، فإن أمكن لك أن تتجنبه فافعل ..



نصل أوكام

في يومه الأول من العمل في منجم الفحم، كان الشاب القوي متحمساً جداً للعمل، فقد حضر مبكراً جداً قبل الجميع ليثبت أنه على قدر من المسؤولية، وبدأ العمل بجد و اجتهاد كبيرين ، فكان يضرب بمعوله بكل ما أوتي من قوة على الحجارة ليستخرج الفحم منها ..

بعد ساعتين من قيامه بالحفر وصل رجل كبير في السن له خبرة طويلة في مجال العمل على ما يبدو، فنظر إليه الشاب القوي وقال في نفسه بزهو:

= ماذا يفعل هذا الهرم في منجم للفحم ، و لماذا يأتي متأخراً؟!..
سأنجز أضعاف مضاعفة مما سينجزه بلا شك فتكون حصتي من المال أكبر ..



بدأ العجوز عمله أيضاً، و كان يتمتع بصحة جيدة، و يضرب بهدوء ، رمقه الشاب بطرف عينه كيف يضرب، و قال في نفسه مرة أخرى:

= لماذا يوظفون عجوزاً بهذه المهمة الفاترة و يدفعون له المال؟!!

ثم واصل عمله ، لكن في نهاية اليوم فوجئ الشاب و صُدم للغاية عندما علم أن ذلك العجوز أنجز أكثر منه فاستخرج كمية أكبر بكثير من الفحم ، مع أن الشاب بذل كل طاقته و لوقت أطول !

لم يستسلم الشاب بسهولة، و قرّر أن يضاعف جهده في صباح اليوم التالي ، و في الغد عمل بالفعل بجد أكثر و بذل جهداً أكبر، لكن في نهاية اليوم خاب أمله مجدداً، فالعجوز أنجز أكثر منه كحال الأمس !

بدأ الشاب يفكر باستغراب ويتساءل : (ما السر في أن ذلك العجوز ينجز أكثر مني، مع أنني أحضر قبله، وكذلك أعمل بكل ما أوتيت من قوة، وأعمل فترة أطول منه؟!)

وعندما لم يجد جواباً شافياً قرّر أن يسأل العجوز بنفسه ، فانطلق إليه واستأذنه للحديث معه فرحّب به العجوز وأثنى على همته و حماسه و التزامه ..

= هناك أمر يحيرني يا عماه ، و أنت سبب تلك الحيرة!

= أنا ؟!

= نعم، لقد كنت أحضر مبكراً، و أعمل بجد و جهد لفترة طويلة، و في نهاية اليوم أجذك تنجز أكثر مني بكثير، مع أنك تحضر متأخراً إلى العمل و تعمل بهدوء!

ضحك العجوز وقال:

= يا بني ، ببساطة ضع في معولك قليلاً من الذكاء..

نظر الشاب الى العجوز بتعجب ثم قال:

= وكيف ذلك ؟ هل للمعول عقل حتى يكون فيه ذكاء؟

= يا بني، ليس المهم أن تضرب بقوة على الحجر، وليست كثرة الضرب ولا طول وقت العمل ما يهم ..

= إذاً ما المهم ؟!

= صحيح أن تلك الأشياء كلها مهمة، لكن الأهم منها هو معرفة أين تضرب؟ ومتى تضرب بقوة ؟ فربما ضربة واحدة في مكانها الصحيح و طريقتهما الصحيحة و وقتها الصحيح تغنيك عن مئة ضربة عبثية ، اعمل بذكاء لا بجهد ، و السرّ يكمن في تبسيط الأمور باختيار الطريقة الأسهل و الأنجع ..

لا أشك يا صديق الحرف أنك مررت من قبل بحادثة شبيهة لما اختبره صديقنا الشاب القوي في منجم الفحم، عندما بذلت جهداً كبيراً لإنجاز واجب ما لتكتشف أن غيرك أنجزه بنتيجة أفضل منك و بجهد أقل .. كمثال الدراسة للامتحانات مثلاً، فتكون درجتك النهائية في الامتحان أقل من درجة زملاء لك درسوا لوقت أقل منك و لم يحرموا أنفسهم من الراحة و الترفيه على نقيضك .. هذه الظاهرة الغريبة و غير المنطقية هي جوهر سرنا الجديد (نصل أوكام) مع سؤاله المحوري التالي :

(هل العمل لوقت طويل و بجهد كبير يقتضي بالضرورة نتيجة أفضل من غيرك يعملون لوقت أقصر و جهد أقل ؟! أم أنّ هذه مجرد خدعة ؟!)

و ببساطة الجواب المبدئي الوجيز على هذا السؤال هو :

(على الإطلاق ، ليس المهم أن تعمل بجهد كبير ، بل أن تعمل بذكاء كبير)

كيف ذلك ؟ تعال يا صديقي لنقارب سرنا من عدة زوايا هامة كي نتوصل بجمع خلاصاتها إلى تفسير دقيق و كاف لهذا الجواب ، و ذلك بالتطرق إلى 3 نظريات غاية في الأهمية :

● نظرية نصل أوكام ..

● نظرية اعمل بذكاء و ليس بجهد ..

● نظرية فرق تسد ..

فهيأ بنا ..

✧ نظرية نصل أوكام :

مبدأ لحل المشاكل ينص على :

(لا ينبغي تعقيد شيء إذا لم تقتضِ الضرورة)

ذلك ، فإذا كان أمامك عدة فرضيات اختر الأبسط منها)

بمعنى آخر ، أبسط الحلول هو الحل الصحيح في أغلب الحالات لذا تجنب التعقيد .. و تُنسب هذه النظرية إلى الراهب الإنجليزي وليام أوكام الذي عاش في القرن 14.

و خير مثال على هذه النظرية هو المثل الشعبي الشهير:

(إذا أردت أن تمسك أذنك اليسرى فأمسكها بيدك

اليسرى لا بيدك اليمنى فذاك أبسط)

و هذا ما نجده كثيراً في حياة البشر من حولنا ، حيث يميلون إلى انتهاج الطريق المعقد و الصعب لحل المشاكل و تحقيق الإنجازات .. في حين يكون الحل السهل و البسيط أمامهم و يتعاملون عنه لأنه بسيط من وجهة نظرهم ، مما يكلفهم المزيد من الوقت و الجهد بدون داع أو مبرر .. فهل من الحكمة أن يقوم فلاح بحصاد محصول القمح يدوياً بمنجله لأسابيع ، إن كان بإمكانه أن يحصده بسويغات باستخدام آلة الحصاد الحديثة؟!!

أو هل نفسر سقوط التفاحة على رأس نيوتن بأن هنالك قوة في السماء تدفعها للأسفل أو أنّ هنالك قوة محرك في داخلها حررتها من الشجرة ، أو ببساطة نفس الأمر بوجود قوة جاذبية للأرض جذبت التفاحة إليها؟!!

ربما حل بسيط و بديهي يحل أعقد الإشكاليات التي بذل البشر ساعات

طوال و جهداً جباراً لحلها دون نتيجة ، و كمثال بسيط عن ذلك لدينا **الثابت الكوني** الذي أدخل على المعادلة الأساسية لنظرية النسبية العامة لأينشتاين فحلّ ببساطة مشكلة تضارب مشاهدات المراسد الفلكية مع هذه المعادلة ، دون الخوض في صحة هذا الثابت من وجهة نظر ميكانيكا الكم لاحقاً .. و كما يقول أينشتاين نفسه في غزله العلمي لمفهوم التبسيط :

(إذا لم تستطع شرح فكرتك لطفل عمره 6 أعوام

فأنت نفسك لم تفهمها بعد)

بمعنى قدرتك على تبسيط المعلومة كي تتمكن من شرحها ، فكلما كان الشرح أبسط كان فهمه أسهل .. و هذا في الحقيقة نهج نتبعه في سلسلة مغالطاتنا عن عمد بإكثار الصور البسيطة و الكلام المفهوم بعيداً عن المصطلحات الضخمة و اللغة المعقدة كي يفهمها القراء مهما كانت أعمارهم أو سوياتهم الثقافية ، فيحصلوا أكبر قدر من الفائدة ..

باختصار نظرية نصل أوكام تدفعنا لاختيار الحل الأبسط و الأسهل بعيداً عن تعقيد القضايا على أنفسنا فنخسر بذلك الوقت و الجهد .. كما يقول الفيلسوف الصيني الشهير كونفوشيوس :

(الحياة بسيطة حقاً ، لكننا نُصرُّ على جعلها معقّدة)

و هذا ما أكّد عليه بدوره أستاذ الرياضيات و الفيزياء و علوم الحاسوب الهولندي إدسخر ديكسترا :

(البساطة فضيلة عظيمة ، أما التعقيد فليس سوى زيادة الطين بلة)

❖ نظرية اعمل بذكاء وليس بجهد :

و هذا ما فعله بالضبط صديقنا العجوز في منجم الفحم ، فقد اختار مناطق معينة للحفر يعلم بخبرته أنها أغزر بالفحم الحجري على

خلاف صديقنا الشاب الذي كان يحفر خبط عشواء فيخسر جهده و وقته بأقل النتائج ..

في تجربة علمية بسيطة لكن عميقة و مذهشة .. وضع علماء قطعة طعام طافية في أنبوب زجاجي شفاف

مملوء إلى ربعه بالماء و مثبت جيداً و بجواره مجموعة من الحصى الصغيرة .. ثم أحضروا قطعة و تركوها بجوار الأنبوب في صندوق لفترة طويلة حتى جاعت و بحثت عن طعام فلم تجد سوى تلك القطعة ، فحاولت هز الأنبوب عبثاً أو كسره بلا نتيجة .. و كانت يدها تدخل قليلاً في الأنبوب لكن لا تصل إلى قطعة الطعام ، و بعد محاولاتها الفاشلة لساعة من الوقت أخرجوها ، ثم أحضروا غراباً و كرروا نفس التجربة معه ، لكن الغراب بحكم أنه من أذكى الحيوانات تعامل مع الموضوع بطريقة أخرى ، فعندما أدرك أن منقاره و مخالفه لا تصل إلى قطعة الطعام ، أمسك الحصى بمنقاره و أدخلها في الأنبوب واحدة تلو الأخرى حتى ارتفع منسوب المياه فيه و معه قطعة الطعام ثم تناولها الغراب بمنقاره و أكلها ، و لم تستغرق العملية منه سوى 5 دقائق فقط .. فالغراب على نقیض القطعة فكر بذكاء و ليس بجهد فحصل على مبتغاه ..

و لقد لخص عالم الاقتصاد الألماني البريطاني إرنست شوماخر هذه الفكرة بالقول :

(أي أحقق ذكي يمكن أن يجعل الأشياء أكبر و أكثر تعقيداً و أكثر عنفاً، يتطلب الأمر لمسة من العبقريّة و الكثير من الشجاعة للمضي في الاتجاه المعاكس)

فالقضية ببساطة هي أن تكون ذكياً، و قمة الذكاء هو أن تعرف الخيار المناسب من بين الخيارات المتوفرة بين يديك و عندها ستحل مشكلتك في ثوانٍ ، كما قال أينشتاين أيضاً :

(لو كنت على وشك أن أقتل و أمامي ساعة واحدة فقط لأبحث

عن طريقة لإنقاذ حياتي، فإنني سأكرّس أول 55 دقيقة في البحث
عن السؤال المناسب، و بمجرد الوصول الى ذلك فإنّ العثور على
الاجابة سيحتاج الى 5 دقائق فقط)

✽ **نظرية فرق تسد :** و هي النظرية الأهم في حل المشاكل و ذلك
بتبسيطها إلى أجزاء صغيرة ثم البدء بحل الأجزاء الأسهل منها و
التدرّج صعوداً إلى الأجزاء الأصعب على مبدأ :

(ابدأ بالضروري ثم انتقل إلى الممكن تجد نفسك

تفعل المستحيل)

و أول من دعا إلى هذه النظرية هو الفيلسوف الفرنسي ديكارت في
فلسفة الكوجيتو الشهيرة (أنا أفكر إذاً أنا موجود) ، فاقترح تجزئة
المشكلة و تفريقها إلى مشاكل أصغر و عندها يمكن للإنسان حل
كل مشكلة صغيرة منها على حدة ، و بحل جميع الأجزاء تكون
المشكلة الكبيرة العويصة قد حلت بالفعل و ببساطة .. و هذا ما نجده
بوضوح في لعبة سودوكو اليابانية الشهيرة و الممتعة للعقل ..

8	7			2			5	1
9	4			7			3	8
			3		4			
		6	7			5		
5	8			9			7	6
		7			5	2		
			8		2			
7	2			5			6	4
1	3			4			2	5

فإن أنت أدخلت الأرقام بشكل عشوائي سيستغرق حل اللعبة شهراً بل سنوات ، بل قد لا تحلها على الإطلاق ، أما إن قمت بملاحظة كل رقم منها على حدة ستحلها خلال دقائق معدودة ..

و تذكر أن أول خطوة لحل المشكلة هي التعامل معها بشكل مجرد فتخلص من تأثيرها على عقلك و نفسك كي ترى الحلول بوضوح ، كما قال الأديب الفرنسي فولتير :

(الطريقة الامثل في أن تجد حلاً لأي مشكلة هو أن تخرج نفسك من دائرة تأثيرها على وعيك ، و تنظر إليها بامعان و تجرد كما لو كنت تتفرج على فلم سينمائي)

إذاً بتقاطع محاور النظريات الثلاثة السابقة مع بعضها نتوصل إلى البروتوكول الذهبي لحل المشاكل في حياتنا :

① أخرج نفسك من التأثير النفسي للمشكلة عليك و انظر إليها بتجرد كي تحددتها بدقة ..

② ابحث عن جذور المشكلة لا نتائجها .. فهذا تفكير بذكاء لا بجهد

③ ضع أمامك الحلول الممكنة و اختر أبسطها فغالباً هو الأنسب بحسب نظرية نصل أوكام ..

④ إن كانت المشكلة معقدة أكثر و بلا حلول واضحة قسمها إلى مجموعة مشاكل صغيرة ..

⑤ ابدأ بحل المشاكل الصغيرة السهلة أولاً و تدرّج صعوداً ..

⑥ اتبع مبدأ التبسيط مجدداً في حل المشاكل الصغيرة و فكر بذكاء لا بجهد .

⑦ تهانينا ، لقد حللت مشكلتك بالفعل !!

و كمثال مباشر على هذا البروتوكول سأطرح عليك عزيزي القارئ اللغز التالي الطريف كمشكلة عويصة على الحل ، و اتبع البروتوكول السابق لحلها :

(يريد فلاح نقل ثعلب و دجاجة و حقيبة من الذرة من ضفة نهر إلى أخرى في زورق لا يوجد به متسع إلا للفلاح وكائن آخر معه)

عندما تفكر باللغز جيداً ستجد أن المشكلة الرئيسية فيه مؤلفة من **3** بنود :

✱ حمولة القارب **2** فقط (الفلاح وكائن آخر) ..

✱ لا يستطيع الفلاح ترك الثعلب مع الدجاجة فهو سيأكلها ..

✱ لا يستطيع الفلاح ترك الدجاجة مع حقيبة الذرة فهي ستأكلها ..

كيف سيحل الفلاح هذه المشاكل الثلاثة معاً .. فكر قليلاً بدورك بالحل ثم اقرأ الحل الصحيح أدناه ..

▪
▪
▪

الحل :

● يأخذ الفلاح الدجاجة وينقلها للطرف الآخر ويعود خالياً (يتبقى بذلك الثعلب مع الذرة).

● يعود الفلاح خالياً ويأخذ الثعلب للطرف الآخر ويأخذ الدجاجة في العودة (يكون بذلك الثعلب في جهة وحقيبة الذرة في جهة و الدجاجة في القارب).

● يترك الفلاح الدجاجة على الجانب الآخر ويأخذ حقيبة الذرة (يكون بذلك الثعلب كما هو في جانب، الدجاجة في جانب آخر وحقيبة الذرة معه على القارب)

● يترك الفلاح الذرة في الجهة الأخرى مع الثعلب ويعود خالياً (بذلك يكون كل من الثعلب وحقيبة الذرة في جهة، الدجاجة في الجهة المقابلة ولا أحد معه في القارب).

● يأخذ الفلاح الدجاجة وينقلها للطرف الآخر وبالتالي يكون قد أتم المهمة و حل المشكلة العويصة التي واجهته ، فهو باتباع البروتوكول الذهبي وجد الحل بسهولة !!

هذا كان باختصار تفسير جوابنا السابق على سؤال مغالطتنا ، قد تبذل كثيراً من الوقت و الجهد فتحصل نتائج متواضعة ، في حين أنّ الأصحّ هو أن تفكر بذكاء لا بجهد لحل مشاكلك أو إنجاز أعمالك و كما يقول المثل الشعبي :

(من يستخدم عقله يريح قدميه)

في ختام مقاربتنا لسرنا الجديد (نصل أوكام) ، ربما من الأنسب بعد الآن ألا نقول :

= يا لها من مشكلة معقدة بلا حل ، لا بد أن حلها سيكون معقداً أكثر و يتطلب وقتاً و جهداً عظيمين ..

بل أن نقول :

= تعامل مع مشكلتك ببساطة ، فغالباً أبسط حل يتبادر إلى ذهنك هو الصحيح فلا تعقد أمورك أكثر و تزيد الطين بلة .. و إن لم يفلح هذا الحل، فرق مشكلتك إلى مشاكل صغيرة و ستجد أن حل كل منها يسير و هين عليك .. و بالنتيجة ما من مشكلة بلا حل ، و ما من حل إلا بسيط ، فقط فكر بذكاء و ليس بجهد و اتبع البروتوكول الذهبي السابق كي تحل أي مشكلة و حتى إن بدت لك في البداية كعشرات الأقفال التي تكبل معصميك و تشلك عن أي فعل لحلها فإنك بهذا البروتوكول ستحرر من هذه الأقفال على نحو أسرع من الساحر المجري الشهير هاري هوديني نفسه !!

تحدثنا في هذا السرّ هذه عن الأسلوب العلمي لحل المشاكل ، لكن

علينا ألا نغفل عن الجانب الروحي منه ، فنؤمن بأن ما من مشكلة
تعترضنا إلا لحكمة من الخالق ، و من ابتلاك بمشكلاتك سيعينك على
حلها .. لذا اشحن روحك بالطاقة و العزيمة و الإيمان قبل الشروع
بحل مشكلاتك فذلك سيوضح الرؤية لك أكثر و يلهمك حلولاً خلاقة و
إعجازية .. إنها خير بداية لحلّ أي مشكلة وفق البروتوكول الذهبي
الذي شرحناه .. كما قال الكاتب و المتحدث التحفيزي الأمريكي
روبرت شولر :

(رنتان تمتلآن بالهواء بنفيس عميق ، و لسان يقول :

/ الحمد لله /

هذا ما أحতاجه دائماً للتعامل مع اللحظة الأولى في الموقف
(العصب)

فالإيمان هو المفتاح الأساسي لصندوق الحلول لأي مشكلة كي تختار
منها ما يناسبك بعقلك لاحقاً ..

لسانك حصانك

مضى الرجل العجوز يشق طريقه بين الناس و قد انحنى ظهره
بالكامل بسبب كومة من العيدان للتدفئة
يحملها فوق ظهره حتى بات وجهه مطرقاً إلى الأرض ، لذا كان
يصيح بأعلى صوته :
= افتحوا الطريق .. أفسحوا الدرب ..



على بعد أمتار قليلة وقف شاب أرعن في منتصف الطريق متلصصاً
بنظراته إلى إحدى الفتيات الجميلات و هو يعاكسها بكلمات معسولة

فلم يكثرث لصياح الرجل العجوز .. فاصطدم به ليقع الشاب على الأرض و قد تمزقت عباءته بالعيدان ..

غضب الشاب كثيراً و أرغم العجوز على الذهاب معه إلى الحاكم كي يشتكي عليه .. استجاب العجوز لذلك دون أن ينطق بأي كلمة .. و عند الحاكم أخذ الشاب يشرح له بإسهاب و انتقاء فريد للكلمات كيف اصطدم به العجوز لأنه لا ينظر أمامه فأوقعه و مزق ثيابه .. انتهى الشاب من شكواه فالتفت الحاكم إلى العجوز و قال له :

= هل كلام هذا الشاب صحيح أيها العجوز ؟

لم يجب العجوز .. فكرر الحاكم سؤاله مجدداً دون أن يجيب أيضاً.

= هل تسمعي أيها العجوز ، أنا الحاكم ..

لم يجب العجوز، فالتفت الحاكم إلى الشاب و قال باستنكار :

= هل أتيت إليّ لتتشكى على عجوز أبكم ؟

صاح الشاب بغضب ..

= لا ، هذا ليس صحيحاً إنه يدعي البكم ، لقد كان يصيح في طرقات

المدينة بصوتٍ عالٍ قائلاً (افتحوا الطريق .. أفسحو الدرب) ..

ابتسم الحاكم و قال :

= و لماذا لم تبتعد عن طريقه إذاً أيها الشاب ؟

صمت الشاب في حيرة ، في حين قضى الحاكم ببراءة العجوز الذي غادر دون أي كلمة .. لينتصر لنفسه من ظلم الشاب بأقوى سلاح عرفه الإنسان عبر التاريخ (الصمت) فلو أن العجوز شرح للقاضي أنه طلب من الشاب أن يبتعد عن طريقه لنفى الشاب ذلك و كذبه ، لكن العجوز بصمته أجبر الشاب على قول الحقيقة دون أن يدري تورطه بذلك ، فلم ينفعه حديثه البارع و انتقاء كلماته بأي شيء سوى الوقوع على الأرض و تمزق ثيابه ..

قيل قديما :

(لسانك حصانك إن صنته صانك وإن خنته خانك)

و هذه المقولة ليست سوى جوهرة نفيسة من طوق من أقوال كالأحجار الكريمة قيلت عبر الزمن عن التأثير الخطير للسان هذا العضو الصغير لكن الكفيل بإشعال حروب و إخماد حروب .. بخسارة قلوب و كسب قلوب .. بارتقاء في المناصب و رفق من العمل .. بنجاة من الموت أو خسارة الحياة .. و غير ذلك كثير، و الذي ينطق باسم سرّنا الجديد الذي سنتحدث خلاله عن لجم هذا الحصان عبر استعمال هبة مجانية منحناها لنا السماء جميعا و قلة منا يستخدمها ألا و هي نعمة الصمت .. فيكون سؤال سرنا الجوهري هو :

(هل الصمت دليل ضعف عند الإنسان و عجز عن التعبير عن

الذات كما يشيع بين عامة الناس ، في حين أن الكلام قوة في

الشخصية و سلاح لكسب الحوارات و تحصيل المكاسب ؟ !)

و جوابنا الوجيز المبدئي يأتي من التراث الشعبي مجدداً مع مقولة

ماسية شهيرة :

(إذا كان الكلام من فضة فإن الصمت من ذهب)

فلماذا الصمت يتفوق بمسافات ضوئية على الكلام ؟ و كيف ينتصر عليه رغم أنه حرفياً بلا أسلحة ملموسة أي بلا كلام ينطق كما انتصر صديقنا العجوز بصمته على الشاب الأرعن بكلامه الكثير المنمق ؟!..

في الحقيقة قوّة الصمت الرهيبة تعود لمجموعة واسعة من الأسلحة الخفية التي يتحصّن بها أو ما يمكن توصيفها (مزايا الصمت) و التي سنقوم خلال الصفحات القليلة القادمة بمقاربتها بهدوء كي نتعرف أكثر على خصال هذا المارد العملاق (الصمت) الكفيلة بهزيمة خطابات مطولة من الكلام المنمق .. فنجيب على سؤالنا

السابق بدقة ..

لكن قبل الشروع بذلك لا بد من التطرق إلى نقطة هامة للغاية هنا ،
و هي التمييز بين مصطلحين ملتبسين على العامة و يعتبران جهلاً
وجهين لعملة واحدة و هما الصمت و السكوت ..

فالصمت هو العدول عن الكلام في الباطل، أو عندما يكون الكلام
ليس ذا قيمة ، أو يكون خير جواب لتهجم السفهاء هو الصمت ، و
هو ناتج عن الحكمة والعقل المتفتح المتقد، فيمكن أن تتعرض
لمواقف ومشكلات عويصة في حياتك و يكون حلها البسيط هو
الصمت لا غير، فإن لم تكن تحسنه فستقع في مشكلات أنت في غنى
عنها ..

أما **السكوت** فهو الصمت الناتج عن الخوف، ويكثر ظهور السكوت
عند المواقف التي تتطلب من صاحبها أن يتكلم ويقول الحق،
فالسكوت هو الصمت لنصرة الباطل أو حتى للحياد الناتج عن
الخوف ، و كما قال كبير الفلاسفة الإمام علي بن أبي طالب :

(المحايد هو شخص لم ينصر الباطل ، لكنه من المؤكد خذل
الحق)

أو كما قيل قديماً :

(الساكت عن الحق شيطان أخرس)

لذا هيا بنا صديق الحرف لنكتشف سوياً مزايا الصمت المذهلة لأن
السكوت عنها جريمة بحقها و إجحاف لدور الصمت الخطير و الكبير
في حيوات البشر و تحديد مصائرهم ..

✽ **الصمت حكمة :**

فبالصمت تسيطر على الكلام بدلا من سيطرة الكلام عليك ، لأن
الكلمة متى خرجت من فمك لا يمكن إرجاعها و سترث عواقبها مدى
الحياة .. أما إن احتفظت بها في عقلك و قلبك فهي تحت سيطرتك و
هذه حكمة ما بعدها حكمة .. و قد أشار كثير من الحكماء لهذه النقطة

الحساسة الهامة فنجد مثلاً تشبيه الكلمة بالسهم المنطلق من قوس الفم
بالقول :

(هيهات يرجع سهم بعدما انطلقاً)

و نجد عبدالله بن المقفع يقول :

(أنا إذا تكلمت بالكلمة ملكتني و إذا لم أتكلم بها ملكتها)

كذلك قال قيصر:

(أنا على ردّ ما لم أقل أقدر مني على ردّ ما قلت)

و حكمة الصمت ليست بالأمر الهين على الإطلاق بل يتطلب سنوات
من ترويض العقل و اللسان ، كما قال الأديب إرنست هيمنجوي :

(يحتاج الإنسان إلى سنتين ليتعلم الكلام وخمسين عاماً ليتعلم
الصمت)

❖ **الصمت بئر عميق للأسرار :**

فمادام الإنسان يغلق شفّتيه فهو يحتفظ بأسراره في قلبه ، و متى
فتحهما أصبحت أسرارّه على شفاه الآخرين يتناولونها و يستغلونها
لمصلحتهم أو لتشويه صورته .. لذا نجد أستاذ الأئمة جعفر الصادق
يقول :

(صدرك أوسع لسرك من صدر غيرك)

و هذا ما نجده أيضاً في الأبيات الجميلة التالية للشاعر العتيبي :

فلا تودّع الدهر سرّك أحماً

فإنك إن أودعته منه أحق

إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه

فصدر الذي يستودع السرّ أضيق

❖ **الصمت يقلل الأخطاء و الزلات :** فكثره الكلام تقتضي

بالضرورة كثرة اللغو و الأخطاء و الزلات .. في حين ينجذك الصمت من كل هذا .. و من ملاحظتي للبشر من حولي توصلت إلى نتيجة خطيرة للغاية مفادها برأيي أنّ 90 % من مشاكل الناس سببها زلات اللسان أو الخوض في أمور لا دراية لهم بها و كل هذا يورث العداوة و المشاكل و الخسائر .. لذلك نجد الإمام علي بن أبي طالب يقول :

(من تمّ عقله ، قلّ كلامه)

كذلك نجد هذه الأبيات الرائعة للشاعر الكبير أبي العتاهية :

و لئن ندمت على سكوتك مرّة

فلقد ندمت على الكلام مرارا

إنّ السكوت سلامةٌ و لربما

زرع الكلام عداوةً و ضرارا

و هذه الأبيات الرائعة أيضاً للنابغة الشيباني :

فدو الصمت لا يجني عليه لسانه

و ذو الحِلْم مهيئٌ، و ذو الجهل أخرق

فليس الكلام سوى تجارة خاسرة ، أما الصمت فهو تاجرٌ لا يخسر
كما أبدع الإمام الشافعي بهذه الأبيات :

وجدت سكوتي متجراً فلزمته

إذا لم أجد ربحاً فلست بخاسرٍ

و ما الصمت إلا في الرجال متاجرٌ

و تاجره يعلو على كلّ تاجرٍ

❖ الصمت هبة :

الإنسان قليل الكلام يمنح نفسه الهيبة و الوقار ، كما يهبه صمته كاريزما بين الناس ، إذ يجعل الآخرين ينتظرون كلامه بفارغ الصبر

.. أما كثير الكلام فيفقد هيئته بين الناس و يرجون الله أن يصمت
أخيراً ..

❖ الصمت خير رد على السفهاء :

يقول الإمام علي بن أبي طالب :

(يأتي على الناس زمان تكون العافية فيه عشرة أجزاء: تسعة
منها في اعتزال الناس، و واحد في الصمت)

و كأنه يتحدث عن زماننا هذا بعد أن كثر السفهاء من حولنا بإهانتهم
و إزعاجهم المستمر لنا و تعكيرهم لصفو حياتنا .. فالصمت في
مواجهة هؤلاء هو أقوى سلاح و أفضل رد ، كما قال الإمام الشافعي
بأبيات غاية في الروعة :

يخاطبني السفيه بكلّ قبحٍ

فأكره أن أكون له مجيباً

يزيد سفاهةً فأزيد حِلماً

كعودٍ زاده الإحراق طيباً

و يقول أيضاً في ذات السياق :

إذا نطق السفيه فلا تجبه

فخير من إجابته السكوت

فإن كلمته فرجت عنه

وإن خلّيته كمدّاً يموت

❖ الصمت مدخل إلى المعرفة : فكثير الكلام لا يصغي لما

يقوله الآخرون فلا يتعلم ، أما من يحترف الصمت فهو مستمع عظيم
ينهل من علوم الآخرين من حوله كباراً و صغاراً .. من جهة أخرى
فإن الصمت هو رحم الأفكار الجديدة الخلاقة ، تماماً كحال البحيرة
التي تنظر إلى انعكاس وجهك في مياهها ، فإن كانت صافية رأيت

نفسك بوضوح و إن كان فيها شيء يتحرك تشوشت الرؤية .. و كثير
الكلام دماغه مشغول بالحديث و أفكاره مشوشة أما الصامت فأفكاره
هادئة و صافية فتنبعث فيها أفكار جديدة خلاقة يراها بوضوح ، كما
يؤكد الأديب الإيرلندي الساخر جورج برناردشو

(العربة الفارغة أكثر جلبة من الممتلئة)

فقليل العقل كثير الكلام .. و كثير المعرفة قليل الكلام ..

✽ الصمت سلاح في وجه الأعداء : قيل قديماً :

(إذا أردتَ يا بني أن تشغل خصمك فكن صامتاً؛ لأن الصمت
باعث على القلق و الخوف و الحيرة و الاستغراب)

و كلامك الكثير يطلع أعداءك على خططك و أسرارك و هذا أكبر
عون لهم أما صمتك فيجعل رؤيتهم لك ضبابية و مشوشة .. و لربما
كانت كلمات بسيطة غير مسؤولة تخرج من الأفواه سبباً في خلق
عداوات كبيرة تاريخية و اندلاع حروب طاحنة تحصد ملايين
الأرواح ، و نتذكر هنا أبيات الإمام الشافعي البليغة :

احذر لسانك أيها الإنسان

لا يلدغَنَّك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه

كانت تهاب لقاءه الشجعان

و في التاريخ قصة معبرة عن هذه الفكرة جرت عام **1825** في عهد
القيصر نيقولا الأول، حيث انفجرت مظاهرة ضخمة في روسيا
للمطالبة بحقوق الشعب، فعملت السلطة على تفريقها، وجرى اعتقال
أحد قادتها ويدعى كوندارتي ريليف ، وحكم عليه بالإعدام..

في يوم تنفيذ الإعدام، وقف ريليف على منصّة الإعدام و قد التفت
أنشودة الحبل على عنقه ، و لكنه

حينما تدلى من الفتحة الخشبية، انقطع الحبل به فألقاه أرضاً، و في

ذلك الزمان كانت حوادث كهذه تعدّ إشارات عن العناية الإلهية ، فمن ينجو من الإعدام بهذه الطريقة يحظى بعفوٍ رسميٍّ .. وحينما نهض ريليف على قدميه مصاباً ببعض الرضوض لكن فرحاً بنجاته ، صاح في المحتشدين:

(هل ترون؛ إنهم لا يعرفون حتى كيف يصنعون حبلاً ؟) ..

توجه رسولٌ في الحال إلى القصر الشتوي حاملاً خبر الإعدام الفاشل، فانزعج القيصر لخبية الأمل هذه و أوشك على توقيع العفو، لكنه قبل ذلك سأل الرسول:

(هل قال ريليف أي شيء بعد هذه المعجزة ؟) .

رد الرسول: (لقد قال إنهم لا يعرفون حتى كيف يصنعون حبلاً) ، فقال القيصر: (في هذه الحال، دعونا نثبت له العكس) ، ومزق مرسوم العفو، و في اليوم التالي تم شنق ريليف باستخدام حبل متين هذه المرّة ..

فاستبدال ريليف الصمت بالكلام أفقده حياته ببساطة ..

و بالنتيجة كلامك الطويل المملّ سيسقط من صفحات التاريخ و يبقى صمتك و فعلك محفوظين فيها .. تماماً كما قال المناضل مارتن لوثر كينغ :

(و في النهاية، لن يتذكرنا أعداؤنا بكلامنا السيء، بل بصمتنا)

من جهة أخرى فصمتك تجاه عدوك يدلّ على قوة أما كلامك الكثير فدليل على خوفك و ضعفك كما أشار الإمام الشافعي ببית الشعر التالي :

ما ترى الأسد تخشى و هي صامته

والكلب يخشى لعمرى و هو نبّاح

❖ **الصمت قرين النجاح** : فكثير الكلام قليل الفعل لأنه ينشغل بكلامه ، و قليله فعال .. و هذا ما نجده على مستوى الأفراد و الدول

على حدّ سواء .. فالدول المتطورة قليلة التصريحات و الهجوم على غيرها .. أما الدول الأخرى فينشغل بعضها عن العمل و تطوير الذات بالكلام الكثير و الهجوم على غيرها و تحميله مسؤولية تخلفها.

✽ **الصمت خشوع و إيمان :** فنرى أن الشيء المشترك بين طقوس العبادة في مختلف الأديان هو الصمت في أدائها ، لأن الصمت و المناجاة في القلب هي لغة التواصل مع الله ، و الصمت كما هو لغة عالمية مشتركة يفهمها جميع البشر هو لغتنا في كلامنا مع السماء أيضا .. أما الكلام العالي و المطوّل في العبادة فهو رياء لا أكثر ..

قال الشاعر الكبير نزار قباني :

(الصمت في حرم الجمال جمال)

و الله جميل و الجمال يحكم تفاصيل الكون و مخلوقاته ، و أعظم خشوع في مواجهة كل هذا هو الصمت برهبة و تفكّر .. لذا نجد أكبر المتصوفين و الرهبان و النسك يقضون ساعات طوال في صومعتهم في حالة من الصمت الرهيب و الاتحاد مع الذات الإلهية .. أما مدّعو الإيمان فنجدهم يصيحون بأصوات تصمّ الأذان و قد انتبجت أوداجهم ليدعوا إلى قتال من يخالفهم المعتقد أو الترهيب من الله و تخويف الناس من جحيمه الملتهب متناسين أن الله محبة و تسامح و تعايش و سلام قبل أي شيء آخر .. و أخيراً فالصمت وسيلة الإنسان إلى معرفة ذاته أولاً، ثم معرفة الذات الإلهية ثانياً ، و اتحاد الذاتين أخيراً كغصن يعود إلى جذعه ، كما قال الفيلسوف الصوفيّ جلال الدين الرومي :

(روعي تحتاج إلى الصمت لتخبرني أين أنا من كل هذا؟ الصمت فقط سيأخذني إلى صميم الحياة ، يجب أن أجعل من الصمت فناً لأخرج نفسي من هذا المأزق الرهيب)

هذه باختصار هي أعظم فوائد الصمت يا صديق الفكر كطوق من الجواهر النفيسة و الأحجار الكريمة المتألّئة فلا تتخلّى عنها بجهالة

و تكون كثير الكلام قليل المعرفة كثير الأخطاء قليل الفعل !!

في ختام مقاربتنا لسرّنا الجديد (لسانك حصانك) ربما من الأنسب بعد الآن ألا نقول :

= الكلام الكثير المنمّق دليل على قوة الشخصية و الفصاحة و البلاغة ، و به أنتصر في نقاشاتي و أحصل مكاسب جمّة مادية و معنوية ، أما الصمت فهو سلاح الجبناء و ضعيفي الشخصية .. بل أن نقول :

= الصمت قوّة ما بعدها قوّة عندما يُستخدم في المكان المناسب ، فهو حكمة و هيبة و سلامة و احترام و خشوع و معرفة و إرباك للأعداء و إغاية للسفهاء .. و القائمة تتسع و تطول في مديح هذه الهبة السماوية المجانية التي يرمي بها الجهلاء عرض الحائط و يستبدلونها بالكلام الكثير المطوّل الذي يوقعهم في مأزق كبيرة و يصيبهم بخسائر جمّة ..

يحكى أنّ ثلاثة أشخاص حكم عليهم بالإعدام بالمقصلة ظلماً ، وهم (رجل دين ، فيزيائي ، محامي) ..

وعند لحظة الإعدام تقدّم رجل الدين و وضعوا رأسه تحت المقصلة ، وسألوه : (هل هناك كلمة أخيرة تؤدّ قولها ؟)

فقال رجل الدين : الله ... الله .. الله ... هو من سينقذني ، وعند ذلك أنزلوا المقصلة ، فنزلت لكنها عندما وصلت لرأس رجل الدين توقفت ، فتعجّب الناس و قالوا : أطلقوا سراح رجل الدين فقد قال الله كلمته ، و نجا بذلك رجل الدين ..

وجاء دور المحامي إلى المقصلة ..

فسألوه ذات السؤال: هل هناك كلمة أخيرة تؤدّ قولها ؟

فقال المحامي : أنا لا أعرف الله كرجل الدين ، ولكن أعرف أكثر عن العدالة ، العدالة .. العدالة .. العدالة هي من سينقذني ..

ونزلت المقصلة على رأس المحامي ، وعندما وصلت لرأسه توقفت مجدداً .. فتعجب الناس ثانيةً و صاحوا : أطلقوا سراح المحامي ، فقد قالت العدالة كلمتها ، و نجا المحامي بدوره ..

وأخيراً جاء دور الفيزيائي ..

فسألوه مجدداً: هل هناك كلمة أخيرة تودّ قولها ؟

فقال الفيزيائي : أنا لا أعرف الله كرجل الدين ، و لا أعرف العدالة كالمحامي ، و لكنني أعرف أنّ هناك عقدة في حبل المقصلة تمنع المقصلة من النزول فيزيائياً ... فنظر الجميع إلى المقصلة و وجدوا فعلاً عقدة تمنعها من النزول ، فأصلحوا العقدة ثم انزلوا المقصلة على رأس الفيزيائي و قطع رأسه ، ليخسر حياته بتخليه عن نعمة الصمت و استبدالها بكثرة الكلام ..

لذا يا صديق الفكر استخدم هبة الصمت المجانية كثيراً في حياتك .. فهي لا تحسّن حياتك بشكل جذري نحو الأفضل فحسب بل قد تكون منجاة لك من كوارث مرعبة ربما تنتهي بخسارة حياتك نفسها بالمحصلة ..!

الدهر يومان

لقد عدت إلى الصفر من حيثما بدأت .. أنا أعلن استسلامي فكل جهدي ذهب هباءً منثوراً ..

عبارة يكررها كثيرون في فترات من حياتهم ، عندما تحجم الدنيا بوجهها عنهم فتبتليهم ليخسروا كل شيء ..

فهل الاستسلام هنا مشروع ، مبرر و منطقي بالفعل ؟

هذا ما سنحاول معرفته سوياً خلال الصفحات التالية لنفهم بالضبط دورات الحياة بين العسر و اليسر ، و كيف أن الله يخرج الميت من الحيّ و الحيّ من الميت ، و ذلك عبر مقاربة النقاط الأربعة التالية :

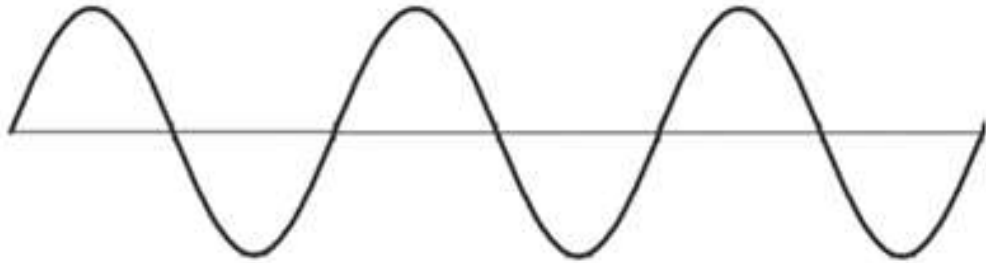
- الدهر يومان ..
- و تلك الأيام نداولها ..
- لكل بداية نهاية ، و من كل نهاية بداية ..
- لا تستسلم و لو بدأت من الصفر ..

فهيا بنا يا صديق الحرف في هذه المهمة المهمة و الحساسة التي نرجو الله أن تكون دفعة صغيرة لكل من جارت عليه الحياة فعاد إلى خط البداية في سباق لا يرحم ..

الدهر يومان :

الحياة ليست خطأً مستقيماً يفضي من نقطة البدء إلى غاية النهاية بانتظام بارد ورتيب؛ بل هي أشبه ما تكون بموجة عاتية، تتأرجح في صعود وهبوط، انبساط وانقباض، كأنها نفس الوجود نفسه وهو يستمد أنفاسه من أسرار الكون. فمن وهج الرخاء إلى غشاوة الشدة، ومن ضيق العسر إلى انشراح اليسر، يتقلب الإنسان كما يتقلب النهار

في حضن الليل، وكما ينسلّ الفجر من رحم الظلمة. إن نسق الحياة الجيبي هذا هو الدرس الأعظم الذي يحمله الزمن، درس التوازن الذي لا يكتمل إلا بالتناقض.



ولذلك قال الإمام عليّ :

(الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك)

فإن كان اليوم لك، وفتحت لك الأبواب، وجدت الأرض رحبة والسماء باسمة، لكن احذر أن تبطر أو تستغرق في غفلة نشوتك ؛ لأن هذا الانبساط لا يدوم، ودوام الحال من المحال .. مجرد وهم يطارده الإنسان عبثاً. وإن كان اليوم عليك، وأرخى الليل سدوله على روحك، فلا جزع ولا يأس، بل صبر وثبات؛ لأن ليل الشدة، مهما طال، يتقهقر في النهاية أمام شمس الرجاء. فما على الإنسان إلا أن يتلقّى عطايا الزمن بوعي واتزان، وأن يزن لحظاته بميزانٍ لا يختلّ بالفرح ولا ينهار بالحزن.

لكن سرّ المفارقة أن هذه التناقضات، على قسوتها أو على سحرها، تحمل في طياتها بذوراً إيجابية كبرى. فلولا طعم العسر المرّ، ما كان لليسر أن يضيء بريقه في قلوبنا. نحن لا ندرك قيمة الصحة إلا إذا ذقنا وخز المرض، ولا نعرف حلاوة الحرية إلا إذا عانقنا القيود، ولا نعي هدية الصداقة إلا إذا تجرّعنا علقم الوحدة. إن النور لا يُرى إلا إذا تسلل في العتمة، والصوت لا يُسمع إلا إذا انبثق من سكون، والإنسان لا ينضج إلا إذا تمرّغ في المتناقضات.

العسر ليس لعنة مطلقة، بل هو معلم حازم يطرق قلبك ليصوغ منه

معدن الحكمة. واليسر ليس نعمة عابرة، بل هو نافذة على المعنى، يُذكرك بأن الجمال يستحق أن يُعاش. وبين هذا وذاك يتشكل الكيان الإنساني، لا من نعيم خالص ولا من بلاء صرف، بل من امتزاجهما في نسيج واحد. إن الذي لم يذق مرارة الضيق، حين يأتيه الفرج، يتعامل معه بسطحية الغافلين، كأنما هو حق طبيعي لا هبة سماوية. أما الذي خبر العسر، فإنه حين ينفتح له باب اليسر، يضمّه إلى صدره كمن ضمّ طفلاً انتظره زمناً طويلاً بعد أن ظن جسده عقيماً ..

هكذا، تتكشف لنا حكمة التيار الجيبي للحياة : أن كل هبوط هو دعوة لصعود، وكل صعود هو تذكير بأن الهبوط قادم، فلا غرور ولا يأس. إن وعي هذه الثنائية يحررنا من وهم السيطرة المطلقة على مجريات الوجود، ويمنحنا مقام السكينة، مقام من يبتسم في الرخاء بلا طغيان، ويصبر في البلاء بلا انكسار. فالزمان لا يتوقف عند حال، والحياة ليست إلا إيقاعاً من التضادات المتناغمة، يعزف على أوتار أرواحنا لحن الخلود .. و بالمحصلة الضد يظهر حسنه الضدّ ..

و تلك الأيام نداولها :

الحياة ليست لوحة ساكنة مرسومة بخطوط أفقية جامدة كما قلنا ، بل هي مشهد متحرك تديره يد الله بلطفٍ وعمق، تداولاً للأيام بين عباده. فمن الناس من يصبح في بحبوحة اليسر ويمسي فيها، ومنهم من يفتح عينيه على ضيق العسر ويغفو على ليله الثقيل. غير أن هذا التفاوت لا يُترك عبثاً ولا يُنسج اعتباطاً، بل هو ضرب من التعليم الإلهي، يُلقّن البشر دروساً لا تُقرأ في الكتب، دروساً مطبوعة بمداد العدل وممهورة بختم الحكمة. فإلهه، في تداوله للأيام، يزرع في النفوس بذور الإدراك : أن لا مقام يدوم، وأن المعنى لا يكتمل إلا بالتبدل، وأن النعمة لا تُفهم إلا من خلال نقيضها.

وحين تجد نفسك في سعة من الرزق أو في أمان من الخوف، بينما يئنّ غيرك في ضيقٍ أو يتقلب في بلاء، يطرق سمعك درس خفي : أن تشكر، أن تقدّر ما بين يديك، وأن تصون هذه العطايا قبل أن تُسلب منك. فالتباين بين حالك وحال غيرك ليس إلا مرآة تنعكس فيها حقيقة أن النعمة قد تتحول في لحظة إلى نقمة إن أهملت، وأن دوامها مشروط بالاعتراف بفضلها. أما إذا وجدت نفسك في العسر، والآخرين يمرحون في اليسر، فليست تلك نهاية الحكاية، بل بدايتها. فالنفس، وهي تنظر إلى نعم ليست لها، يزداد توقعها، ويشتد عزمها على الخروج من قاع الألم لتتسلق صعوداً نحو ذرى العطاء. كأن الله، في توزيع بديع، يجعل من بلاء أحداً حافزاً لنهضة الآخر، ومن رخاء أحداً موعظةً لقلوب الباقيين.

وهنا تتجلى حكمة التناقض : أن ما يبدو للعين قسمة غير متكافئة، هو في جوهره ميزان دقيق يربّي في كل إنسان درساً مختلفاً. فمن عاش اليسر دون أن يذوق العسر، لم يعرف للنعمة معنى، وصار كمن يمشي فوق جوهرة وهو يظنها حجراً عادياً. ومن خبر العسر، حين يمسه اليسر أخيراً، يذوق لذته أضعافاً مضاعفة، لأن قلبه خبر المرارة، ولأن روحه تعلمت أن تستحضر قيمة ما بين يديها. إن الإنسان لا يقدر العافية إلا إذا اعتلّ، ولا يحسّ بالحرية إلا إذا كبّلتها القيود، ولا يدرك نعمة الصداقة إلا إذا ذاق مرارة الوحدة.

إن هذه الجدلية بين العسر واليسر ليست لعنة تُنزل على البشر، بل هي سرّ النضج ووقود الوعي. ففي العسر تتكوّن الإرادة، وفي اليسر تُختبر الأخلاق. وفي التناوب بينهما يكتمل المعنى وتُصان النعمة. فالدرس الأعظم الذي يريد الله أن يغرسه فينا، هو أن نصون ما نُعطى ، وألا نبدد ما وهبنا، وألا نغفل عن جوهر النعمة التي قد تُسلب في لحظة يعلو فيها صوت الغفلة على همس الشكر.

وهكذا، لا يكون العسر ضدّ اليسر، ولا اليسر ضدّ العسر، بل كلاهما جناحان يرفرف بهما طائر الحياة في فضاء التجربة الإنسانية. ومن

لم يتأمل في تداولهما، عاش غافلاً عن حكمتهما، ومن وعى سرهما
عاش حراً من وهم الدوام، متزناً في قلبه بين رجاءٍ وصبر، وبين
شكرٍ واحتساب.

لكل بداية نهاية ، و من كل نهاية بداية :

لكل بداية نهاية، تلك سنة الوجود التي لا يحيد عنها شيء، لا إنسان
ولا جماد ولا لحظة عابرة فلكل شيء إذا ما تم نقصان . فلا يغرك
ما أنت فيه من حالٍ مزدهر أو واقع مطمئن، لأن الزمان لا يمنح
ضمانات، بل يترك أبوابه مشرعة للتحوّل والتبدّل. وما بدا ثابتاً اليوم
قد يزول غداً، وما حسبته أبدياً قد يتبخر مع أول هبة ريح. ومع ذلك،
ليست النهايات موتاً مطلقاً ولا سقوطاً نهائياً، بل هي أبواب سرية
نحو بدايات جديدة، ومخاض عسير يولّد حياة أخرى.

فلا تجعل سقوطك أبدياً، ولا تركز إلى قاع الهزيمة وكأنك خلقت له.
انهض، كما تنهض الأرض بعد أن ينهار عليها وابل المطر. تأمل
مشهد الغيوم حين تتكدس في السماء، محتقنة متصارعة، كأنها في
حرب لا نهاية لها. غير أن تلك الحرب تنتهي و لا تفضي إلى دمار،
بل إلى انسكابٍ مدهش؛ قطرات تنهمر على الأرض اليابسة فتوقظها
من سباتها، وتحول جفافها إلى خصب، وصمتها إلى نضارة. إن
سقوط المطر ليس موتاً للغيوم، بل اكتمالاً لحكايتها وبداية لحكاية
الأرض المعطاء.



وهكذا، فإن كل سقوط في حياتك يحمل بذرة نهوض، وكل نهاية تفتح

أفقاً لبداية جديدة. فلتكن كالأرض بعد المطر : لا تتح على غيم
انقشع، بل ابتهج بما تركه وراءه من خيرات. واعلم أن سرّ الوجود
يكن في هذا التناوب، في هذا الرقص بين النهايات والبدايات، بين
السقوط والقيام، بين احتباس الغيم وانفجار المطر. إنها جدلية الخلق
والتجدد التي تذكرك أن اليأس وهم، وأن الفجر يولد حتماً من رحم
الليل.

لا تستسلم و لو بدأت من الصفر :

الإنسان، ما دام حياً، لا يخلو طريقه من عثرات ولا مصيره من
انكسارات. وقد يجيء يوم يجد فيه نفسه وقد خسر كل ما بنى، أو
عاد إلى نقطة البداية كمن يُجَرَّد من رصيده كله. غير أن العودة إلى
الصفر ليست موتاً، بل امتحاناً للقدرة على النهوض، وميداناً لقياس
قوة الإرادة. فالمعركة الحقيقية ليست مع العالم الخارجي، بل مع
صوت خفي داخلي يحاول إقناعك بأنك انتهيت.

إنّ السقوط لا ينفي إمكانية النهوض، بل يهيئك للصعود بصلابة أكبر.
والواقع أن كل عظيم في التاريخ مرّ بلحظة انطفاء أو انكسار، لكنه
اختار أن ينهض. نابليون بوناپرت قال ذات يوم :

(الهزيمة ليست في السقوط، بل في الرضا بالبقاء على الأرض.)

وهنا يكمن السرّ : أن السقوط قدرتي، لكن الاستسلام اختياري.

الأيام قد تقسو، وقد تعصف بك حتى تشعر أنك عارٍ في وجه الريح،
لكن لولا هذه القسوة ما نضجت الأرواح. جلال الدين الرومي
يهمس :

(لا تحزن، فأى سقوطٍ يسبق النهوض)

إن الصفر، على قسوته، فضاءٌ نقيّ يتيح لك أن تبدأ من جديد بلا
قيود الماضي، كأنك وُلدت مرة ثانية، أكثر وعياً وأكثر عزمًا.

وحين يضيق عليك الزمن، تذكر أن صبرك ليس هدرًا. كما قال الإمام عليّ :

(اصبر على مضض الإدلاج في الظلماء، فإنّ انتظار الفرج من أعظم الفرج)

أي أن الصبر في لحظة الشدة عين القوة، وأن بقاءك واقفًا في مواجهة الريح هو في ذاته انتصار ..

ولعل من أجمل ما قاله طاغور :

(إذا أغلقت الشمس بابك، فإن القمر يفتح لك نافذة)

فالحياة، وإن سدت بعض طرقها، تفتح أخرى لا يراها إلا من يصبر على المضي قدمًا.

الإنسان الذي لا ينكسر لا يكتشف معادن نفسه. فالهزيمة تفضح ضعفنا لكنها في الوقت نفسه تثير ما خُبي في أعماقنا من قوة. كما قال المتنبي أيضاً :

إذا غُمرت في شدة فاصبر لها

فخير عواقبها يُجلي عنك غمًا

هذه الأبيات ليست مجرد زينة بلاغية، بل خلاصة فلسفة الصمود : أن العاقبة للثابتين، وأن ليل المحنة ينقشع لا محالة عن صبح الفرج. ومن أقوال نيّشه :

(ما لا يقتلني، يجعلني أقوى)

وهي عبارة تحولت إلى دستورٍ للنفوس التي رفضت الاستسلام، ورأت في الجراح فرصة لإعادة التشكيل.

إن العودة إلى الصفر ليست نهاية الطريق، بل هي دعوة إلى إعادة الاكتشاف. فلتنهض مهما قست عليك الأيام، ولتتذكر أن كل سقوط يحمل في طياته بذرة نهوض، وكل انكسار يُمهّد لفتح جديد.

فالعظماء لم يُصنعوا في لحظات الرخاء، بل في قلب العواصف،
حيث اختبروا صلابة عزيمتهم.

قف، ولا تدع الأرض تألف جسدك، وارفع رأسك نحو الأفق، فالحياة
لا تنتظر الكسالى .. انهض، وامض، ودع التاريخ يكتب عنك أنك
لم تستسلم، حتى حين عاد بك القدر إلى الصفر أو ما دون الصفر
بكثير ..

في ختام مقاربتنا لسرنا الجديد (الدهر يومان) ، ربما من الأنسب
ألا نقول بعد الآن :

= لقد خسرت كل شيء و عدت إلى نقطة الصفر .. أنا أعلن
الاستسلام ..

بل أن نقول :

= حالتك ليست استثنائية بل يمر بها كل الناس ، فكل بداية نهاية ،
لكن ذلك لا يبرر الاستسلام ، فمن كل نهاية تبدأ بداية جديدة .. ينتهي
يسر النهار فيبدأ عسر الليل و ينقضي عسر الليل فيصحو مجدداً يسر
النهار و هكذا .. لذا اتكل على الله و ابدأ من جديد فإن بلوغك لليسر
بعد السقوط له مذاق آخر ألد بكثير ، لم تجرب به عندما امتلكت اليسر
بدون مقابل ..

الحياة ليست خطأ مستقيماً بل مدّ وجزر، صعود وهبوط، تداول للأيام
بحكمة الله وعدله.

فكل عسرٍ يفتح باب يسر، وكل رخاءٍ يحمل في طياته درساً خفياً
يذكرنا بقيمة النعمة.

لكل بداية نهاية، ولكل نهاية بداية، والسقوط ليس موتاً بل مخاض
ولادة جديدة.

كما ينهمر المطر بعد احتقان الغيوم لبيعث الأرض من سباتها،
تتهض الروح بعد انكسارها.

الصفير ليس فراغاً، بل صفحة بيضاء يخطّ فيها الإنسان ملحمة صبره
وعزيمته من جديد.

من لم يذق مرارة العسر لم يدرك سحر اليسر، ومن لم يسقط لم
يعرف لذة النهوض.

وهكذا يتجلى سرّ الوجود : أن نستمر، لا نستسلم، ونصون ما بين
أيدينا بالشكر والبصيرة.

و تذكر أخيراً أن مخطط قلبك يتناوب بين صعود و هبوط طالما أنك
حي و مؤثر ، فإن استقام فهذه إشارة إلى أنك مت و لم تعد تملك أي
تأثير ، لا على حياتك و لا حياة من حولك ..



العدو الوهمي

في أعماق النفس البشرية، ثمة نزوع غامض لا يهدأ، نزوع يدفع الإنسان للبحث عن عدو .. إن لم يكن هذا العدو موجوداً في الخارج، ابتكرته المخيلة وخلع عليه المرء كل مخاوفه و مكبوتاته وأشباحه. فالإنسان – وقد أثقلته تناقضاته الداخلية وأعياء صراعه مع ذاته – يجد في وجود عدوٍ خارجي فرصة لتبديد ما يختلج في داخله من قلق وارتباك. إنه يختصر العالم في صورة واحدة، يركّز الظلال جميعاً في شخص أو كيان، ويصبّ فيه كل ما يعجز عن احتماله من ظلمة نفسه. و هنا يظن أنه قد حاصر مشاكله، وجعلها جسداً واحداً يمكن أن يسقطه بضربة واحدة.

إنها آلية نفسية عتيقة، تشبه ما كان يفعله الإنسان الأول حين يقدم قرباناً لآلهته طمعاً في أن تُرفع عنه اللعنة. العدو المعاصر هو كبش الفداء الذي به نتوهم أننا نغتسل من قذاراتنا، وأنها ننتصر على هشاشتنا. وما أشد غرور الإنسان حين يظن أن سحقه للآخر يمحو ما ينهش داخله من ضعف ! إن الانتصار على عدو خارجي قد يمنح نشوة عابرة، لكن الجروح الداخلية تظل مفتوحة، لا يندمل نزيهاً لأن أصلها لم يكن في الآخر، بل في الذات نفسها.

ولهذا تتكرر المأساة عبر العصور : كلما سقط عدو، تطلّبت النفس عدواً جديداً. كأن البشرية محكومة بدوامة لا تعرف الفراغ، لا تقبل أن تبقى بلا خصم تتصارع معه. في غياب العدو، يلوح الفراغ، ويطلّ سؤال المعنى. وأخطر ما يواجهه الإنسان ليس عدواً خارجياً، بل فراغاً داخلياً يسائله باستمرار : من أنت ؟ وماذا تصنع هنا ؟

غير أن الحقيقة الأعمق تكمن في أن تقسيم البشر إلى ملائكة و

شياطين ليس سوى وهم مريح. فالإنسان – أي إنسان – ليس هذا ولا ذاك وحده، بل هو الاثنين معاً في صورة واحدة. في داخله يقطن نور وظلمة، رحمة وقسوة، صدق وكذب، محبة وكراهية. لا يوجد إنسان بريء تماماً كما لا يوجد إنسان شرير تماماً.



وما ينطبق على الأفراد، ينطبق على الجماعات والأحزاب والدول والتحالفات. فليست هناك قوة سياسية تلبس ثوب الطهارة الخالصة، ولا أخرى غارقة في الرجس المطلق. إنها جميعاً تعبيرات مختلفة عن هذا الخليط البشري، عن هذا الكائن المزدوج الذي هو الإنسان.

حين ننظر إلى الأمم بعين منصفة، ندرك أنها تسلك سلوك الأفراد أنفسهم : تتباهى بفضائلها لتغطي عيوبها، وتهاجم الآخرين لتُخفي ما في داخلها من ضعف، وتتذرع بمبادئ نبيلة لتبرّر جشعها وسعيها

وراء النفوذ. وكما يزعم الفرد أن عدوه يجسد كل الشر، كذلك تفعل الدول حين ترسم حدود الخير والشر وفق مصالحها وأوهامها. وهكذا يستمر الصراع، لا لأنه صراع بين الحق المطلق والباطل المطلق، بل لأنه صراع بين ذوات مزدوجة، كلٌ منها تحمل نورها وظلالها في آن واحد.

إن الإقرار بهذه الحقيقة – حقيقة أن كل إنسان هو ساحة مزدوجة تتجاوز فيها القمم والهاويات – هو الخطوة الأولى نحو الحكمة. فبدلاً من أن نُسقط شرورنا على الآخر، يجدر بنا أن نتأمل وجوهنا في المرايا الصامتة، أن نعترف أن ما نراه في العدو ليس سوى صورة مشوهة لما نخفيه في دواخلنا. العدو الحقيقي قد يكون مرآة، يكشف لنا ما لا نجرؤ على رؤيته في ذواتنا.

لكن هذه الحكمة عسيرة المنال، لأن النفس البشرية تميل إلى البساطة واليقين. إنها تخاف من الرمادي، من الاعتراف بأن الخير والشر متداخلان بلا حدود واضحة. لذلك تُصر على خلق الثنائيات الحادة: "نحن" مقابل "هم"، "الخير" مقابل "الشر"، "الملائكة" مقابل "الشياطين". هذه الثنائية الوهمية تمنح الناس شعوراً بالوضوح، بالاستقرار، حتى وإن كان زائفاً.

إن مواجهة حقيقة الثنائية داخل كل فرد وجماعة ودولة تتطلب شجاعة نادرة: شجاعة أن نقول إننا لسنا أنقياء ولا مدنسين بالكامل، وأننا لسنا أبطالاً مطلقين ولا أوغاداً مطلقين. إنها شجاعة أن نقبل بالتعقيد، أن نكف عن اختزال العالم في صور كاريكاتورية مريحة.

ولعل أكبر مأساة للبشرية أن معظم صراعاتها الكبرى نشأت من هذا العجز عن تقبل التعقيد. كل حرب كبرى، كل انقسام سياسي، كل تحالف دولي لم يكن إلا مسرحاً تتجلى فيه هذه الحاجة المرضية إلى تبسيط الواقع: (نحن الملاك ، وهم الشيطان) .. (نحن الخير و

هم الشر) .. (نحن الحق و هم الباطل) ، وما إن يرفع كل طرف رايته، حتى تُستباح الدماء باسم الطهر، ويُشرّع العنف باسم الفضيلة.

فلنقلها بصراحة : لا خلاص للبشرية إلا حين تعترف أن العدو يسكن داخلها قبل أن يكون خارجها، وأن الملائكة والشياطين يتجاورون في كل قلب قبل أن يتمثلوا في أي حزب أو دولة. حينها فقط قد نكسر الدوامة، ونحرر أنفسنا من عبودية الأوهام.

فالحكمة لا تعني إنكار وجود الشر في العالم، بل إدراك أنه ليس غريباً عنا. والفضيلة لا تعني ادعاء الطهر المطلق، بل شجاعة مواجهة ظلالنا الخاصة. وربما كانت أعظم رحلة يخوضها الإنسان ليست تلك التي ينتصر فيها على عدو خارجي، بل تلك التي يتصالح فيها مع نفسه، مع ازدواجيته، مع حقيقته المعقدة التي لا تختزل في ملاك أو شيطان.

الفقاعة المحافضة

في ردهات المنازل الدافئة، وبدافع من حبّ جارف يشوبه الخوف، يشيّد بعض الآباء حول أبنائهم قلأعاً من زجاج، يظنونها دروعاً واقية، بينما هي في الحقيقة زنازين اختيارية تعزلهم عن نبض الحياة. تبدأ هذه القصة بـ "الفقاعة البيولوجية"؛ حيث يستحيل المنزل إلى مختبرٍ معقم، وتُطارَد فيه كل ذرة غبار وكأنها عدوّ غاشم. يظن الوالدان أن حرمان الطفل من ملامسة تراب الأرض أو الاحتكاك بالطبيعة هو قمة الرعاية، لكن العلم يخبرنا بنقيض ذلك تماماً.



إن جهاز المناعة البشري ليس جيشاً خاملاً، بل هو "نظام تعلم مستمر" يحتاج إلى مناوشات صغيرة ليصقل مهاراته. تشير "فرضية النظافة" (**Hygiene Hypothesis**)، التي صاغها عالم الأوبئة "ديفيد ستراتشان" عام **1989**، إلى أن انخفاض التعرض للميكروبات في الطفولة المبكرة يؤدي إلى خلل في نضج الجهاز

المناعي، مما يجعل الأبناء عرضة للحساسية والربو وأمراض المناعة الذاتية لاحقاً. تاريخياً، نجد أن الشعوب التي عاشت في تماس مباشر مع بيئتها كانت تمتلك مناعة فطرية صلبة، بينما ينهار "أبناء الزجاج" أمام أول نصلٍ ميكروبي يواجهونه عند خروجهم للعالم، لأن أجسادهم لم تتعلم يوماً كيف تصوغ "أضداد" المقاومة في غياب "العدو" المفترض.

وعلى ذات النسق، تبرز "الفقاعة الثقافية المعرفية" كخطرٍ أشد فتكاً وأعمق أثراً. يحيط بعض الآباء عقول أبنائهم بأسوارٍ من الأفكار الأحادية، فلا يسمعون إلا صدى أصواتهم، ولا يقرأون إلا ما يوافق هوى الآباء، في محاولة بائسة لصناعة "نسخ كربونية" من معتقداتهم. هذا الحجر الفكري يشبه إلى حد بعيد ما حدث في "كهف أفلاطون"؛ حيث اعتبر السجناء أن الظلال هي الحقيقة الوحيدة، فلما خرج أحدهم إلى نور الشمس، آلمت عيناه لدرجة أنه كاد يفقد بصره واتزانه.

حين يغادر هؤلاء الشباب "شرنقة الأهل" ليصطدموا بـ "تسونامي التنوع" في الجامعة أو سوق العمل، يحدث الزلزال المعرفي. إن الدماغ الذي لم يتدرب على "المرونة الفكرية" أو "الشك المنهجي" يصاب بصدمة حضارية عنيفة. تشير الدراسات النفسية إلى أن العزلة عن الأفكار المخالفة تضعف "الجهاز المناعي الفكري"؛ فالفرد الذي لا يمتلك أدوات نقدية للتعامل مع "الآخر" المختلف، يجد نفسه أمام خيارين أحلاهما مر: إما الانغلاق المتطرف كآلية دفاعية، أو الانهيار النفسي التام الذي يؤدي إلى فقدان الهوية والوقوع في براثن الاكتئاب، أو حتى الاستسلام لليأس الوجودي الذي قد ينتهي بوضع حد للحياة.

إن التربية الحقيقية ليست في حجب الريح عن الغرسة، بل في تدريب جذورها على التشبث بالأرض أمام العواصف. فالإنسان، جسداً وعقلاً، لا يقوى إلا بالمواجهة، ولا يزدهر إلا في فضاءات التعدد

والقبول، بعيداً عن وهم "الفقاعات" التي تتفجر عند أول ملامسة للواقع.

نظارات الحياة

لقد صيغَ هذا الوجودُ بهندسةٍ عبقريةٍ لا تعرفُ الجمود، فالحياةُ ليست لوحةً صماءَ رُسمت ألوانها وجفّت قبل وصولك، بل هي "مادةٌ خام" لينة، تتشكّل وتتموجُ لتتطابق تماماً مع ما يعتَمِلُ في صدرك من ظنون. إنها الكيانُ الذي يمنحك الحقيقة التي تطلبها؛ فإذا طرقت بابها مؤمناً بأنها "دارُ كرم"، فتحت لك خزائنها، وإن دخلتها وأنت تعتقد أنها "وكرٌ لصوص"، فستنصبُ لك الفخاخ في كل زاوية.

تاريخياً، جسد القائد القرطاجي "حنبعل" هذه المرونة الوجودية حين قال جملة الخالدة: "إما أن نجد طريقاً، أو نصنعه". لقد رفض أن تكون الجبال حاجزاً صلباً، فاستجابت له تضاريس الأرض القاسية، لأن "فكرة العبور" في ذهنه كانت أقوى من جمود الصخور. هذا التلاحم بين الفكر والواقع تؤكدُه اليوم "فيزياء الكوانتم" عبر (تأثير المراقب)، حيث أثبتت التجارب أن الجزيئات الدقيقة تتصرف بطرق مختلفة بناءً على "توقع" ومراقبة الشخص لها، وكأنّ المادة الكونية تنحني طوعاً لإرادة الوعي البشري وتوقعاته.

إن الحياة هي "المرآة الكبرى" التي لا تعكس ملامح وجهك، بل تعكس ملامح روحك. فكل ما يجول في خاطرك من مخاوف أو طموحات هو بمثابة "أمرٍ نحتٍ" يُرسل إلى ورشة الوجود، لتبدأ الحياة فوراً بتشكيل أحداثها لتناسب مقاس قناعاتك. أنت لست مجرد عابر سبيل في هذا العالم، بل أنت "المؤلف والمخرج" الذي يختار طبيعة المشهد؛ فالعالم ليس إلا صدىً لصوتك الداخلي، فإذا أردت أن يتغير اللحن، فعليك أولاً أن تغير النغمة التي تعزفها في أعماقك.

إذا كانت الحياة هي المادة الخام، فإن "فلسفتك الشخصية" هي المعماري الذي يخطط ملامحها، وعقيدتك هي "النظارة" التي لا

تري العينُ الواقعَ إلا من خلال ثقبها. نحن لا نرى العالم كما هو، بل نراه "كما نحن"؛ فكل قناعة تتبناها هي في الحقيقة "فلتر" بصري يمرر لك أطيفاً معينة ويحجب أخرى. إنها العدسة التي تحول العاصفة إلى "فرصة للتطهير" في عين المتفائل، أو "نذير فناء" في عين المذعور.



تاريخياً، كان سقراط يرتدي نظارة "التساؤل المستمر"، فاستحال له الجهل ميزةً والبحثُ حياةً، بينما كان يرى معاصروه في أثينا أن الحقيقة قد اكتملت، فبينما رأى هو "الأنوار" في زوايا الشوارع، رأوا هم "الهرطقة". وفي العلم، يبرز مفهوم "الانحياز التأكيدي" (Confirmation Bias) في علم النفس المعرفي، وهو الدراسة التي تثبت أن عقولنا تعمل كمغناطيس يلتقط فقط المعلومات التي تتوافق مع "نظاراتنا" الفكرية السابقة، مما يجعلنا نبني كوناً كاملاً من الأدلة التي تدعم فلسفتنا الخاصة، حتى لو كانت سراباً.

إنك حين ترتدي عدسة "الامتنان"، تبدأ الحياة فوراً بفرز كل جميل وتضخيمه أمامك، وكأن الوجود يتأمر لإسعادك. أما إذا اخترت عدسة "المظلومية"، فستبدو لك الوجوه شاحبة، والفرص غائبة، والكون ساحةً للتأمر. إن خطورة هذه النظارات تكمن في أنها صامتة، فأنت تنسى أحياناً أنك ترتديها وتظن أن السواد الذي تراه هو "حقيقة العالم"، بينما هو في الواقع مجرد غبارٍ على عدستك. إن الفارق بين القديس والمجرم، وبين الناجح والمنكسر، ليس في الأحداث التي مرت بهم، بل في "اللون" الذي صبغت به عدساتهم

تلك الأحداث.

في مسرح الوجود الكبير، لا توجد أحداث "خيرة" أو "شريرة" بذاتها، بل هي خيوطٌ محايدة ينسج منها إدراكك الثوب الذي ترتديه. إن الحياة ليست سوى "مساحة احتمالات"؛ فالمشهد الذي يراه أحدهم "عدماً" مقفراً، قد يراه الآخر "فضاءً" للحرية والانطلاق. إنها ثنائية الإدراك؛ تلك القدرة العجيبة التي تجعل من الزنزانة الواحدة مكاناً يراقب فيه سجينٌ قضبان الحديد ليلعن القدر، بينما يراقب زميله من وراء ذات القضبان النجوم ليمجد الجمال.

تاريخياً، جسدت مدرسة "الرواقية" هذا المفهوم بأبهى صورته؛ فقد آمن "إبكتيتوس" (الذي عاش عبداً) بأن ما يؤلم البشر ليس "الأشياء" في حد ذاتها، بل "آراؤهم" حول تلك الأشياء. وفي السجلات التاريخية، نجد أن فظائع السجون لم تمنع "فيكتور فرانكل" من العثور على "المعنى" وسط الجحيم، مؤكداً في كتابه الشهير "الإنسان يبحث عن المعنى" أن الحرية الأخيرة للإنسان هي "اختيار موقفه تجاه الظروف". علمياً، يفسر "علم النفس الإيجابي" هذا الظاهرة عبر ما يسمى بمفهوم "إعادة التأطير المعرفي"، حيث أثبتت الدراسات أن تغيير طريقة تفسير الدماغ للحدث يغير حرفياً من كيمياء الجسم وردود أفعاله الحيوية.

إن "الخوف" ليس خاصية في الظلام، بل هو رجفةٌ في عدسة قلبك، و"الأمان" ليس صفة في المكان، بل هو طمأنينةٌ في زجاج نظارتك. إنك تستطيع أن تعيش في قصرٍ باذخ وأنت تحترق في جحيم القلق، بينما قد يفترش غيرك الرصيف وهو يغرق في نعيم الرضا. الحياة ببساطة لا تفرض عليك لوناً واحداً؛ هي تمنحك "اللوحة" وتترك لك حرية اختيار "الفرشاة"؛ فإما أن ترسم جحيماً من العدم، أو فردوساً مفعماً بالمعنى من ركام البساطة.

يهدر الكثيرون أعمارهم في محاولة يائسة لترميم العالم الخارجي، وتغيير وجوه البشر، وتبديل مسارات الرياح، ظناً منهم أن السعادة

تكنم في "تطويع الواقع". لكن الحقيقة التي يغفل عنها العابرون هي أن العالم الخارجي ليس سوى صدى باهت لما يقع في الداخل؛ فالحياة لا تتغير حين تغير مكان إقامتك، بل حين تغير "المكان" الذي تنتظر منه. إن محاولة تغيير الحياة قبل تغيير "نظاراتك" الذهنية، تشبه محاولة مسح بقعة حبر عن المرآة بينما البقعة عالقة على وجهك أنت!

تاريخياً، يُحكى أن ملكاً قديماً أراد أن يفرش الأرض بالجلد ليمشي بسلام، فأشار عليه حكيمٌ بأن يكسو "باطن قدميه" بقطعتي جلد صغيرة، فكان ذلك ميلاد "الحذاء"؛ وبدلاً من تغيير كوكب كامل، اكتفى بتغيير نقطة التماس مع الواقع. وفي عالم العلم، تبرز دراسات "الدونة العصبية"، التي تؤكد أننا حين نغير أنماط تفكيرنا، فإننا نعيد حرفياً "هيكل" المسارات العصبية في أدمغتنا، مما يغير طريقة استقبالنا للواقع الخارجي، وكأننا نركب عدسات تقنية جديدة تماماً تغير دقة وجودة المشهد المحيط.

إن الانقلابات الكبرى في حياة العظماء لم تبدأ بامتلاك الثروات، بل بـ "انقلاب في الرؤية". فالذي يرى الحياة "فرصة" سيجد في الحجر الذي تعثر به مادة لبناء سلم، بينما يراه صاحب نظارة "العجز" جداراً ينهي طموحه. إن القوة الحقيقية لا تكن في تغيير الظروف، بل في عدم السماح للظروف بأن تملي عليك لون عدساتك؛ فالحياة تظل "ثابتة" في قوانينها، لكنها تصبح "متحولة" ومطواعة فقط لمن أدرك أن مفتاح البوابة الخارجية مدفون في أعماق نفسه.

في ختام هذه الرحلة المعرفية، نصل إلى الذروة التي تلتقي فيها الحكمة البشرية بالوحي الإلهي؛ فكل ما تحدثنا عنه من "نظارات" و"عدسات" ليس مجرد ترفٍ فكري، بل هو جوهر القانون الذي يحكم حركة التاريخ والأنفس. يضعنا الخالق أمام معادلة رياضية لا تقبل الجدل: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ). هذه الآية ليست مجرد نص، بل هي "المحرك الكوني" الذي يربط بين

عالم الغيب وعالم الشهادة؛ فالتغيير الإلهي للظروف الخارجية معلق بشرطٍ بشري يبدأ من الداخل.

تاريخياً، كانت هذه الآية هي الوقود الذي أشعل أعظم التحولات الحضارية؛ فالعرب الذين كانوا مشنتين في صحراء قاحلة لم تتغير "جغرافيا" أرضهم لتجعلهم قادة للعالم، بل تغيرت "جغرافيا نفوسهم". حين استبدلوا نظارات الجاهلية والقبلية الضيقة بعدسات التوحيد والرسالة العالمية، انفتح لهم العالم وكأنه بساطٌ سحري، ليس لأن الأرض تبدلت، بل لأن "النفوس" التي تطأها قد تبدلت. وفي علم النفس الاجتماعي، يتماهى هذا مع مفهوم "التحول الجذري في النموذج"، حيث أثبتت الدراسات أن المجتمعات لا تنهض بالثورات الخارجية المادية إلا إذا سبقتها "ثورة قيمية" في وعي أفرادها.

إن الله سبحانه، بعبقريته الإلهية في تصميم الوجود، جعل "النفوس" هي الريشة التي تلون الواقع. فإذا امتلأت النفوس باليقين، رأيت في البلاء "لطفاً خفياً"، وإذا امتلأت بالشك، رأيت في النعمة "فخاً مستتراً". إن وعد الله بالتغيير يبدأ من اللحظة التي تقرر فيها خلع نظارة العجز وارتداء نظارة الاستخلاف والعمل. حينها فقط، يتحى القدر أمام إرادتك، وتصطفُ قوانين الكون لخدمتك، لأنك حققت الشرط الأول؛ فقد غيرت "ما بنفسك"، فأعطاك الله "ما تحلم به" وأكثر.

نسبية الصواب والخطأ

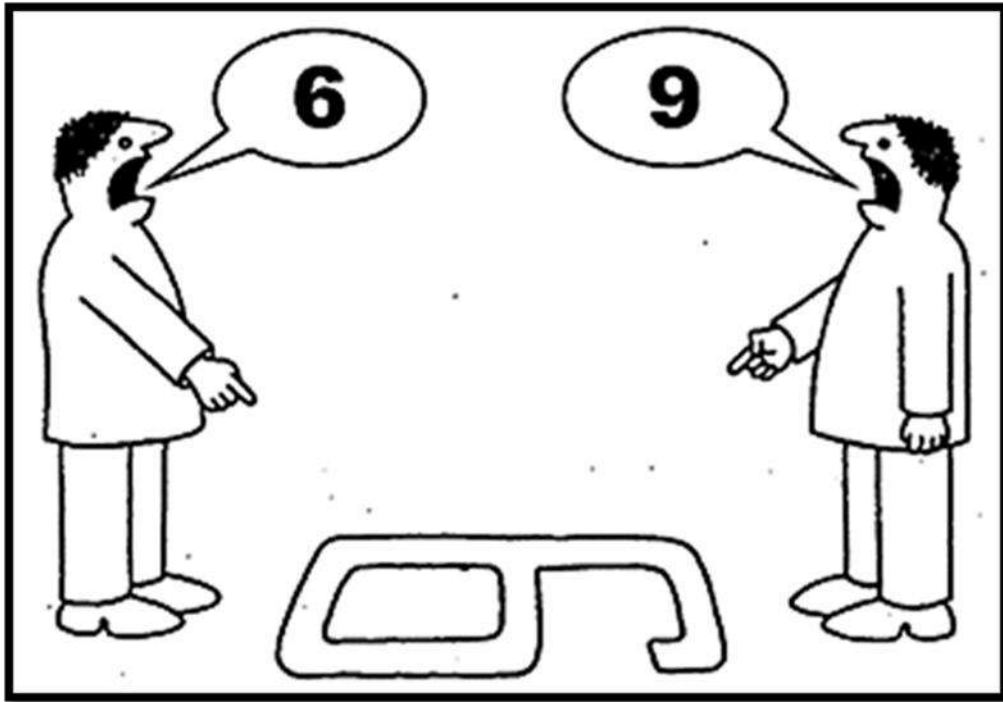
ليس الصواب والخطأ جبلاً راسخاً في الأرض، بل هما رمالٌ متحركةٌ تشكلها رياحُ الزمان وتضاريسُ المكان. نحن نولد لنجد أنفسنا داخل "إطار أخلاقي" لم نختره، بل صاغته لنا القرون الخالية وعادات الأجداد؛ فما نقدسه اليوم كفعلٍ نبيل، قد يكون في بقعةٍ أخرى من الكوكب، أو في حقبةٍ غابرة، وصمة عارٍ لا تغتفر. إنها "جغرافيا الأخلاق"؛ حيث الحقيقة لا تملك وطناً ثابتاً، بل هي "مهاجرة" يتغير زيُّها مع كل حدودٍ تعبرها.

تاريخياً، تمدنا السجلاتُ بصدماتٍ معرفية تجسد هذه النسبية؛ ففي الوقت الذي كان فيه الإسبرطيون في اليونان القديمة يعتبرون "السرقة" مهارةً يجب إتقانها لتدريب المقاتل على الدهاء (بشرط ألا يُكشف أمره)، كانت حضاراتٌ أخرى تقطع يد السارق كفعلٍ شائن. وفي القرون الوسطى، كان "مبارزة الخصوم" حتى الموت تُعد ذروة الشرف والعدل، بينما يراها إنسان العصر الحديث جريمة قتلٍ همجية. أما علمياً، فيشير مفهوم "النسبية الثقافية" في علم الأنثروبولوجيا، الذي أرسى دعائمه "فرانز بواس"، إلى أنه لا يمكن الحكم على صواب فعلٍ ما إلا من داخل الإطار الثقافي الذي نبع منه، لأن العقل البشري مبرمجٌ على اعتبار "المألوف" حقاً و"الغريب" باطلاً.

إننا نعيش في عالمٍ تتنفس فيه القيمُ من خلال رئتي الزمان والمكان؛ فالفعل الواحد هو "نوتةٌ موسيقية" محايدة، لكن المجتمع هو الذي يقرر إن كان لحنها سماوياً أم نشازاً. هذا الإدراك لا يدعونا للضياع، بل يفتح عيوننا على حقيقةٍ كبرى: أننا لسنا "ملاك الحقيقة المطلقة"، بل نحن مجرد قراءٍ في كتابٍ ضخم، كل صفحةٍ فيه كُتبت بلغةٍ بيئتها. إن الصواب الحقيقي ليس في فرض رؤيتنا على العالم، بل في فهم

أن "الشمس" التي نراها عموديةً فوق رؤوسنا، يراها غيرنا في ذات اللحظة غائبةً وراء الأفق.

إن الحقيقة في كثير من الأحيان ليست ما نراه، بل هي "أين نقف" لكي نراه. نحن أسرى لزوايا رؤيتنا، نتشبث بيقيننا حول الأشياء بينما نحن لا نرى إلا وجهاً واحداً من مكعبٍ متعدد الوجوه. تخيل أن الحياة هي ذلك الرقم المكتوب على رمال الواقع؛ يقف أحدهم من جهة فيراه (9) ويقسم على ذلك بأغظ الأيمان، بينما يقف الآخر في الجهة المقابلة ليراه (6) ويجزم بأنه الحق الذي لا مرأى فيه. كلاهما محقٌّ في تجربته الخاصة، وكلاهما مخطئٌ في ادعائه الشمول، فالحقيقة الكاملة هي "الرقم" ذاته قبل أن تشوّهه انحيازات الزوايا.



تاريخياً، يبرز لنا مثال "الأعميان والفيل"؛ تلك القصة الفلسفية العابرة للثقافات، حيث لمس أحدهم خرطوم الفيل فقال هو "ثعبان"، ولمس الآخر ساقه فقال هو "شجرة". كل منهما امتلك جزءاً من الصواب المادي، لكنهما غرقا في خطأ التصور الكلي. أما في العلم، فنجد تجسيداً مذهلاً لهذا في "مبدأ الريبة" لـ "هايزنبرغ" في الفيزياء،

والذي يخبرنا أن فعل المراقبة بحد ذاته يؤثر على النتيجة، وأن ما نراه يعتمد كلياً على كيفية اختيارنا لقياسه.

إن الصراعات البشرية الكبرى لم تنشب لأن طرفاً يحب الباطل، بل لأن كل طرفٍ كان يرى "حقاً" جزئياً من زاويته الخاصة ويريد فرضه ككلٍ مطلق. إننا بحاجة إلى "شجاعة الوقوف في مكان الآخر"، لا لتتبنى رأيه، بل لندرك أن المشهد الذي نراه ليس هو العالم، بل هو مجرد "نافذة" واحدة نطل منها عليه. عندما نفهم أن الـ (6) والـ (9) هما وجهان لعملةٍ واحدة، تبدأ جدران التعصب في الانهيار، ويحل التواضع المعرفي محل الكبرياء الزائف، فنحن في النهاية لا نملك العين التي ترى كل شيء، بل نملك العين التي تترجم ما تراه من حيث هي.

في أعماق التاريخ، ومن بين ركام المعابد والقصور الرومانية القديمة، ظهر لنا "مربع ساتور" (**Sator Square**) كأحجية بصرية وفلسفية مذهلة، تختزل في طياتها سر الوجود والحقيقة. إنه مربعٌ لا يعترف بجهة واحدة للقراءة؛ فكلماته الخمس تنساب من اليمين إلى اليسار، ومن الأعلى إلى الأسفل، وبالعكس، لتعطيك ذات المعنى مهما كان اتجاه بصرك. هذا المربع ليس مجرد ترفٍ لغوي، بل هو تجسيدٌ هندسي لفكرة أن الحقيقة بناءٌ "دائري" متعدد الأبعاد، وأن الإصرار على قراءته من اتجاه واحد هو حرمانٌ للذات من إدراك عبقرية التصميم.

تاريخياً، عُثر على هذا المربع في مدينة "بومبي" المدفونة تحت الرماد، وكان يُنظر إليه كتميمة للحماية، لكن الفلاسفة رأوا فيه "خريطة للوعي". الكلمات (**ROTAS, SATOR, OPERA, TENET**) ليست مجرد حروف، بل هي مفاتيح ذهبية؛ فكلمة **ROTAS** تعني تدوير الزوايا، وكلمة **SATOR**

تعني الأساس ، و كلمة **OPERA** تعني المساعدة ، أما كلمة **TENET** فتعني الفهم ... وعندما نجعل هذه الكلمات تدور حول مركزها، نحصل على الجملة السحرية المختبئة في قلب الشيفرة: **AREPO**، والتي تهمس لنا بحكمة الأزل: "تدوير الزوايا هو الأساس الذي يساعد على الفهم".



علمياً، يتقاطع هذا المفهوم مع ما يُعرف في علم الإدراك بـ "التفكير المنظومي" (**Systems Thinking**)، وهو المنهج الذي يرفض تحليل الأجزاء بشكل منفصل، ويصر على رؤية "الكل" من خلال تدوير الزوايا وملاحظة العلاقات المتشابكة بين العناصر. إننا حين نرفض "تدوير الزوايا" في حواراتنا وقناعاتنا، نتحول إلى آلات جامدة نقرأ سطوراً واحداً من كتاب الحياة. أما عندما نعتمد فلسفة **AREPO**، فإننا نتحرر من ضيق الأحادية إلى رحابة التعدد؛ حيث يصبح الصواب والخطأ مفهوماً عميقاً يُفهم بالسياق، لا بالحكم المسبق. إن الحقيقة ليست صنماً ثابتاً، بل هي رقصة متناغمة من وجهات النظر التي تدور لتصنع في النهاية صورة "اليقين" المتكامل.

نحن لا نرى العالم كما هو، بل نراه كما تسمح لنا "المصافي" البيولوجية والعصبية القابعة في غياهب أدمغتنا. إن عقولنا ليست مرآيا صافية تعكس الواقع، بل هي "معامل معالجة" معقدة، تختار ما تريد وتتنبأ ما يزعجها. الحقيقة نسبية لأن "أداة الرصد" ذاتها - أي الدماغ - ليست محايدة؛ فهي مبرمجةٌ عبر آلاف السنين لا لتبحث عن "الحقيقة المطلقة"، بل لتبحث عما يحقق "البقاء". لذا، فإن ما نراه "صواباً" غالباً ما يكون مجرد استجابة لبرمجة عصبية تحتنا على الاندماج في قطيع الجماعة، خوفاً من نبذ العزلة.

تاريخياً، جسدت قصة "أطفال فيكتور العتال" أو ما يُعرف بـ "الأطفال المتوحشين" هذه الحقيقة؛ فهؤلاء الذين نشأوا بعيداً عن البشر لم يمتلكوا مفاهيمنا عن الصواب والخطأ، بل كانت "حقائقهم" تُستقى من منطق الغابة، مما يثبت أن "الضمير الأخلاقي" ليس فطرةً بيولوجية ثابتة، بل هو "بناءً عصبي" يشكله المجتمع. علمياً، يبرز لنا مفهوم "العمى الإدراكي"، حيث أثبتت تجارب جامعة "هارفارد" الشهيرة (مثل تجربة الغوريلا الخفية) أن الإنسان قد يفقد القدرة على رؤية حقيقة صارخة تقع أمام عينيه لمجرد أن دماغه مشغولٌ بالتركيز على هدف آخر.

إن "المرشحات المعرفية" التي نرتديها هي بمثابة زجاج ملون وُضع فوق أعيننا منذ الصغر؛ فنحن نرى "صوابنا" من خلال "فلتر" الثقافة واللغة والتحييزات المسبقة. هذا الإدراك العلمي يضع كبريائنا في مأزق، فهو يخبرنا أن "يقيننا" قد لا يعدو كونه "هلوسة جماعية" مقننة. إننا نحتاج إلى وعي يقظ لندرك أن ما يصرخ به دماغنا كـ "حقيقة مطلقة" ليس سوى صدى لبرمجة قديمة، وأن السبيل الوحيد لرؤية بياض الحقيقة هو بالاعتراف أولاً بأن عدساتنا البيولوجية ليست شفافة تماماً كما نتخيل.

إن الإيمان بنسبية الصواب والخطأ ليس دعوةً للضياع الأخلاقي أو استباحة للفوضى، بل هو في جوهره "إعلان استقلال" للروح من

قبضة الاستعلاء الفكري. فعندما ندرك أن أحكامنا هي ابنة ظروفنا، وأن الآخر يمتلك حقائق نبعت من زوايا لا نراها، يتحطم صنم "الأنا" الذي يدعي احتكار الحقيقة. هنا يولد "التواضع المعرفي"؛ تلك الفضيلة التي لا تجعلك تتخلى عن مبادئك، بل تجعلك تدرك أنها "مبادئك أنت" وليست بالضرورة "ناموس الكون" الذي يجب أن ينحني له الجميع.

تاريخياً، كان "صلح وستفاليا" عام **1648** نقطة تحول كبرى في تاريخ البشرية؛ فبعد عقود من الحروب الدينية الطاحنة في أوروبا، حيث كان كل طرف يرى صوابه "مقدساً" وخطأ الآخر "كفراً"، أدركت الشعوب أن التعايش لا يتطلب تطابق القناعات، بل يتطلب الاعتراف بحق الآخر في امتلاك "زاويته الخاصة". أما في الفلسفة الحديثة، فيبرز مفهوم "أخلاقيات الحوار" عند "يورغن هابرماس"، الذي يرى أن الحقيقة ليست شيئاً "يملكه" طرف واحد، بل هي شيء "يُكتشف" عبر التواصل والاعتراف المتبادل بين الذات المختلفة.

إن هذا التواضع المعرفي هو الغذاء الوحيد الذي ينمو عليه "التسامح". فالتسامح الحقيقي ليس "تنازلاً" من القوي للضعيف، بل هو اعترافٌ شجاع بمحدودية بصرنا البشري. إننا عندما نكف عن محاولة صهر الآخرين في قوالبنا، نفتح الباب لجمال "التنوع" الذي هو سر عمارة الكون. إن المسؤولية الأخلاقية في عالم نسبي تفرض علينا أن نكون "جسوراً" لفهم بدلاً من أن نكون "جدراناً" للإقصاء؛ فالحقيقة الكاملة هي فسيفساءٌ ضخمة، وما نحن إلا قطعٌ صغيرة فيها، لن يكتمل المشهد إلا حين نقبل بجوار بعضنا البعض، مهما اختلفت ألواننا وزوايا رؤيتنا.

معضلة القنفذ

في عتمة الوجود الباردة، لا يولد الإنسان كجزيرة معزولة، بل يولد ككائن مسكونٍ بحنينٍ أزلي لـ "الآخر". نحن كالقنافذ التي طاردها الزمهرير في ليل الشتاء، لا نملك من أمرنا شيئاً سوى أن نرتصّ بجوار بعضنا البعض؛ فالعزلة ليست خياراً نبيلًا بقدر ما هي صقيعٌ ينهش الروح ويذبل براعم الحياة. إن حاجة النفس للبشر ليست مجرد رغبة في الأنس، بل هي "صمام أمان" بيولوجي، ندرك من خلاله أننا لسنا وحدنا في مواجهة رياح القدر العاتية.



تاريخياً، لم يكن "المنفى" عقوبةً قاسيةً لمجرد سلب الحرية، بل كان موتاً معنوياً بطيئاً؛ فحين كان يُحكم على شخص بالخروج من الجماعة في العصور القديمة، كان ذلك الحكم يعني تجريده من "درعه الحراري" النفسي وتركه لقمة سائغة للاكتئاب والذبول. أما في محراب العلم، فقد كشفت "دراسة هارفارد لتطور البالغين"، التي امتدت لثمانية عقود، حقيقة مذهلة: السعادة والمدى العمري لا يصنعهما المال ولا الشهرة، بل تصنعهما "جودة الروابط". لقد وجد

العلماء أن الوحدة تفرز سموماً في الجسد تضاهي أثر التدخين، وأن لمحةً من ودٍّ أو كلمةً من طمأنينة تعيد ترتيب فوضى الهرمونات في دماننا، وكأن حضور الآخر هو "الترياق" الذي يمنع خلايانا من الانتحار.

إننا نهرب إلى بعضنا لأن "الدفع" هو العملة الوحيدة التي يمكننا مقايضتها في سوق الحياة. إن الآخر هو المرآة التي نرى فيها وجودنا، وهو المعطف الذي نرتديه حين تشتد عواصف القلق. في هذا الارتصاص الجماعي، لا نبحث فقط عن دفع الأجساد، بل عن دفع المعنى؛ فالحياة بدون "قلب" يشاركنا نبضها تصبح مجرد رحلة صامتة في فراغ موحش. نحن محكومون بالحب، ومجبولون على التقارب، لأننا ندرك بالفطرة أن من يعيش وحيداً، يموت من البرد حتى لو كان يسكن في قلب الشمس.

لكن ما إن يقترب القنفذ من أخيه طلباً للسكينة، حتى يكتشف تلك الحقيقة المرة: أن لكل جسدٍ "سياجاً" من الإبر، ولكل نفسٍ ترسانة من الطباع. هكذا نحن البشر؛ نحمل خلف رقة ملامحنا أشواكاً غير مرئية، هي مزيجٌ من قناعاتنا المتصلبة، واختلاف ميولنا، وأناؤنا التي لا تقبل الانكسار. إن المأساة تكمن في أن "الاقتراب المطلق" الذي ننشده يفرض علينا ملامسة تلك المناطق الوعرة في الآخرين، مما يحول عناق الود إلى طعناتٍ متبادلة، ليس عن سوء نية، بل لأن "الهوية" بطبيعتها تمتلك أطرافاً حادة لا تلين.

تاريخياً، كان الفيلسوف المتشائم "أرتور شوبنهاور" يراقب هذا الصراع بمرارة؛ فرأى أن المجتمع ليس إلا تجمعاً للقناذل التي تعذب بعضها كلما حاولت الاندماج، معتبراً أن "الخواء الداخلي" هو ما يدفعنا للتقارب، بينما "الأشواك الفكرية" هي ما يطردنا بعيداً. وفي سجلات العظماء، نجد أن الصداقة التاريخية بين "نيتشه" و"فاغنر" قد تحطمت على صخرة هذا المفهوم؛ فبعد سنوات من الألفة الفكرية العميقة، انغرزت أشواك "الأهواء والمواقف" في روح كل منهما،

ليعلننا أن القرب الزائد قد يحرق الجسور التي بنيت بالحب.

علمياً، يفسر علم النفس السلوكي هذا التصادم عبر مفهوم "صراع الخصوصية"؛ فالدماغ البشري يمتلك منطقة تُدعى "الحيز الشخصي"، وأي اختراق غير مدروس لهذا الحيز يثير استجابة "الكر أو الفر" (**Fight or Flight**) في اللوزة الدماغية، مما يحول العلاقة الاجتماعية إلى مصدر للتوتر المزمن والسمية النفسية. إننا حين ننسى أن للآخر "أشواكاً" يجب احترامها، فإننا لا نجرح جلده فحسب، بل نمزق أوتار الود التي كانت تؤلف بين قلوبنا.

بعد صدمة الوخز المتبادل، تدرك القنافظ بذكائها الفطري أن البقاء لا يكمن في "الاندماج" بل في "المسافة". إنها تبتدع ما يمكن تسميته بـ "المقاس الذهبي للود"؛ تلك النقطة السحرية التي يتلاشى فيها ألم الوخز ويبقى فيها عقب الدفء. في حياة البشر، المسافة ليست جفاءً ولا انقطاعاً، بل هي "هندسة ذكية" للقلب، تضمن أن يظل الآخر قريباً بما يكفي ليؤنسنا، وبعيداً بما يكفي ليحترم فرادتنا. إنها المسافة التي تحول العلاقات من "اختناق" إلى "احتضان".

تاريخياً، تجلت هذه الحكمة في فن "العمارة الإسلامية" عبر "المشربيات"، التي صُممت لتسمح بمرور الضوء والهواء (الدفء والتواصل) مع الحفاظ على حرمة الداخل وخصوصيته (المسافة والأمان). إنها تجسيد مادي لفكرة أن الجمال يكمن في "الحواجز التي تنفذ منها الروح". وفي العلم، يشير علماء النفس الاجتماعي إلى مفهوم "التنظيم البيئي"، حيث أثبتت الدراسات أن العلاقات الأكثر استقراراً وديمومة هي التي يمتلك أطرافها "حدوداً نفوذة" وليست "حدوداً مندمجة"؛ فالتلاشي في الآخر يقتل الشغف ويبرز العيوب، بينما المسافة المدروسة تمنح العين فرصة لرؤية المشهد بجماله الكلي.

إن الحفاظ على المسافة هو اعترافٌ ضمني بأن لكل إنسان "قدس" وأقدس لا يجوز تدنيسه، وأن الاقتراب الزائد يُسقط هيبة الأرواح

كما يُسقط ضوء الشمس الساطع ملامح اللوحة الجميلة. نحن بحاجة إلى أن نتعلم كيف نكون "بجوار" بعضنا، لا "فوق" بعضنا؛ فالمسافة هي الرئة التي تتنفس منها العلاقات، وبدونها يخنق الحب تحت وطأة التملك. إن القنفذ الحكيم هو الذي يختار بقعته بدقة، فلا يغادره الدفء، ولا يباغته الألم.

في عالم القنافذ، قد تبدو المسافة بروداً، لكنها في الحقيقة هي التي تمنع سيل الدماء؛ وكذلك في عالم البشر، تأتي "العلاقات الرسمية" لتلعب دور الغلاف العازل الذي يغطي حدة الأشواك. إن الالتزام بحدود الرسمية في التعامل ليس انسحاباً من الحياة، بل هو "بروتوكول أمان" ذكي، يتيح لنا العبور في دروب الآخرين دون الاصطدام بعقد نفوسهم أو زوايا ميولهم الحادة. إن الرسمية هي "المناخ المعتدل" الذي يحافظ على أوتار الود مشدودة بما يكفي للعزف، ومرخية بما يكفي لئلا تنقطع عند أول اختلاف.

تاريخياً، استلهمت "الديبلوماسية الدولية" وجودها من هذا المنطق؛ فالدول لا تفتح حدودها وسجلاتها لبعضها البعض تحت مسمى "الصداقة المطلقة"، بل تضع "المراسم والاتفاقات" كحواجز رسمية. هذه الرسمية هي التي سمحت لخصوم تاريخيين بالجلوس على طاولة واحدة وبناء مصالح مشتركة، لأنهم أدركوا أن "العفوية المفرطة" هي شرارة الحروب، بينما "الرسمية المنظمة" هي ضمانة السلام. وفي العلم، يشير مفهوم "الأدوار الاجتماعية" في علم الاجتماع، إلى أن تقييد الفرد بدور محدد (كالزميل أو الجار الرسمي) يقلل من "الإجهاد المعرفي" والتوتر العاطفي، لأنه يضع توقعات واضحة للسلوك ويمنع تداخل الانفعالات الشخصية مع المهام الاجتماعية.

إن العلاقات الرسمية هي "الرداء الأبيض" الذي نخفي تحته جروحنا ونحترم به جروح الآخرين؛ فهي تمنحنا فرصة "التبادل النبيل" للمنافع والأفكار دون أن نضطر للغوص في وحل الخلافات

الشخصية. إنها تعلم الفرد كيف يكون "ودوداً بلا اندفاع"، و"قريباً بلا تطفل". ففي غابة الأشواك البشرية، لا ينجو إلا من أدرك أن وضع "قناع الرسمية" في المواقف الصحيحة هو أسمى أنواع الاحترام للذات وللآخر، وهو الطريق الوحيد للمحافظة على "شعرة معاوية" من أن تقطعها رياح الأهواء.

في نهاية المطاف، نكتشف أن "معضلة القنفذ" لا تُحل بالهروب التام إلى العزلة، ولا بالارتواء الكامل في أحضان الآخرين، بل في بلوغ حالة من "التوازن النفسي" الفائق؛ تلك الحالة التي تسمح لك بأن تكون "فرداً" مستقلاً وسط "الجموع" الصاخبة. إنها قدرة الروح على أن تمارس "العزلة الجماعية"، أي أن تستمتع بدفع القرب الاجتماعي دون أن تفقد مركز ثقلها أو تتنازل عن حدودها السيادية. الشخص المتوازن هو "قنفذٌ حكيم" يمتلك مفاتيح أشواكه؛ يعرف متى يرخيها ليسمح للود بالعبور، ومتى يشهرها ليحمي حماه من التعدي.

تاريخياً، تجسد هذا التوازن في شخصية "الرواقيين الجدد"، الذين آمنوا بأن الإنسان مدنيٌّ بطبعه، لكن عليه أن يبني داخل نفسه "حصناً داخلياً" لا يطاله أحد. نجد ذلك في سيرة الإمبراطور "ماركوس أوريليوس"، الذي كان يدير الإمبراطورية وسط الحشود، بينما يكتب في "تأملاته" عن ضرورة الحفاظ على الخلوة الذهنية والمسافة النفسية عن صخب العالم. أما علمياً، فيشير مفهوم "التمييز النفسي" في نظريات النظم العائلية، إلى أن النضج الحقيقي يكمن في قدرة الفرد على البقاء متصلاً بالآخرين "عاطفياً" مع الحفاظ على استقلاله "الفكري"؛ فالمرء السوي هو من لا يذوب في الجماعة لدرجة فقدان الهوية، ولا ينعزل عنها لدرجة فقدان الإنسانية.

إن الخلاصة التي تقدمها لنا هذه المعضلة هي أن السعادة ليست في العثور على "علاقة بلا أشواك"، بل في امتلاك "المهارة" للتعامل مع تلك الأشواك. التوازن النفسي هو أن تدرك بأن الآخر "مكمل" لوجودك وليس "مالكاً" له، وأن صحتك الذهنية تعتمد على جودة

"الخطوط الحمراء" التي ترسمها حول قلبك بقدر ما تعتمد على
جسور الود التي تمدها للناس. عندها فقط، يمكنك أن تعيش بسلام
وسط عالم القنافذ، تنعم بدفئهم وتأمين وخزهم، وتظل أنت "أنت" في
كل حين.

النجاح لا يعني تحطيم الآخرين

كثير من البشر يميلون لإثبات قوتهم عبر تحطيم منافسيهم بالقول أو الفعل ، بدلاً من التفوق عليهم بالإنجاز الذاتي .. و في قصة قصيرة مفعمة بالعبر فقد أراد شاب ياباني أن يتعلمد خلف حكيم في بلده ليصبح إنساناً أفضل و أنجح فقام الحكيم برسم خط على الرمال و طلب من الشاب أن يجعله أقصر ، فما كان من الشاب إلا أن مسح جزءاً من ذلك الخط ، فقال له الحكيم نافياً : النجاح لا يتحقق بتحقيق الآخرين بل بجعل إنجازاتنا أفضل منهم ، و رسم الحكيم خطاً موازياً للخط الأول و أطول منه ثم قال : هكذا أصبح الخط الأول أقصر ..



في سعي الإنسان نحو القمة، تزلُّ أقدام الكثيرين في فخِّ نفسيّ عتيق، حيث يتوهمون أن الطريق إلى العلو يمر عبر حفر القبور لنجاحات الآخرين. إن الميل لتحطيم المنافس بالقول اللاذع أو الفعل الكيد، بدلاً

من التفوق عليه بنبل الإنجاز، ليس إلا "صرخة عجز" مُغلقة بضجيج القوة الزائفة. هؤلاء لا يبحثون عن الضوء، بل يحاولون إطفاء مصابيح غيرهم ليخفوا عتمة أرواحهم، ظناً منهم أن سواد العالم من حولهم سيجعل بهوتهم يبدو لمعاناً.

علمياً، يغوص بنا "ألفرد أدلر" في أعماق هذا السلوك عبر مفهوم "الاستعلاء التعويضي"؛ فالفرد الذي يقتات على تحقيق منجزات المحيطين به، هو في الحقيقة إنسانٌ يرتجف تحت وطأة "عقدة نقص" متجذرة. إن عقله الباطن يدرك ضالة "خطئه الذاتي"، وبدلاً من كبد المعاناة في إطالة ذلك الخط بالعمل والجهد، يختار الطريق الأسهل: مسح أجزاء من خطوط الآخرين. هذا النزوع التدميري ليس علامة قوة، بل هو اعترافٌ ضمني بالهزيمة أمام عظمة الخصم، فمن لا يملك معولاً للبناء، يكتفي بفأسٍ للهدم.

تاريخياً، امتلأت الساحات بـ "محطمي التماثيل" الذين حاولوا طمس أسماء العظماء من على جدران المعابد والكتب، ظناً منهم أن محو الاسم يمحو الأثر. لكن التاريخ، بذاكرته الحديدية، كان دوماً ينصف صاحب البناء؛ فالمعاول تكسرت والأسماء المحفورة بالجهد ظلت شامخة، بينما لم يحفظ التاريخ لـ "المحطمين" إلا قبح فعلهم. إن النجاح القائم على تحقيق الآخر هو "نجاحٌ كرتوني" ينهار عند أول مواجهة مع الحقيقة، لأنك في النهاية لم ترتفع قيد أنملة، بل كل ما فعلته هو أنك خفضت الأرض من حولك، لتبقى وحدك في حفرةٍ تظنها قمة.

في حضرة الحكيم الياباني، لم يكن الدرس مجرد حركةٍ على الرمال، بل كان كشفاً لحقيقةٍ كونيةٍ كبرى: أن الحقيقة لا تُمحي، بل تُحتوى. إن فلسفة "الخط الأطول" هي المعنى الأسمى للترفع؛ فهي تخبرنا أن التفوق الحقيقي لا يتطلب منا أن نكسر نصل المنافس، بل أن نصهر معادننا لنصنع نصلاً أكثر بريقاً وحدة. إن النجاح الذي يتغذى على مسح إنجازات الآخرين هو نجاح "سالب"، أما النجاح الذي

يتجاوزها بإنجازٍ أعظم فهو نجاح "موجب" يضيف للكون مساحة جديدة من الجمال.

تاريخياً، لم يكن "سباق الفضاء" بين القوى العظمى مجرد صراع إرادات، بل كان "خطاً" يُرسم فوق خط؛ فحين أطلق السوفييت "سبوتنيك" كأول قمر صناعي، لم يسع العالم لتدميره في مداره، بل ردّت البشرية برسم خطٍ أطول وصل إلى سطح القمر. هذا النوع من "المنافسة الشريفة" هو الذي دفع الحضارة الإنسانية خطواتٍ جبارة للأمام؛ فلو انشغل كل طرف بتحطيم خط الآخر، لبقى الجميع يراوحن مكانهم فوق رمال العجز. إن العظماء لا ينظرون للخلف ليروا من يسقط، بل ينظرون للأمام ليروا كيف يمدون "خط إنجازهم" نحو الأفق البعيد.

علمياً، يتقاطع هذا المفهوم مع استراتيجيات "المحيط الأزرق"؛ حيث لا يضيع الناجحون طاقتهم في صراعات دامية داخل "محيطات حمراء" مزدحمة بالمنافسين الذين يحاولون تمزيق بعضهم، بل يبتكرون مساحات جديدة وإنجازات فريدة (خطوطاً أطول) تجعل المنافسة القديمة غير ذات جدوى. إنك حين تركز على إطالة خطك الذاتي، فإنك تُمارس أرقى أنواع الحياء؛ فأنت لا تُعادي أحداً، بل تُسابق إمكاناتك. وفي نهاية اليوم، سيكتشف العالم أن الخط القديم أصبح قصيراً ليس لأن أحداً مسحه، بل لأن روحك المبدعة رسمت واقعاً يتجاوز كل المقاييس السابقة.

إن الوقت هو المادة الخام الوحيدة التي يُصنع منها قدرُ الإنسان، غير أن الكثيرين يهدرون هذا الكنز في "محرقة" مراقبة الآخرين. إن الانشغال بعدّ سقطات المنافسين، وتتبع عثراتهم، وتحويل الذهن إلى محكمة دائمة لمحاكمة إنجازاتهم، ليس مجرد فعل اجتماعي، بل هو استنزافٌ طاقي هائل. فكل لحظة تقضيها في تحليل "نقص" غيرك، هي لحظة مقتطعة قسراً من مشروع "كمالك" الذاتي؛ إنك بذلك تبني

سجوناً من الأفكار السلبية حول الآخرين، بينما تترك حديقتك الخاصة عرضة للإهمال والذبول.

علمياً، يبرز لنا في الاقتصاد السلوكي وعلم النفس المعرفي ما يُعرف بـ "اقتصاد الانتباه"، حيث يُعد الانتباه مورداً محدوداً وشحيحاً. تؤكد الدراسات أن العقل البشري يمتلك قدرأً محدداً من الطاقة الذهنية يومياً، وحين يتم توجيه هذه الطاقة نحو "المقارنة الاجتماعية السلبية" أو البحث عن العيوب، فإن الدماغ يقع تحت وطأة "الإجهاد المعرفي" الذي يقتل القدرة على الابتكار. إن العقل المنشغل بالهدم يفتقر إلى "المرونة العصبية" اللازمة للبناء؛ فالباحث عن العيوب يبرمج دماغه على رؤية "العقبات"، بينما الباحث عن الإنجاز يبرمج دماغه على رؤية "الفرص".

تاريخياً، كان يُقال إن العقول الكبيرة تناقش الأفكار، والعقول المتوسطة تناقش الأحداث، أما العقول الصغيرة فهي التي تناقش "الأشخاص". نجد هذا التباين جلياً في مسارات المبدعين؛ فبينما كان "النقاد" في عصر النهضة يستهلكون أعمارهم في كتابة الهجاء وتحقير الفنون الجديدة، كان "ليوناردو دا فينشي" ورفاقه يخلقون أبوابهم على أحلامهم، مدركين أن العالم لا يتذكر من صرخ "هذا خطأ"، بل يتذكر من قدم "هذا البديل الأفضل". إنك حين تكف عن عد عيوب الناس، تبدأ في عد نعم الله عليك وفي استكشاف مكامن القوة في ذاتك؛ فالعمر أقصر من أن نضيعه في ترميم قبح الآخرين، بينما نملك القدرة على بناء جمالنا الخاص.

في مسرح الحياة، تبرز كياناتٌ وجهاتٌ لا تملك في رصيدها حجر بناءً واحد، فتختار العيش على "التطفل" فوق أكتاف العمالقة. إنها "استراتيجية الغبار"؛ حيث تعتمد الجهات العقيمة إلى إثارة زوابع التشكيك وتحقير الإنجازات الضخمة للمؤثرين، ليس رغبةً في الإصلاح، بل رغبةً في "الظهور" ضمن ذات الكادر الذي يضم الكبار. هؤلاء يدركون أنهم لا يملكون "خطأً" خاصاً بهم، فيحاولون

بأنسين أن يصنعوا لأنفسهم حجماً وهمياً عبر الوقوف بجانب العمالقة لمهاجمتهم، تماماً كالقزم الذي يقف فوق كتف العملاق ليقول: "أنا أرى أبعد منه!".

تاريخياً، واجه العظماء دوماً هذا النوع من "الإرهاب الفكري"؛ فالعالم "إسحاق نيوتن" لم ينبُج من سهام جمعيات ومنظرين لم يقدموا للعلم ورقة واحدة، لكنهم استهلكوا حبرهم في محاولة تقزيم قوانينه الكونية. هذا "الضجيج" هو في الحقيقة اعترافٌ ضمني بعجز هذه الجهات عن مجاراة الواقع؛ فهي تقف على منجزات غيرها عبر النقد الهدام، لأن صناعة "حدث" واحد مفيد للبشرية يتطلب عرقاً وتضحية، بينما "النباح" خلف القافلة لا يتطلب سوى حنجرة صاحبة ونفس حاقدة.

علمياً، يفسر علم النفس الاجتماعي هذه الظاهرة بما يسمى "تأثير الانعكاس الاجتماعي"؛ حيث تحاول الجماعات الفاشلة رفع شأنها عبر مهاجمة "المعايير المرتفعة" التي يضعها الناجحون، لأن وجود ناجح حقيقي في المحيط يكشف عري فشلهم. إنهم يحاولون خفض المعيار ليصبح فشلهم مقبولاً. لكن الحقيقة التي يجهلها هؤلاء هي أن التاريخ لا يكتبه من انتقد، بل يكتبه من بنى؛ وأن كل صرخات التحقير لا تزيد البناء العظيم إلا بريقاً، لأنها تؤكد أن هذا البناء قد بلغ من الضخامة حداً لم يعد يمكن تجاهله، فاستحال "هدفاً" لكل من ضل الطريق نحو التميز.

في نهاية المطاف، وبعد أن يهدأ صخب المعارك الكلامية، ويتلاشى غبار التشكيك الذي أثارته الجهات العاجزة، لا يبقى في ساحة الوجود إلا الحقيقة الصامتة والصلبة: "لغة الأرقام". إن الحياة تمتلك نظاماً دقيقاً للتصحيح الذاتي، يشبه الغربال الذي لا يستبقي إلا الثبر الخالص؛ فالحقائق الملموسة والنتائج الواقعية هي "القاضي العدل" الذي لا تأخذه رافة بالمدعين، ولا يضيره جحود الجاحدين. هنا، تذوب الهالات الوهمية، وتتكشف الأحجام الحقيقية؛ فمن رسم خطأ

طويلاً بالإنجاز سيبقى أثره خالداً، ومن اكتفى بمحاولة مسح خطوط غيره سيمحوه الزمن من ذاكرته.

علمياً، يخضع النجاح لما يُعرف في علم الاجتماع بـ "مبدأ الجدارة" و"قانون التراكم"؛ حيث أثبتت الدراسات المؤسسية أن القيمة المضافة للبشرية هي العملة الوحيدة التي لا تنخفض قيمتها بمرور الزمن. الأرقام في الإحصاء لا تملك عواطف، ولا تتحيز لجهةٍ دون أخرى، بل هي "رسم بياني" يعكس بدقة متناهية حجم العطاء مقابل حجم الضجيج. إن "البيانات الضخمة" اليوم تؤكد أن الإنجازات الحقيقية تمتلك قوة دفع ذاتية تجعلها تتجاوز محاولات التعتيم، بينما تسقط الفقاعات الإعلامية عند أول اختبار للمنفعة العامة.

تاريخياً، حاول الكثيرون طمس إنجازات حضارات أو علماء عبر "البروباجندا" السوداء، لكن التاريخ كان دوماً يفتح دفاتر الأرقام؛ فبناء الأهرامات، واكتشاف القوانين الفيزيائية، واختراع اللقاحات، هي "خطوطٌ" بلغت من الطول حداً جعلها تتحدث عن نفسها بلغةٍ لا تحتاج إلى مترجم. إن الأرقام هي التي وضعت كل جهة في خانتها المناسبة؛ فمن قدم نفعاً استقر في خانة "البقاء"، ومن قدم ضجيجاً استقر في خانة "النسيان". إنها العدالة الكونية التي تهمس في أذن كل طامح: لا تلتفت لمن يحاول تقزيمك، فالأرقام لا تكذب، والحجم الحقيقي لإنجازك هو الذي سيحدد مقامك في كتاب التاريخ، بعيداً عن زيف الكلمات.

العقاب بالتشجيع

في عتمة الغابات الكاميرونية الواسعة، حيث تتشابك ظلال الأشجار لتصنع لوحةً من تاريخ الوجود، يعيش الإنسان متصلاً بنبض الأرض الأولى. هناك، لا تملك القبيلة سجوناً من حديد، ولا مشانق للاقتصاص، بل تمتلك رادعاً أشد عمقاً وأنفذ للروح؛ "دائرة الاحتواء". عندما تزلّ قدمُ أحد الأفراد ويقترب خطأً يهدد السلم الاجتماعي، لا يُنبذ خارج الجماعة، ولا يُلقى به في غيابة الإقصاء، بل يجتمع حوله جسدُ القبيلة لثلاثة أيامٍ بلياليها. ويقوم أفراد القبيلة بتذكيره بصفاته الإيجابية وإنجازاته فيقولون له :

أنت شجاع عندما دافعت عن القبيلة

أنت كريم عندما قسمت طعامك مع الجائعين

أنت حكيم عندما أنهيت النزاع بين العائلات



علمياً، تعيد هذه الممارسة الفطرية صياغة مفاهيم العدالة في العصر الحديث من خلال ما يُعرف بـ "العدالة التصالحية". تشير الدراسات

النفسية والاجتماعية في جامعات مرموقة إلى أن العقاب القائم على "الإقصاء والتشهير" يرفع من معدلات الجريمة، لأنه يقطع خيوط الانتماء بين الفرد ومجتمعه، ويجعله يتبنى هوية "المنبوذ". في المقابل، فإن مواجهة الخطأ بـ "الدعم البنيوي والاجتماعي" يفعل العكس تماماً. إن هذه الدائرة تبني في عقل المخطئ التزاماً أخلاقياً جارفاً، وتولد لديه ما يُسمى "اليقظة الوجدانية تجاه الجماعة"؛ فحين يرى أن المجتمع يرفض "الفعل" ويحتضن "الإنسان"، يستحيل عليه أن يخذل تلك الأيدي التي امتدت لتنتشله بدلاً من أن تدفعه نحو الهاوية.

إن طقس الكاميرون هو الدرس الأبلغ في جغرافيا المشاعر الإنسانية؛ فالخطأ في فلسفتهم ليس جريمة تستوجب البتر، بل هو "فقدان مؤقت للبوصلة"، والمخطئ ليس عدواً تجب هزيمته، بل هو "أخ ضل الطريق" ويحتاج إلى من يمسك بيده ليعيده إلى النور. إنهم لا يطاردون الجرح، بل يسكبون عليه بلسم الغفران والاعتراف بالقيمة؛ ليعلم العالم أن المجتمعات لا تُبنى بقطع الرؤوس، بل بضم القلوب، وأن أرقى أنواع العدالة ليست تلك التي تطبق نصوص القوانين الجافة، بل هي التي تعيد للمخفق إنسانيته وكرامته ليعود غداً عنصراً فاعلاً يحرس الأرض التي غمرته بالحب وقت ضعفه.

الإنسان كائنٌ مرئي، لا يرى نفسه من الداخل إلا بعد أن تنعكس صورته على صفحات الوجوه والكلمات من حوله. إن أفكار الآخرين عنا، وأحكامهم التي يطلقونها علينا، ليست مجرد أصوات تذروها الرياح، بل هي "مرايا" صقيلة نحقق فيها منذ الطفولة لنعرف من نكون. فالعقل البشري يولد كصفحة بيضاء، يبدأ برسم ملامحه الأولى بناءً على الخطوط التي يخطها المحيطون به؛ فإذا كانت المرايا التي تحيط بنا مشوهة تبرز العيوب فقط، كبرت أرواحنا وهي تحمل ذات التشوه والكسر.

علمياً، يتقاطع هذا المفهوم مع الرؤية العميقة لعالم النفس الشهير

"كارل يونغ"، الذي أكد أن "الأنا" تنمو وتتشكل عبر الانعكاسات الاجتماعية وتفاعل اللاوعي مع البيئة المحيطة. وفي علم النفس المعرفي الحديث، تتجلى هذه الحقيقة بأبهى صورها عبر "تأثير بجماليون". تثبت الدراسات التجريبية أن الإنسان يسعى دائماً - دون وعي - لتحقيق التوقعات التي يضعها الآخرون له. فلو كررت على مسامع طفل أنه "كسول" أو "بليد"، فإن عقله الباطن يترجم هذه الكلمات إلى "هوية مستقرة"، فيتوقف عن المحاولة لأنه استجاب للنبوءة التي رآها في مرآة أهله، وأصبح يتصرف بناءً على تلك الصورة المصنوعة له.

إن كل كلمة نوجهها لمن حولنا هي بمثابة "فرشاة رسم" تشكل تضاريس نفوسهم؛ فالمديح الصادق والتركيز على مواطن الجمال يثبت ملامح القوة والثقة في روح الشخص، في حين أن النقد الهدام يسجن الروح في إطار ضيق من العجز. نحن مدينون للمرايا التي شكلتنا، وعلينا أن نكون مرايا نقية لمن نحب؛ نكشف لهم عن مواطن النور في أعماقهم حين يضلون الطريق في العتمة، ونذكرهم بأن ملامحهم الحقيقية أجمل بكثير من تلك الظلال العابرة التي خلفها الإخفاق في لحظة ضعف.

لم تكن الحكمة التراثية حين قالت إن "تكرار الكلام له تأثير أقوى من السحر" مجرد مبالغة مجازية، بل كانت توصيفاً دقيقاً لآلية عمل الوعي البشري. الكلمات التي تُعاد على مسامعنا لا تموت في فضاء العدم، بل تتحول إلى تراويل غائرة تنقش مجراها في أعماق عقولنا. إن التكرار هو بمثابة قطرات الماء المتتالية التي تنجح في نحت الصخر الأصم؛ فالحرف المعاد يتحول بمرور الوقت إلى فكرة، والفكرة تصبح معتقداً راسخاً، والمعتقد يترجم نفسه في نهاية المطاف إلى سلوك فطري يتحكم في مسار حياتنا دون أن نشعر.

تاريخياً، أدرك القادة العظام والخطباء المفوهون هذه القوة الخفية؛ فكانوا يكررون كلمات مثل "الحرية"، "المجد"، و"النهوض" على

مسامع شعوبهم المحطمة عقب الحروب، لا لملء الفراغ، بل لإعادة بناء "الروح الجماعية" من الركام وتغذية العقل الجمعي بيقين جديد. أما في محراب العلم، فإن هذا "السحر" يجد تفسيره الحرفي في علم الأعصاب عبر مفهوم "الدونة العصبية". أثبتت الدراسات أن تكرار نمط فكري أو كلامي معين يساهم في تقوية الروابط بين الخلايا العصبية وبناء مسارات جديدة في الدماغ. هذا يعني أن إمطار المخطئ بعبارات إيجابية مكررة يعيد حرفياً "برمجة" دماغه، ليصبح السلوك النبيل عادة بيولوجية وخياراً تلقائياً يتجه إليه العقل طواعية.

إن الكلمة المتكررة هي طاقة تشكيلية تسري في كيان الإنسان؛ فإما أن تكون معولاً يهدم الثقة، أو بلسماً يرمم الانكسار. نحن لسنا سوى حصاد الكلمات التي استقرت في مسامعنا وأعدناها في خلواتنا؛ ولذلك فإن التشجيع المستمر ليس مجرد مواسة عابرة، بل هو عملية هندسية لبناء إنسان جديد، غلافها الحرف ومضمونها صناعة المصير.

عندما نسارع إلى محاصرة المخطئ بسياط اللوم الحاد، أو نجلد ذاته بالتقريع اللفظي والجسدي، فإننا لا نمحو الخطأ، بل نحفر له خندقاً عميقاً ليستقر في سويداء النفس. إن العقاب القاسي هو "مكافأة عكسية" للذنب؛ فهو يمنح الخطأ العابر شكلاً ومجداً، ويجبر الإنسان على الالتصاق بزعمه الدفاعي بدلاً من مراجعته. حين يمتلئ فضاء الطفل أو المخطئ بعبارات التقريع، يغلق عقله أبواب التوبة والترميم، وينتقل من مربع "الاعتراف والندم" إلى مربع "الدفاع عن الكبرياء الجريح".

علمياً، يفسر علم النفس السلوكي والتربوي هذه النكسة عبر مفهوم "العجز المتعلم". عندما يتعرض الإنسان للعقاب المستمر والتقريع اللفظي الشديد، يتولد لديه يقينٌ مظلّم بأنه عاجز عن التغيير، فيقول لنفسه: "ما دمتُ موصوماً بالسوء في كل حال، فلماذا أتكبد عناء

الصالح؟". وتثبت الدراسات النفسية الحديثة حول السلوك الارتدادي أن العقاب لا يلغي السلوك السلبي، بل يدفعه إلى "التحول نحو السرية" أو تفجيره على شكل "عناد انتقامي"؛ حيث يصبح الإصرار على الخطأ هو السلاح الوحيد الذي يملكه المستضعف لإعلان تملله وثورته ضد السلطة المعاقبة.

تاريخياً، أثبتت مسارات النظم التربوية القمعية أن "الترهيب" لم يصنع يوماً جيلاً مصلحاً، بل صنع نفوساً مشوهة تضرر الحقد وتتحين الفرص لتمارس ذات السادية التي عوقبت بها. إن التقرير يعيد ترميز هوية الإنسان؛ فيحوّله من "شخصٍ اقترف خطأً" إلى "شخصٍ يجسد الخطأ". وفي هذه اللحظة الحرجة، يتحول السوط إلى قيد، وتتحول الكلمة الجارحة إلى مرآة يرى فيها المخطئ قُبْحه، فيألفه ويصبح جزءاً من طباعه الفطرية، لعجزه عن محاكاة مجتمع لا يرى فيه سوى العثرات.

حين يخطئ الإنسان، تضيق في عينيه المسالك، ويجتاحه شعورٌ خائق بالضالة والذنب، وكأن ذلك الزلل قد مسح كل تاريخه الجميل. في هذه اللحظة الحرجة، لا يحتاج المخطئ إلى من يزيده غرقاً، بل يحتاج إلى من يذكره بـ "جذوره الأصيلة". إن قول أفراد القبيلة للمخطئ: "أنت شجاع، أنت كريم، أنت حكيم" ليس تزييفاً للواقع، بل هو عملية "تطهير واستشفاء"؛ هو إعلانٌ صريح بأن هذا الخطأ العابر لا يمثله، بل هو ثوبٌ غريب لا يليق بقامته النبيلة، وأن عليه أن ينفذ عنه غبار العثرة ليعود إلى أصله النقي.

تاريخياً، تتماهى هذه الرؤية مع الفلسفات الشرقية القديمة، مثل "الفلسفة الكونفوشيوسية"، التي تؤمن بأن الطبيعة البشرية خيرة في أصلها، وأن التربية والتقويم هما رحلة "إزالة الغبار عن المرآة" وليست زراعة لشيء غريب. وفي التراث الإسلامي، تجسد هذا المنهج في التعامل النبوي مع المخطئين؛ فلم يكن يُسمح بتحطيم كرامة المخطئ أو لعنه، بل كان يُذكر بإيمانه وحبه لله ورسوله، مما

يجعل حيّاه من ماضيه النبيل وقيّمته الاجتماعية أكبر دافع له للإقلاع عن الذنب والعودة الفورية للمربع الإيجابي.

علمياً، يفسر علم النفس الإيجابي هذا التثبيت عبر مفهوم "التدخل القائم على نقاط القوة". أثبتت الدراسات الحديثة في تعديل السلوك أن التركيز على المزايا السابقة للمخطئ واستدعاء نجاحاته القديمة يعمل كـ "رافعة نفسية" تعيد بناء تقديره لذاته. هذا الأسلوب ينشط مسارات التحفيز في الدماغ، ويمنح الإنسان الطاقة الإيجابية اللازمة لترميم الخطأ بدلاً من الاستسلام له. إن استدعاء الجذور هو بمثابة تذكير الشجرة الذابلة بجمال عروقها المدفونة في الأرض؛ فمتى ما آمن المخطئ أن معدنه أصيل، ترفع ترفعاً فطرياً عن الصغائر، وعاد ليشرق من جديد في سماء الجماعة التي حرس روحه من الانكسار.

لكل شيء ثمن و ذلك لغاية

فونانتا دي تريفي أو نافورة الأمانى ، معلم شهير في مدينة روما يلقي فيه السياح النقود و يتمنون أمنية علّها تتحقق .. لم تكن النقود التي تتهاوى في قاع "نافورة تريفي" يوماً مجرد قطع معدنية باردة تُلقى في الماء، بل هي "قيمةٌ تضحوية" يدفعها الإنسان ليبرم بها عقداً سرياً مع لاوعيه. إن النفس البشرية جُبلت على ألا تقدر ما يأتيها بالمجان؛ لذا فإن اشتراط "الثمن" في طقوس الأمانى هو عملية هندسة دقيقة لـ "عقد الاستحقاق الداخلي". حين يفترق المرء عن جزء من ماله، يرسل عقله الباطن إشارة حاسمة ومزلزلة إلى أعماقه: "لقد دفع الثمن، ولم يعد للحلم عذر في الغياب". هذا التخلي المادي الصغير يحرر النفس من قيد "الشك العاجز"، ويمنحها الشرعية المطلقة لانتظار النصر والتجلي.



ما إن يستقر يقينُ التحقق في دفائن العقل الباطن، حتى تخلع الأمنية رداء الاستحالة، وتتحول في وعي الإنسان إلى "بوصلة مغناطيسية"

توجه خطاه طواعية نحو المال المنشود. إنك عندما تؤمن بأن حلمك قد بات حقاً مشروعاً لك، يتغير التردد الشعوري لروحك؛ فتسكنك طمأنينة الواصل، وتعمل بتفاؤل هادئ يرى الفرص الكامنة في زوايا لم يكن يلمحها العقل القلق. الحياة ليست جداراً صامداً يصد محاولاتك، بل هي مرآة مستجيبة تعيد ترتيب أحداثها وظروفها لتلتقي بك في منتصف طريق السعي، وكأن خطوط القدر تصطفُ سراً لتمهيد المسار الذي آمنت به.

تاريخياً وروحياً، يتماهى هذا التحول المعرفي مع فلسفة الإشراق الصوفي وعمقها الروحي، وتحديدًا في تلك الترتيلة الخالدة لشيخ المتصوفين "جلال الدين الرومي" حين همس للكون: "اعلم بأن ما أنت ساع إليه هو ساع إليك". إنها حكمة الأزل التي تؤكد أن الرغبة الحقيقية المشحونة باليقين ليست حركة في فراغ، بل هي "قوة جذب" متبادلة بين الطامح وهدفه. أما في محراب العلم الحديث، فإن هذا الانجذاب الذاتي يجد تفسيره العصبي الدقيق عبر ما يُعرف بـ "الجهاز التنشيطي الشبكي" في الدماغ؛ وهو بمثابة مرشح فائق الذكاء، يعيد توجيه انتباهك وتركيزك البصري والمعرفي ليلتقط فوراً كل الفرص، والأشخاص، والمعلومات التي تتوافق مع فكرتك المركزية، محولاً الوعي البشري من رادار راصد إلى مغناطيس جاذب يصنع واقعه بيديه.

إن اليقين الذي يولد بعد دفع الثمن هو الذي يجعل الفرص تتجلى أمامك وكأنها ولدت فجأة من رحم العدم، بينما هي كانت هناك طوال الوقت، لكن عينك لم تكن مهياً لرؤيتها. عندما يتحد وعيك مع لاوعيك في فكرة واحدة، تذوب جدران المستحيل، ويتحول السعي إلى رقصة متناغمة بين الداخل والخارج؛ فالكون لا يعطيك ما تطلبه بلسانك، بل يعطيك ما أنت مستعدٌ لاستقباله بيقينك، لتكتشف في النهاية أن الرحلة لم تكن بحثاً عن شيء غريب، بل كانت عودةً لشيء كان ينتظر نضج روحك ليتجسد أمامك.

ليست نافورة "فونتانا دي تريفي" مجرد جدارٍ من الرخام الصامت، أو لوحة باروكية نُحتت لتخليد الآلهة الأسطورية، بل هي كائنٌ تاريخيٌّ حي، يتنفس بتطلعات البشر وأمانهم منذ قرون. إن هذا المعلم المهيّب يمثل نقطة التقاء فريدة بين عمق الماضي وحاجة الحاضر؛ حيث تتحول تلك القطع النقدية الصغيرة، التي رماها الغرباء بلغاتٍ وأمّياتٍ شتى، إلى شلالٍ ماديٍّ ملموس يتدفق سنوياً ليصنع فارقاً حقيقياً في حياة أولئك الذين سحقتهم ظروف الحياة اليومية. إنها "مؤسسة تكافلية" غير مرئية، تحرسها الفنون وتحركها العاطفة الإنسانية النبيلة.

تاريخياً، بُنيت هذه النافورة في القرن الثامن عشر بأمرٍ من الباباوات، لتشكل المصب الأخير لقناة "أكوا فيرجو" المائية القديمة، التي شيدها الرومان قبل ألفي عام لتكون شريان الحياة الذي يسقي المدينة العظيمة بالماء النقي. واليوم، لم تعد القناة تسقي الأجساد فحسب، بل غدت تسقي الأرواح بالأمل؛ إذ تؤكد سجلات مدينة روما المعاصرة أن البلدية تجمع تلك العملات المعدنية الملقاة في جوف الماء - والتي تقدر بملايين اليورو سنوياً - وتسلمها بالكامل لمنظمة "كاريتاس" الخيرية. هذه الملايين لا تذهب للتزيين أو الترف، بل تُترجم فوراً إلى وجبات طعام للمشردين، وملاجئ آمنة للمطرودين، وأسواق مدعومة تمنح عائلات الفقراء كرامة العيش.

إن هذا البعد الإنساني لنافورة تريفي يمنح الأسطورة شرعيتها الكبرى؛ فالمكان لم يعد مجرد محطة لالتقاط الصور العابرة، بل غداً محراباً للتضامن العالمي العفوي. هنا يتجلى سحر التاريخ حين يُطوّع لخدمة الإنسان؛ فالنقود التي كانت في جيوب السياح كفائضٍ عن حاجتهم، تصبح في خزائن الفقراء طوق نجاةٍ يدرأ عنهم غائلة الجوع والبرد. إنها الحكمة الرومانية المتجددة التي تخبرنا بأن الآثار الحقيقية لا تُقاس بمدى صمود حجارتها أمام عوادي الزمن، بل بمدى قدرتها على حماية الإنسان وإشعال شمعة الأمل في الزوايا المظلمة

من هذا العالم.

لذا تكتسب نافورة "تريفي" سحرها الحقيقي من تلك اللحظة التي يتحرر فيها الفعل من فرديته الضيقة ليصبح شرياناً يغذي قلب المجموع. فالسائح حين يلقي بقطعته المعدنية، لا يشتري أمنيته الخاصة فحسب، بل يمول - من حيث لا يدري أو يدري - أحلاماً أخرى كادت أن تنطفئ في بيوت الفقراء والمشردين . هنا تولد "الكارما الأخلاقية" في أبهى صورها؛ تلك الحلقة المفرغة والإيجابية من العطاء التبادلي. عندما تشعر النفس بأن ثمن أمنيتها صار بلسماً يمسح دمة بائس، يرتفع اهتزازها الروحي، ويتحرر الوعي من وطأة الأنانية الخائفة ليغرق في طمأنينة "الكل الإنساني". إن الإنسان يشعر حينها بأن الكون، بعدالته المطلقة وتوازنه الدقيق، لا يمكن أن يخذل يداً امتدت لتبني أحلام الآخرين.

علمياً، يفسر "علم النفس الإيجابي" هذا التحول العاطفي الجارف من خلال دراسة سلوك الإيثار والتضامن الاجتماعي. أثبتت الأبحاث أن الإنفاق على الآخرين والمساهمة في أعمال الخير يحفزان مناطق المكافأة في الدماغ، مما يطلق سيلاً من هرمونات السعادة والأمان مثل "الأوكسيتوسين" و"الأندورفين". هذه الحالة البيولوجية ليست مجرد نشوة عابرة، بل هي "الوقود النفسي المثالي" الذي يمنح الفرد سلاماً داخلياً وثقة مطلقة بالمستقبل. وعندما يواجه الإنسان تحديات الحياة وهو متسلح بهذا التفاؤل والهدوء، تتحول طاقة العطاء لديه إلى قوة دافعة تذلل العقبات، فتبدو الأمانى وكأنها تسعى إليه مكافأة له على نبل مقصده.

إن هذه الدورة الأخلاقية تخبرنا بأن أحلامنا لا تعيش بمعزل عن أحلام العالم؛ فالطريق الأقصر لنيل ما نتمنى هو أن تكون سبباً في تحقيق ما يتمناه غيرك. عندما تلقي بمالك أو بجهدك في نافورة الحياة بنية النفع العام، فإنك تبرم عقداً غير مكتوب مع القدر. إن النوايا الطيبة هي العملة الوحيدة التي لا تخسر قيمتها في سوق الوجود،

وحين يستقر في روعك أنك جزء من منظومة خيرية متكاملة، تخلص الروح رداء الخوف، وتصبح أكثر جدارة باستقبال العطايا الكونية، لأنها أدركت أن الفردوس الحقيقي لا يُسكن وحيداً، بل يُبنى بأيادٍ تتشابك لتصنع الفرحة للجميع.

هذا لا يعني

بين الله وبين زيتونته حكاية طويلة تجمع بين :
الحسن الأسمر ذو العينين السوداوين

و

الحسناء الشقراء ذات العينين الخضراوين

لكن هذا لا يعني أن يتم لصق كل شيء سيء في هذه الحياة بالشخص
القابع بينهما (والذي يحملهما كجناحين) كي يزداد حجمهما على
حساب آلامه.

الأب الحقيقي: يفعل المستحيل ليكون ابنه أفضل منه ويسعد بذلك.

الأب المزيف: يفعل المستحيل كي يثبت أنه أفضل من ابنه ويشوه
صورته في عيون الناس.

وعلى الناس أن يختاروا أي الأبوين يؤمنون بوجوده في السماء.



أسرار الحياة ...

محتوى الكتاب :

○ فلسفة الأنا و الهو

● 10+ & - 1000

○ حقل الألغام

● فلسفة الطاقة المهدورة

○ فلسفة لقاح الظلام

● الولادة الحقيقية

○ فلسفة دائرة الأرزاق

● فلسفة خريطة الكنز

○ آلام الموت

● الإشباع و بداية الضياع

○ التعاضد النفسي

● أثر الكوبرا

○ الشيطان هو أنت

● الخوف الفطري

○ كرتا غاليلو

● الارتواء من البحر

○ لماذا يتزوج البشر ؟!

● لا شبيه لك

○ و أوحينا إليك

● هل الله موجود ؟!

○ اللاوعي

● سراب الشهرة

○ نصل أوكام

- لسانك حصانك
- الدهر يومان
- العدو الوهمي
- الفقاعة المحافضة
- نظارات الحياة
- نسبية الصواب و الخطأ
- معضلة القنفذ
- النجاح لا يعني تحطيم الآخرين
- العقاب بالتشجيع
- لكل شيء ثمن وذلك لغاية
- هذا لا يعني



الحياة
لغز لا يحل
بل يُعاش...